فكر علمي . . . ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

412
أيار 2020

ملف الذكرى 150 لميلاد لينين

عامر عبد الله
حسن بدوي
فرحان قاسم
جيلبر توفييرا
صالح ياسر
رضا الظاهر
ميمو بوركارو
سيرج حليمي

ملف انتفاضة تشرين

أسماء جميل رشيد
علي مهدي
فالح مهدي
فارس حرَام
زهير الجزائري

نصوص قديمة

بواكير الحركة الوطنية
(القسم الثالث)

نصوص مترجمة

اريك أولن رايت

ادب وفن

حسب الله يحيى
جواد الزيدي
جمال العتابي
طلال حسن
نادية هناوي
مؤيد عليوي

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 412
أيار: 2020

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
culture1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

ملف الذكرى 150 لميلاد لينين

10- لينين الانسان ..... عامر عبد الله
26- اللينينة ثراء فكري للماركسية في عصر الإمبريالية ..... حسن بدوي
38- لينين والماركسية: في الاستراتيج والتكتيك ..... فرحان قاسم
49- ستراتيجي التاريخ ..... جيلبر توفييرا
58- بعيدا عن القوالب الجاهزة .. قريبا من نبض الحياة ..... صالح ياسر
71- لينين حول الأدب والفن ..... رضا الظاهر
81- أملئوا فراغ لينين .. بقلم: ميمو بوركارو ..... ترجمة: رشيد غويلب
87- لينين في قرن .. سيرج حليمي ..... ترجمة : طه رشيد

ملف انتفاضة تشرين

94- تحليل لجانب من مشاركة النساء في احتجاجات تشرين ..... أسماء جميل رشيد
106- الطلبة والنقابات في انتفاضة تشرين لسنة 2019 ..... علي مهدي
116- انتفاضة أكتوبر ونهاية الأيديولوجيا..... فالح مهدي
121- من يجب أن يقود التظاهرات؟ ..... فارس حرّام
127- الإعلام والإنكار ..... زهير الجزائري

نصـوص قـديمـة

132- بواكير الحركة الوطنية التقدمية في العراق (القسم الثالث) في لقاء مع الاستاذ حسين جميل

نصـوص مـترجـمة

152- فهم الطبقة .. نحو مقاربة تحليلية بقلم :اريك أولن رايت ..... ترجمة: سوران قحطان

أدب وفـــــن

166- في البدء ..ما بعد كورونا ..... حسب الله يحيى
167- الجادرجي وصلاح جياد .. صورتان للحلم المؤجل ..... جواد الزيدي
171- زهير الدجيلي .. من قتل قداح المشمش؟ ..... جمال العتابي
174- قصص قصيرة جداً ..... طلال حسن
177- (رواد) .. عبد القادر حسن أمين ..... نادية هناوي
186- (نقد)..الشعرية العراقية ورهان الحرية ..... مؤيد عليوي

لوحتا غلافي العدد للفنان : تركي عبد الأمير

مع ظهور وتفشي وباء "كورونا"، وبدافع من تداعيات الضغط الذي تمارسه مشاعر القلق والارتياب واللايقين وموجات الفزع والخوف الفردي والجماعي، انتشرت في المجتمعات انماط سلوكية ونفسية مضطربة، ترتبط بالاستجابات النفسية الفردية والمجتمعية لظهور الازمات الكبرى واستطالة امدها. وشاع من جديد خطاب "الثقافات" الغيبية والقدرية وتأويلاتها التي تربط الاوبئة والامراض بفتن تدمير العالم ونهاية الزمان. ومع شح المعطيات والمعلومات العلمية المنضبطة ومع ترقب المجهول، يلجأ الناس للخرافة، وللإشاعات. وتصعد نظريات المؤامرة بأكثر صورها سطحية وسذاجة.

بالمقابل، فان آليات تسيير وإدارة شؤون القطاع الصحي خصوصا في اوقات الأزمات، كأزمة وباء كورونا هذه، له آثار قوية على علاقة الجمهور بالحكومات، وبالنخب الحاكمة، وقد يصل التأثير الى "استقرار البلدان"!. واذا وضعنا في الحسبان ايضا ان نشوء وانتشار الامراض والاوبئة خصوصا في وقتنا هذا، يقترن غالبا بالعامل البشري سواء بصورة متعمدة او غير متعمدة: التأثير على البيئة والمناخ، او الكثافة السكانية العالية ووسائل النقل الحديثة والعولمة، او التلاعب البيولوجي والجيني، او صناعة الحروب او الادوية.

وخوفا من الركود الذي بات امرا واقعا وسعيا لتقليل الخسائر، بدأت سلسلة الاكاذيب والارتباكات. في البدء انكرت الكثير من الدول الرأسمالية وماكنتها الاعلامية خطر وباء كورونا واستخفت به وبتداعياته الممكنة، وعندما اصبح الوباء حقيقة لا محيص عنها انطلقت هذه الابواق مروجة لقدرة هذه البلدان على تحصين شعوبهم امامه، وذلك عن طريق الحدود المغلقة والاسوار الحصينة. وبعد ان بدأ الوباء ينتشر في بلدانها سارعت القوى المهيمنة الى التطبيل لإمكانيات نظمها الصحية على علاجه وتوفير العقار الشافي بسهولة! وفي النهاية وبعد سلسلة الاكاذيب والارتباكات الاجرائية التي تبعتها - اجراءات لم تتعد في بعض الاحيان منطق احصائيات الاصابات والوفيات - وبعد ان ثبت الفشل الذريع في اجراءات التصدي للوباء، وفي سبيل التغطية على هذه الخيبات عادت هذه الماكنة الاعلامية وبقوة، ومن ورائها دول ونخب سياسية وطبقات اجتماعية حاكمة، لتساهم في تزييف الوعي المجتمعي، وفي نشر "ثقافات" غيبية إتكالية ولا عقلانية، ولتشارك ايضا بنشاط في ذيوع الاشاعات ونظريات المؤامرة وفي خلق اعداء وهميين. ولتستمر سياسة التبجح والإدعاء، والقاء اللوم على الآخرين.

فايروس كورونا عرى الطبيعة الوحشية للنظام الرأسمالي

كان لأزمة تفشي وباء كورونا هذه تداعيات كثيرة. من ابرزها، انها كشفت بصورة جلية فشل العديد من الحكومات في ادارة هذه الازمة وفي التعامل معها، وأيضا اخفاقها في معالجة تداعياتها الاجتماعية والاقتصادية. وبغض النظر عن التباينات الواضحة في مستويات التصدي للوباء، فإن هذه الازمة قد سلطت الضوء على الفاعلية المتدنية للنظم والمؤسسات الصحية في البلدان الرأسمالية عموما، واظهرت بصورة درامية ومرعبة في بعض الاحيان لا هشاشة وعدم كفاءة الخدمات الصحية فقط، وإنما اللاعدالة واللامساواة الحقيقية في تلقيها. كما إن "عاصفة" كورونا اماطت اللثام عن الدور الحقيقي الذي تلعبه الدولة ووظيفتها الاجتماعية والسياسية تجاه الطبقات الاجتماعية المختلفة. وذلك بتجريدها من كل أردية الحياد والاستقلال. لكن الاهم من ذلك كله، ان فايروس كورونا عرى الطبيعة الوحشية للنظام الرأسمالي، المستعد دوما لتقديم الاضاحي على اي مذبح كان، في سبيل تحقيق الربح.

مجددا.. الاقتصاد العالمي يدخل في ازمة بنيوية عميقة

وعلى ارض الواقع، تزامنت ازمة تفشي وباء كورونا مع مؤشرات واضحة ان الاقتصاد العالمي يدخل ازمة اقتصادية عميقة، لا تقل فداحة ان لم تزد عما ولدته ازمة عام 2008. وبعيدا عن كل الادعاءات السياسية والاعلامية بأن الازمة الاقتصادية الحالية هي نتاج ازمة كورونا، لكن في الحقيقة فإن الاخيرة لم تمارس سوى دور الشرارة التي اطلقت لهيب الركود، دور المحفز. نعم، لقد فعّل وباء كورونا بعض العوامل واضاف اخرى، وفاقم من آليات تشكل الأزمة، مسرّعا وتيرتها، وأعطى لها ملامح وخصائص مميزة. لكن كان من الممكن ان يلعب اي حدث ـ بنفس مستوى الخطورة ـ هذا الدور. هذا مع العلم ان بوادر الازمة في قطاع الانتاج بدأت منذ عدة شهور. وفي سبيل انقاذ نفسها، وكما عملت في الازمات السابقة تسعى الرأسمالية الى انقاذ نفسها مرة اخرى بنفس الصيغ والممارسات التي اتخذتها لإخراج اقتصادها من مستنقع ازمة 2008، عبر حزمة من الاجراءات الاقتصادية والمالية والضريبية، همها الاساسي هو الحد من خسائر الاغنياء والشركات الكبيرة. وبالتالي تعميق التفاوتات بين اقلية غنية وغالبية فقيرة ومهمشة وضعيفة، بين قلة من البلدان المتقدمة المرفهة من جهة، وعالم واسع من الدول التابعة تعاني ويلات الكوارث الاقتصادية والاجتماعية ترافقها كوارث صحية وبيئية ومناخية.

سيحاجج كثيرون، اننا جميعا على سطح نفس الكوكب، وان علينا ان نقف معا في وجه الموجات العاتية، ضد مجموعة الازمات المركبة هذه. وهذا صحيح، ولكن بعد ان نحدد بصوة حاسمة من نحن. فاذا كانت جائحة فايروس كورونا قد اثرت على الجميع، فإنها لم تؤثر عليهم بعدالة، انه فعلا فايروس التفاوتات واللامساواة. ان وطأة الازمة صحيا واقتصاديا ومعيشيا وقعت اساسا على العمال، وعلى الفئات الكادحة والفقيرة الاخرى، خصوصا في البلدان التابعة. فأزمة وباء كورونا وما نتج عنها من ازمة اقتصادية عميقة و"فريدة" من نوعها، ستؤثر على جميع شعوب العالم بهذا الشكل او ذاك. لكن وقعها على البلدان الفقيرة والمتخلفة سيشكل مشكلة خطيرة وأزمة وجود ربما. ويكمن السبب في ذلك في ضعف وبدائية نظمها الصحية، وهشاشتها المؤسساتية، خصوصا بعد سنوات طويلة من تطبيق وصفات اللبرالية الجديدة وما تركته من آثار مدمرة. واذا اضفنا الى ذلك تراكم الديون وانهيار اسعار المواد الخام، ومشاكلها البنيوية الاخرى، ادركنا حجم المأساة الحقيقية.

وتدلل تجربة فايروس كورونا بحلته الجديدة ان الكوارث والأزمات التي يعيشها العالم حاليا، هي اساسا نتاج للمنظومة الرأسمالية التي راهنت في سبيل تكريس سطوتها وتحصين سلطتها على قدرتها في الخداع، والتزييف. وسعيها الدائم بكل ما تملك من طاقات وإمكانيات العنف المعلنة وغير المعلنة على ادامة منهجها الذي يثبت يوما بعد آخر فشله الذريع.

ومع اعدادنا للعدد 412 حلّ علينا الاول من أيّار، عيد الطبقة العاملة العالمية، عيد التضامن الكفاحي والنضال المستمر من اجل الحريات والسلام والديمقراطية الحقيقية والعدالة الاجتماعية، فتحية للطبقة العاملة في عيدها الأممي المجيد. وفي هذا العيد سيستلهم الكادحون، وهم غالبية شعوب العالم وطليعتهم الطبقة العاملة العالمية ذكرى الانتصار الأممي على الفاشية والنازية وسيحولون تذمرهم واستياءهم من الازمات والكوارث المستمرة، الى محفزات لبناء عالم جديد خال من الامراض والأوبئة والحروب والهيمنة. ومع اطلالة الذكرى الـ(150) لميلاد (لينين) الأممي العظيم، وقائد ثورة اكتوبر التي هزّت العالم قبل ما يزيد على قرن من الزمان ومؤسس الدولة الاشتراكية الأولى، سيلقى الضوء مرة اخرى على امكانيات الصراع الطبقي والاجتماعي وعلى قوة المستغَلين والمظلومين في تحريك عجلة التاريخ في سبيل بناء عالم جديد، خالٍ من الاستغلال الطبقي والاضطهاد والتمييز بكل أنواعه، عالم العدالة الاجتماعية والاشتراكية.

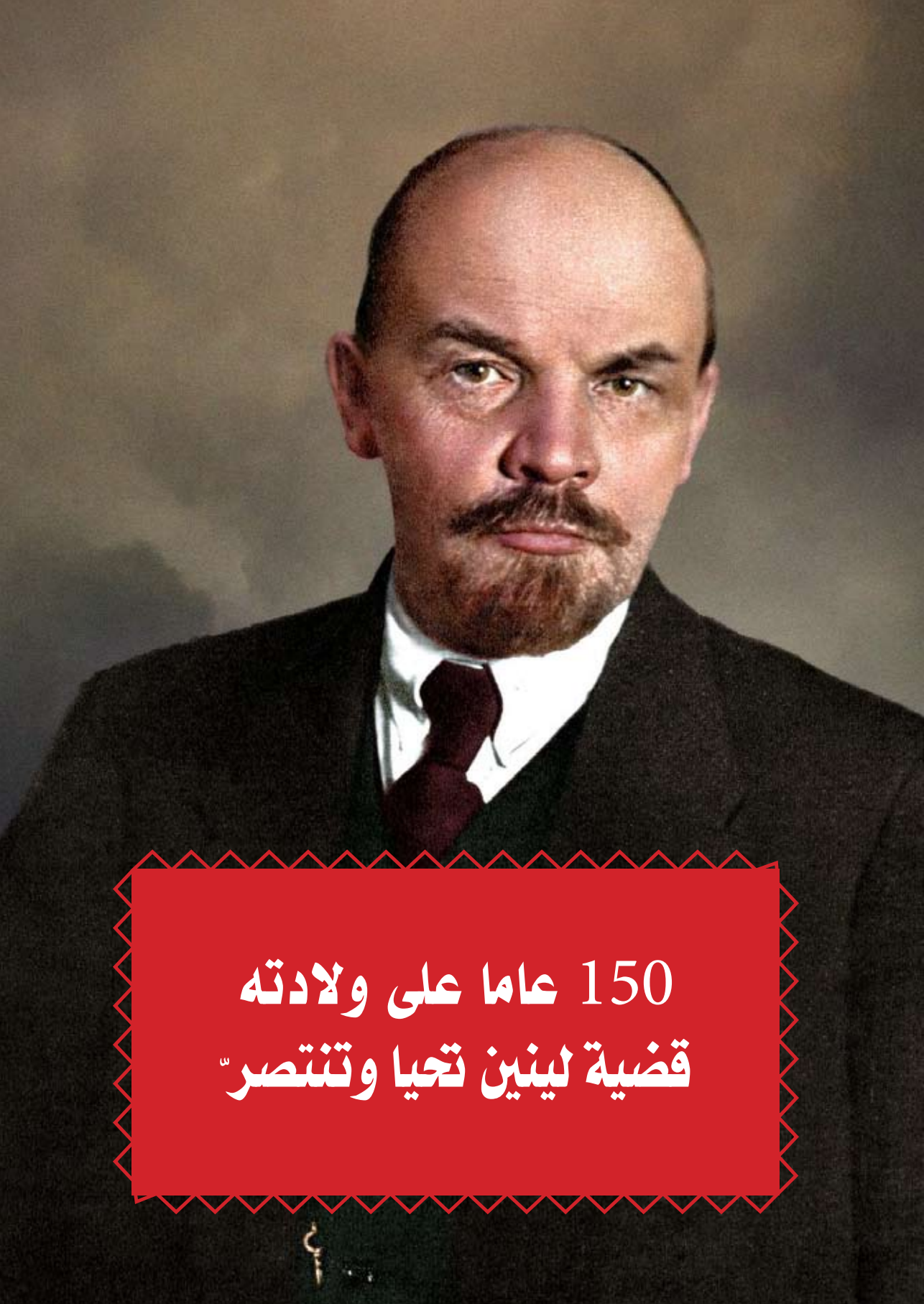

150 عاما على ولادته
قضية لينين تحيا وتنتصرّ

في هذا العام، 2020، تمر على البشرية **الذكرى الـ 150 لميلاد فلاديمير أليتش أوليانوف (لينين) والذكرى الـ 103 لقيام ثورة أكتوبر العظمى** في روسيا القيصرية، تلك الثورة التي **غيّرت** مجرى التأريخ العالمي. فقد **نجحت** الثورة **وظفر** البلاشفة بقيادة (لينين) بالسلطة السياسية في ظل توازنات وأوضاع سياسية واجتماعية داخلية وخارجية في غاية التعقيد.

ولكن منذ سنوات، بعد الانهيار الذي حدث، وهذه الذكريات تتخذ طابعاً مختلفاً، **نقصد** أنها **تاهت** بين التجاهل، ومحاولة تأكيد قيم ما، كانت تعد إلى وقت قريب حلم البشرية. لقد شطب الانهيار ذاكرة عند البعض، وأسقط مطامح وأحلاماً، وهزّ قناعات.

لقد كان الطريق الذي سلكه (لينين) وحزبه البلشفي صعبا ووعرا. ولم يدرك كثيرون ان المبادئ العامة لا يمكن ان تكون بحد ذاتها مفتاحا سحريا لحل قضايا النضال الثوري. ولن تكون فعالة إلا اذا استخدمت في التحليل الملموس للأوضاع الملموسة؛ وقد تتحول، في حالات مغايرة، الى عقائد جامدة. وقد اشار (لينين) الى انه لا يمكن تجنب الجمود العقائدي إلا حيث « يوضع تناسب مع العملية الفعلية للتطور الاقتصادي الاجتماعي» معيارا رئيسيا لهذه النظرية.

يتوخى الايديولوجيون البرجوازيون قطع المنجز اللينيني عن حركات العصر الاجتماعية وايداع التراث اللينيني في متحف التاريخ والادعاء بأنه ربما لا يصلح إلا لبعض البلدان والمناطق. ويحاول خصوم (لينين) ومنجزه ايقاف التأثير الاممي لتعاليمه وتصويرها كـ «ظاهرة روسية خاصة» ذات اهمية عابرة انتهت بوفاة لينين ليس إلا!

غير ان الاهمية التاريخية العالمية لما انجزه (لينين) تتأصل بالتحديد في كونها لا ترتكز على تجربة بلد ما بمفرده ولا تعميم خصائص بعض الفترات التاريخية فحسب، بل تلخص كذلك دروس التاريخ العالمي والبلدان العديدة وممارسة النضال لشتى القوى الاجتماعية. انه الجمع بين الاخلاص لمبادئ النظرية الثورية وصياغتها الابداعية على اساس افكار ومفاهيم جديدة، وبين خبرة الصراع الطبقي العالمية وخبرة كل بلد معين. ولهذا فان المنجز اللينيني ليس قالبا جامدا، بل تعاليم حية وخلاقة ومتطورة في آن.

ومن جهة اخرى يجب ان نتذكر دائما ان (لينين) ليس ايقونة وليست تعاليمه انجيلا. فكون المرء لينينيا راسخ التفكير لا يعني ان يكون عبدا للنصوص اللينينية، بل على العكس، يتطلب موضوعية علمية وبحثا جريئا عن حلول غير جاهزة، وتحطيما حازما للقوالب القديمة في التفكير والسلوك السياسيين، إلا ان ذلك ليس تخليا عن المبادئ. ويستحيل تطوير النظرية الثورية إلا على اساسها الخاص، على معرفة **التمييز** بين **المبادئ** التي تشكل جوهرها **والاستنتاجات** الملموسة التي لا يمكن تطبيقها الا في ظروف معينة والتي قد تشيخ ويجب تبديلها في الوقت المناسب. وفي كل الاحوال فان الأمر الهام جدا فيما يخص (لينين) هو عدم تحويل تراثه الى مومياء وعدم التشبث بما قاله في وقت ما. ان ما يهمنا، ونحن نمارس عملنا النضالي في ظروف تاريخية ملموسة،هو أفكاره ونشاطه، ومنهجه ونتائج نشاطه العامة.

ومن المؤكد ان الذين يحتفلون هذا العام، 2020، بالذكرى المئة والخمسين لميلاد فلاديمير أليتش لينين، لا يجهلون ماذا يمثل (لينين): انه ثوري، ورجل عمل واقعي، ذلك الذي بعمله الثوري الكبير دمغ بعمق عصره كله. ان (لينين) الذي اكتسب ثقة وايمانا لا يتزعزعان بالمصائر والطاقات الثورية للطبقة العاملة من اجل تحقيق تحويل جذري للمجتمع والذي اكمل وطور واغنى تعاليم ماركس وانجلس، قد اصبح النظري الكبير للاشتراكية العلمية في عصر الامبريالية والثورات البروليتارية، وقائد ثورة اكتوبر المجيدة، ومؤسس أول دولة اشتراكية في العالم.

ولم يكن (لينين)، كما يؤكد كل عمله «**نظري صالون**». فقد طور النظرية الماركسية في خضم المعارك الطبقية للبروليتاريا لأن هذه النظرية كانت دائما، بالنسبة له مرشدا للعمل الثوري ولم تكن عقيدة جامدة.

وقد خاض (لينين)، خلال سنوات طويلة، معارك ضارية ضد «الماركسيين الشرعيين» واصحاب النزعة الاقتصادوية والمنشفيك وكل انصار العفوية وذلك من اجل تغليب الحزب الثوري الجديد الطراز. وانتهى به الامر الى اثبات صحة افكاره والى انشاء حزب البلاشفة الذي حدد أسسه الايديولوجية والنظرية والتكتيكية والتنظيمية.

وهذا الحزب هو الذي نظم وقاد الطبقة العاملة الروسية نحو انتزاع السلطة في اكتوبر 1917. ومن غير وجود هذا الحزب الذي قاده (لينين) لما كانت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ممكنة. في احد أعماله « **الاهداف الفورية لحركتنا**» كتب (لينين) قائلا: «ينبغي تكوين رجال لا يكرسون فقط للثورة امسياتهم الحرة، بل كل حياتهم...». ولا بد من الاشارة هنا الى انه وعندما بدأ (لينين) نشاطه كثوري لم يكن في روسيا الا بضع عشرات من الماركسيين. وعندما وصل حزب البلاشفة الى السلطة في اكتوبر 1917 كان في صفوفه 350 ألف عضو تسير وراءهم الملايين.

خلاصة القول ان الطريق نحو اللينينية كان صعبا ووعرا. ولم يدرك كثيرون ان المبادئ العامة لا يمكن ان تكون بحد ذاتها مفتاحا سحريا لحل قضايا النضال الثوري. ولن تكون فعالة إلا اذا استخدمت في التحليل الملموس للأوضاع الملموسة، وقد تتحول الى حالات مغايرة الى عقائد جامدة. وقد اشار (**لينين**) الى انه لا يمكن تجنب الجمود العقائدي الا حيث «يوضع تناسب مع العملية الفعلية للتطور الاقتصادي الاجتماعي» معيارا رئيسيا لهذه النظرية.

واحتفاء بالذكرى الـ 150 لميلاد فلاديمير اليتش أوليانوف (لينين)، اعدت (الثقافة الجديدة) هذا الملف الذي ضم مقالات متنوعة كمساهمة منها في استذكار لينين: الثوري الكبير، ومؤسس حزب البلاشفة، وقائد اعظم ثورة اجتماعية رغم مآلها اللاحق. وفوق ذلك استذكار لينين الانسان.

المجد للذكرى الـ 150 لميلاد لينين!

(الثقافة الجديدة)

نيسان/2020

لينين الانسان *

عامر عبد الله

أيها الزمن،
انطلق،
وانشر شعارات لينين في زوبعتك!
فلسنا ممن يغرقون كل ما يحدث بدموعهم
ليس في العالم الآن من هو اكثر حياة من لينين،
فهو قوتنا
وهو حكمتنا
وهو سلاحنا الأكثر مضاءً
(مایاکوفسکي)

كثيرون هم أولئك الزعماء والقادة الذين تركوا أسماءهم الكبيرة على أوراق التاريخ أو في ذاكرة الأجيال، ولكن قلة من هؤلاء من عاش خالداً الى الابد في قلوب الناس.

كان (لينين) من هذا النموذج الفريد الذي جمع في نسيج متلاحم بين عظمة القائد، وعظمة الانسان.

كانت صفاته الرائعة كانسان، تتمازج بانسجام، أخاذ مع مواهبه الخارقة، كقائد ثوري، لتضفي على شخصيته طابع التكامل والعظمة.

كان (لينين) عظيما في انسانيته: في نقائه الروحي، وعاطفته الخيرة، وحساسيته المفرطة إزاء الظلم، وتفانيه المطلق من اجل خير الكادحين.

وكان لينين عظيما في تواضعه وبساطته، في صدقه واخلاصه، في رعايته لأصدقائه ورفاقه، في طيبة نفسه ولطف معشره. لقد اجمع كل الذين عايشوه وعملوا معه على ان البساطة كانت ابرز ملامح عظمته.

"كان بسيطا جدا.. ولم يكن في مظهره ما ينم عن (القائد)". هكذا وصفه (غوركي) في أول لقاء بينهما في لندن عام 1903.

"البساطة! انه بسيط كالحقيقة" قالها احد العمال لغوركي، بعفوية ساذجة عندما سأله عن رأيه في ابرز مميزات لينين.

لقد ظل (لينين) هو نفسه، ذلك الانسان المتواضع البسيط، حتى عندما اصبح رئيسا لدولة تشغل سدس الأرض، عاش في شقة صغيرة، واكتفى بأثاث بسيط/ وارتدى الملابس البالية، ورفض أية زيادة في مرتبه الزهيد، وقاسم رفاقه والجماهير الجائعة وطأة الحرمان والجوع.

لم يحط نفسه بحاشية ولا حراس، وكان ابدا مع العمال في المصانع، وباب مكتبه مفتوح دوما للزائرين، وخصوصا فقراء الفلاحين.

"لم يكن يوحي بالعظمة من النظرة الأولى"، كما يصفه احد رفاقه "ان انعدام البهرج الخارجي التظاهري كانت صفة مميزة لفلاديمير الييتش".

زاره فريق من الفلاحين "فخابت آمالهم" من بساطته. قالوا: (كنا نتصوره شيئا آخر تماماً.. كنا نظنه حاكماً، فاذا به شبيه بأي واحد منا)!

كان لينين يتناول طعامه، عندما اقتحم مكتبه فلاح من الأقاليم البعيدة، فذهل من بساطته. لقد "خاب امله هو الآخر!" كان هذا الفلاح يريد من السلطة ان تكون باعثة على "الهيبة والرهبة!!" ولم يشأ ان يصدق ما قاله له لينين من ان السلطة السوفيتية باقية الى الابد. قال الفلاح مخاطباً (لينين): "اية سلطة هذه، عندما لا يجد الوزير طاولة يكتب عليها.. او عندما يجلس الآخر هنا (يقصد لينين) ليأكل العصيدة بدون زبد!؟".

يقول عنه الصحفي الأمريكي الشهير (جون ريد): "لم يكن فيه ما يوحي بأنه معبود الجماهير. انه بسيط ومحبوب ومحترم بقدر ربما لم يحظ به غير عدد ضئيل من الزعماء في التاريخ". يمكن الجزم بأن (لينين) كان ذلك النموذج النادر في التاريخ ممن كانوا يمتلكون الحصانة الراسخة إزاء مغريات الحكم وغرور السلطة.

لقد عرف التاريخ كثرة من الزعماء والقادة ممن افسدتهم السلطة، وشوهت فضائلهم، فلم يلبثوا ان تحولوا من زعماء شعبيين الى حكام مستبدين.

ان السلطة تنصب للقائد "كميناً" قد لا يحس به حتى بعد سقوطه فيه. فلا يلبث ان ينزلق في مهاوي الغرور والغطرسة والتعالي على الجماهير، فيصبح الشعب "رعية" له والبلد "اقطاعية" لآله! وغالبا ما يقترن هذا الوضع بتحول هذا القائد الى "طاغية" مغرور، مستبد برأيه، مفتون ببهرجة الحكم، معزول عن الشعب وعن آماله وهمومه.

ان القادة الثوريين غير معصومين من الوقوع في (كمائن) السلطة. كما ان الأحزاب الثورية، هي الأخرى، ليست معصومة من الانزلاق نحو وضع من هذا القبيل.

وقف (لينين) يوما ما، ليحذر رفاقه قائلا: "لا يركبن رأسكم الغرور. ان حزبنا يمكن ان يجد نفسه في وضع خطر، شبيه تماما بوضع شخص ركب رأسه الغرور. وذلك بالطبع وضع اخرق شائن، وباعث على السخرية".

كانت مظاهر التكريم والاحتفالات والمدائح غريبة عن طبع لينين، فلقد تهرب من حضور الاحتفال الذي أقيم بمناسبة عيد ميلاده الخمسين، وطالب عبثاً بإيقاف الخطب التي كانت تلقى في تكريمه، ولم يحضر الا بعد الحاح، والا بعد ان استنفد الخطباء كلماتهم. وعندما وصل في خاتمة الاحتفال وقف ليقول: "شكرا للرفاق الذين حرروني من مهمة الاصغاء لمثل تلك الكلمات التي تقال في عيد الميلاد والتي لا لزوم لها اطلاقاً".

ثم اومأ للحاضرين ببطاقة تهنئة مشيرا الى ان مرسليها من الرفاق "كانوا عطوفين جدا لتخليصي من خطب عيد الميلاد.. فدعونا نأمل بأن هذا سيعفينا من احتفالات مماثلة في المستقبل".

نجد في العادة، وخصوصا في أيامنا هذه كثرة من الزعماء والقادة، ممن فتنتهم هتافات الجماهير ومظاهر التأييد والولاء لاشخاصهم. وليس نادرا ان نجد من بين هؤلاء من يطالب الجماهير بإبداء هذا الولاء، وإلا عدّت جاحدة او (ناكرة لجميل القائد!). كان (لينين) على النقيض من هؤلاء، وقد اعتاد ان يلوح بساعده للجماهير المنطلقة في

الهتاف له، معبراً في ذلك عن لومه لها في إضاعة الوقت عبثاً.

من الزعماء والقادة من يقع ضحية لشعور خادع بالتفوق، والادعاء والتعالي. وآخرون ممن افسدهم الحكم سرعان ما يجدون انفسهم وهم يركضون وراء الألقاب والاسماء والبهارج الزائفة. كانت كل هذه المظاهر غريبة على الطبع المتواضع عند (لينين).

زاره عالم فلكي ليشرح له مهمة رحلته الى سيبيريا حيث سقط نيزك ضخم هناك وقال مخاطباً (لينين): ".. لكنني متأكد انك تعرف كل شيء عنه". فأجاب (لينين) على الفور: "لا ينبغي ان تكون متأكداً.. انا اعرف ان نيزكاً قد سقط في مكان ما وذلك كل شيء". ثم عقب قائلا: "انه لشيء غريب ان يظن كثرة من الناس ان رئيس مجلس مفوضي الشعب والمفوضين الشعبيين، يعرفون كل شيء! ذلك هراء خطر! فالواقع اننا نعرف القليل، وحتى بشكل فاضح".

هو (لينين) العقل العبقري الذي خلف للبشرية وكل الثوريين كنزا جليلا من المعرفة، لم يكن مدعياً، ولا معتدا بمآثره. ذكرت له احدى رفيقاته كيف انها انصرفت في السجن الى قراءة كتابه عن (تطور الرأسمالية في روسيا) فقال مازحاً: "سيئة الحظ انتِ كتب عليكِ وانتِ في زنزانة السجن، ان تنبشي في جداولي الطويلة المضجرة.. كم انا مشفق عليك!".

وصادفه احد الفلاحين في احد الحقول، وكان لا يعرفه، فبادره بالخطاب "يا صاحب السعادة" فرد لينين: (لست صاحب السعادة.. انا الرفيق لينين). وانتهره آخر عندما وطأ الزرع ثم عرفه فيما بعد وظن انه غاضب عليه، لكن (لينين) عندما لاقاه بعدئذ قال له: "كان لك الحق في ان تزجرني". ثم جلس معه لتناول الشاي.

كان (لينين) قد كتب في احدى الاستمارات عن نفسه "انه يعرف الإنكليزية والألمانية. اما الفرنسية فيعرفها بشكل رديء، والإيطالية بشكل رديء جداً". ولكنه في المؤتمر الثاني الكومنترن، عندما كان يدور الكلام حول الحزب الشيوعي الألماني، كان يتكلم بالالمانية، وبعد ذلك عندما تكلم عن أخطاء (سيراتي) انتقل الى اللغة الفرنسية متحدثاً بيسر وطلاقة.

ان من يراجع بحثه الفلسفي المشهور "المادية والنقد التجريبي" يجد انه استعان بعدد كبير جدا من المصادر الإنكليزية والفرنسية والألمانية. كما انه درس اللاتينية. رغم ان لينين كان عبقرية فذة من عبقريات النظرية الماركسية ورغم انه اعطاها الكثير من عنده، وطورها واغناها، الا انه ظل يكن التبجيل العظيم لمؤسسي النظرية العلمية ويتخذ منهما موقف التلمذة. كان يردد انه غالباً (ما يلجأ الى ماركس يستشيره). وقد ابدى غبطة كبيرة بإطراء بليخانوف واكسيلرود على كراسه (مهمات الاشتراكيين الديمقراطيين الروس) وقال: "ان رضاهما عن كتاباتي هو اعظم ما اتصوره لنفسي". وغالبا ما كان يذكر بليخانوف بأنه استاذه وان كتابه "المفهوم الوحداني للتاريخ" ** قد كان بمثابة مادة "ثقفت جيلا بأكمله من الماركسيين الروس". ولم يقف (لينين) النظري الملهم من النظرية موقف المتعبد في محرابها، بل تمسك بالحياة والواقع قبل كل شيء مسترشداً بالنظرية العلمية ومتناولاً إياها من خلال ارتباطها الجدلي بالواقع الموضوعي، ومقدار تطابق موضوعاتها

وتعاليمها على الواقع التاريخي الملموس. وطالما كان (لينين) يردد مقولة شاعر المانيا الكبير (غوته): "ان النظرية رمادية اللون يا صاح – ولكن شجرة الحياة خضراء الى الابد". من هذا الموقف إزاء النظرية العلمية ومن تعاليم ماركس (التي وصفها لينين بانها كلية الجبروت)، صاغ نظرية الثورة الاشتراكية وخلف للإنسانية تراثا ضخما من الأفكار والتعاليم. ان من يقرأ اعمال (لينين) يستنتج فوراً، انه لم يتصرف كعالم اكاديمي، بل كقائد ومعلم ثوري. ان جميع اعماله، دون استثناء، كانت معالجات ملموسة لمهمات ملحة فرضتها تطورات وانعطافات الحركة الثورية في عصره.

لم يفكر (لينين) ابدا ان يكون نظرياً بارزاً او مؤلفا لتلك الاعمال الجليلة من نتاجه الفكري العظيم. كان – كما يقول عنه رفاقه الاقربون – يلتزم في كتاباته بنصيحة الشاعر الروسي الكبير (نكراسوف): "الرحابة للأفكار والايجاز للكلمات".. ان سعة المؤلفات اللينينية ناشئة عن سعة وضخامة المهمات التي تصدى لها (لينين) والبلاشفة. كان (لينين) وهو العقل الديالكتيكي الثاقب، يعالج الظاهرات والعمليات المعقدة بشكل دقيق وواضح. كان يقول لغوركي: "ان افضل ما قاله شوبنهاور هو ان من يفكر بوضوح يعرض الأشياء بوضوح". ان الصعوبة التي يلقاها القارئ المبتدئ أحيانا في بعض اعمال (لينين) سببها انه كان ابعد ما يكون عن المعالجات السطحية وعن التبسيط المخل بالمعالجة العلمية للظاهرات والعمليات التي هي معقدة بطبيعتها.

كان (لينين) متواضعا إزاء رفاقه، يكّن لهم الاحترام والاعجاب والتقدير. يقول عنه احد رفاقه القدامى: "كان يحترم الآخرين بمقدار ما يحترم نفسه، وذلك احياناً أمر صعب بالنسبة لأولئك الذين غالباً ما كان يغالي في تقدير مواهبهم، ظاناً انهم يمتلكون نفس القدرة الخارقة التي يمتلكها هو..".

ويقول غوركي عن (لينين): "كان يبدي اهتماماً مخلصاً صادقاً لرفاقه كرفيق حقيقي، كما كان يعاملهم بود كأنداد متكافئين. انني اعرف ان فلاديمير لينين كان اعظم بما لا يقاس بالنسبة لاكبر قائد آخر في حزبه. ومع ذلك ما كان يبدو انه يحس بذلك".

رغم امتلاكه تلك المواهب والقدرات، لم يكن لينين كما يروي احد رفاقه القدامى "ليتخذ قط أي قرار او يغامر باتخاذ خطوة ما قبل ان يقتنع بأن ما يرتأيه ليس مجرد رأيه الشخصي.. بل الرأي المعبر عن وجهات نظر الكثيرين من زملائه". ويقول: "ان الذين زاملوه والتقوا معه، ما كانوا في العادة ليشكوا قط الى أي احد كانت مشاغلهم المشتركة وتجاربهم، تلهم فلاديمير الييتش أفكاره وقراراته. انها بالضبط تلك المَلكة التي تتكون منها قدرته النادرة، الا وهي تكثيف وتركيز تجربة ومعرفة الكثيرين في نفسه، كما في مرآة مقعرة وتحويل كل ذلك الى أفكار وشعارات عامة، في مختبر عقله".

***

تقول عنه زوجته ورفيقته كروبسكايا: "كانت غريبة عليه الصغائر، والحسد الرخيص، والحقد، وحب الانتقام، والغرور وهي صفات يتميز بها كثير من الفرديين".

كل الذين قرأوا (لينين) قد لاحظوا بأية صيغ صارمة كان يرد ويفند ويعري أخطاء ومواقف زملائه الذين خرجوا على مبادئ

الحزب او انشقوا عليه، او سعوا لتشويه تعاليم الماركسية وفلسفتها. وغالبا ما يظن المرء، ان وراء تلك المواقف المبدئية الحاسمة التي كان يتخذها لينين، ضغينة او قطيعة، او نوع من المآسي التي تولدها الصراعات اللامبدأية المريرة في صفوف بعض الأحزاب. لم يكن الامر هكذا ابدا، كان (لينين) لا يساوم ولا يعرف الهوادة والمهادنة في كل ما يتعلق بالمبادئ. ولكنه كان ابعد ما يكون عن الأحقاد الشخصية وعن التفريط بالمواهب والكفاءات.

يجد القارئ لأعمال لينين عددا كبيرا من البلاشفة القدامى الذين كانوا هدفاً لإدانات لينين الصارمة: بوغدانوف، بزاروف، لوناشارسكي، بليخانوف، مارتوف – وذلك بسبب اخطائهم الفلسفية او التكتيكية. كما يعرف أسماء قادة بارزين آخرين: زينوفيف، كامينيف، بوخارين، تروتسكي، راديك – الذين كانوا أيضا موضع نقد شديد من جانب لينين بسبب اخطائهم الفادحة أو انحرافاتهم السياسية والفكرية، او مواقفهم الانشقاقية. ولكن لا يلبث المرء ان تعتريه الدهشة، عندما يرى ان لينين قد احتفظ مع جميع هؤلاء بعلاقات الصداقة، او اتخذ منهم موقفا إيجابيا باذلا كل جهد نبيل لتصويب اخطائهم والامساك بهم او إعادة الخارجين منهم الى صفوف الحزب.

يروي (غوركي) كيف وجد لينين مرارا وتكرارا وهو يتحدث عن الأشخاص الذين قرعهم وسخّر بهم، بالأمس، يعود ليثني على مواهبهم وثباتهم المعنوي. ورغم الحدة التي كان لينين يجابه بها بوغدانوف ولوناشارسكي وبزاروف بسبب ضلالاتهم المثالية في الفلسفة، كان يبدي اتفاقه مع غوركي على (انهم رجال عظام وذوو ثقافة شاملة رائعة). كان يقول بلهجة من الأسى والاسف "يا لهم من عقول موهوبة، وقد فعلوا الكثير جدا من اجل الحزب، وبمقدورهم ان يفعلوا عشرة اضعافه.. لكنهم لا يريدون ان يسيروا معنا! لا يستطيعون". ويستطرد شاكيا: "ان عشرات ومئات من امثالهم قد تحطموا واقعدوا بفعل هذا النظام الاجرامي".

كان نبل لينين وطيبته تجعل هؤلاء لا يغتاظون من حديثه ونقده اللاذع. كان بوغدانوف مثلا، شديد التعلق بلينين، كما كان لينين يحبه ويلتقي به لمناقشته، او يلعب معه الشطرنج.

وكان يقول عن لوناشارسكي انه "سيعود الى الحزب، انه اقل فردية من هؤلاء الاثنين (بوغدانوف. وبزاروف- ع). انه رجل ذو مواهب نادرة. ان بي ضعفاً إزاءه. اية كلمات خرقاء لعينة؟ ضعف إزاء امرئ ما؟! انني احبه.. فهو رفيق ممتاز، وفيه ألمعية فرنسية. كما ان خفة روحه فرنسية هي الأخرى".

وفيما عدا مواقف لوناشارسكي الخاطئة على صعيد الفلسفة، كان قد انشق على الحزب بعد ردة ستولبين، واصدر صحيفة (الى الامام). بيد انه عاد الى الحزب فيما بعد. واسندت اليه وزارة الثقافة بعد انتصار ثورة أكتوبر. كما كون (تروتسكي) في هذه الفترة تكتلا خارج الحزب، واتخذ داخل الحزب سلسلة من المواقف الخاطئة. ثم عاد فيما بعد ليشغل سلسلة من المراكز الرفيعة في الحزب والدولة. اما (بليخانوف) فقد سار بعيدا في خط المناشفة، ولكنه عاد فوقف ضد تصفية الحزب في أيام الردة، فتحالف معه لينين والبلاشفة. ثم اتخذ مواقف مناهضة لتكتيك الحزب ولا سيما فيما يتعلق (بموضوعات

نيسان) التي تدعو الى الثورة الاشتراكية ووصفها بـ (الهذيان!) ولكن لينين الذي ظل يكن الاحترام والمحبة لبليخانوف قد سعى الى تكريمه بعد ثورة أكتوبر وتأمين معالجته في احد المصحات لتمكينه من مواصلة عمله الفكري. وبعد وفاة بليخانوف في عام 1918، نجد رسالة يلح فيها لينين على توفير المواد لاقامة تمثال له ويلوم المسؤولين على اهمالهم لقبري بليخانوف وزاسوليج.

كان "مارتوف" – كما هو معروف – قد قاد الخلاف في المؤتمر الثاني للحزب عام 1903 حول مفهوم الحزب وشروط عضوية الحزب، واسفر الأمر عن الانشقاق الخطير لجناح المناشفة الذي تزعمه مارتوف.. ومع ذلك، يروي غوركي كيف ان لينين قد شكا له مرة قائلاً: (وا أسفاه، ان لا نجد مارتوف معنا – في الحزب – يا له من رفيق ممتاز وانسان طيب).

كان لينين، يغضب ولا يحقد، يغبط ولا يحسد، يعفو ولا ينتقم. ارتكب (زينوفيف وكامنيف) خطيئة قاتلة كبرى عندما افشيا سر الموعد المقرر للبدء بانتفاضة أكتوبر، بدافع موقفهما المعارض للانتفاضة المسلحة. فغضب لينين غضبا شديدا وطالب بطردهما من اللجنة المركزية، ثم عاد بعد حين ليطلب بنفسه اعادتهما الى المكتب السياسي، بعد ان انتقدا خطأهما الفادح الذي كاد ان يكلف الشعب خسران ثورته الاشتراكية العظمى. وغضب لينين بشدة على (ستالين واورجنيكدزة) لمعالجتهما الخاطئة وموقفهما المتشدد إزاء الاتجاهات القومية في جورجيا، كما طالب مرة بمعاقبة اورجنيكدزة وفق نظام الحزب، معربا في رسالته عن ألمه وأسفه بأن يتقدم بمثل هذا الطلب ضد صديق عزيز عليه.

ان جانبا من اهم جوانب عظمة لينين، هو انه استطاع عبر صراعات مريرة وانحرافات لا حصر لها، ان يمسك بالمجموعة القيادية للحزب، وان يوحدها في النهاية، مبدياً حرصا عظيما على استثمار جميع الكفاءات لخير الحزب والشعب، ومن دون ان يسمح للنزوات والضغائن والعواطف الشخصية ان تجد لها موضعا تفرخ فيه جراثيم الأذى في جسم الحزب. فطوال وجود لينين على رأس الحزب، ورغم العناء والحزن الذي كان يعتريه من مواقف بعض الرفاق، لم يلجأ الى التفريط بأي منهم بسبب أفكاره او حتى ضلالاته الكبيرة.

كان لينين صارماً في مبدئيته، موضوعيا في نظرته. كال للشعبيين نقدا لا يرحم، ودان مبدأ الإرهاب الفردي الذي كانت تمارسه منظمة (إرادة الشعب). ولكنه قيم في الوقت نفسه الدور البطولي لرجال هذه المنظمة وقدر تضحياتهم وبسالتهم المعنوية. ان الزائر لمكتب لينين في الكرملين يستطيع ان يشاهد اليوم تمثال (خلتورين) الذي تطوع لقتل القيصر، فأعدمته السلطات. وقد احتفظ به لينين في مكتبه بعد ثورة أكتوبر. وفي رسالة موجهة الى وزير الزراعة ووزير الطعام، طالب لينين بتقديم المساعدة الى المواطن العجوز (تيركوف) احد الأعضاء السابقين لمنظمة (إرادة الشعب) والذي اشترك في محاولة اغتيال القيصر.

وكان لينين – كما هو معروف – صارماً أيضا في نقده للفوضوية. ومع ذلك نراه يصدر امرا بتخصيص قطار خاص لنقل الأطباء من اجل فحص ومعالجة (كروبوتكين) احد زعماء الفوضوية الذي عاد الى روسيا بعد ثورة شباط 1917.

كان وفاء لينين لأصدقائه وعنايته برفاقه جانبا آخر من جوانب عظمته. وسواء عندما كان في المهجر، ام بعد ان اصبح رئيسا لأكبر دولة في اوربا، كان يتفقد أوضاع رفاقه وأصدقائه ويتساءل عن مصائر من انقطعت اخبارهم عنه. وكان يبدي الولاء العظيم لأولئك الذين ساعدوه وآووه في بيوتهم أيام اختفائه. ان مشاغل الدولة، وهي واسعة ومضنية، لم تشغل لينين عن الاهتمام بـ(الأمور الصغيرة) التي كان يراها "ذات أهمية فائقة". كما تروي عنه زوجته ورفيقته كروبسكايا. وبقدر ما كان لينين منصرفا عن الاهتمام بنفسه، كان شديد الاهتمام بعيش وصحة وسكن أصدقائه ورفاقه. عرف وهو في المهجر بأية ظروف صحية خطرة يشتغل الطباعون في المطبعة السرية في موسكو لاصدار جريدة (البروليتاري)، فطالب بغلق المطبعة. وعندما كان يرى تدهور صحة جيجرين ودرجنسكي وغيرهما من قادة الدولة، جراء الاعياء وظروف العمل والعيش القاسي، كان يحرر الرسائل ويستصدر الأوامر لالزامهم بالراحة والعلاج. ان من يقرأ رسائل لينين للاستفسار عن صديقته ورفيقته في المهجر (انيسه ارمان) يرى بأية لهفة قلقة وإصرار كان يريدها ان تعنى بنفسها وتشفى من مرضها. وقد حزن لوفاتها وتابع بحرص شديد مصير بناتها، والعناية بهن.

ان من يتصفح سيرة لينين يجد نفسه امام طائفة كبرى من الرسائل والبرقيات والمكالمات التلفونية، لطلب مساعدة لهذا او ذاك، او تعزية صديق منكوب، او التدخل بالشهادة لصالح رفيق او صديق تعرض للأذى او الإساءة. لم يكن يستطيع ان يرد طلبا لاحد، او ان يهمل رسالة او شكوى.

تروي عنه سكرتيرته (فوتييفا) نماذج عديدة عن شدة عنايته برفاقه. كان يلاحظ الضنى والعياء الذي يلم بهم وانصرافهم عن العناية بأنفسهم. كانوا ابان حرب التدخل يبدون كالاشباح، وقد اغمي على احدهم من الجوع في احد اجتماعات اللجنة المركزية. فكان لينين يوصيها ان تسهر عليهم وان تكون لهم (اما، واختا، وممرضة) وقد لجأ لينين أخيرا الى استصدار قرار من المكتب السياسي لإلزام الرفيق المعني بالعلاج والراحة عند اللزوم.

هكذا كان لينين، عطوفا كريما مؤثرا زملاءه على نفسه، هو الانسان العظيم. يصفه (جون ريد) بقوله: "كان ذا قلب كريم، وعاطفة إنسانية، واهتمام بهموم الغير، وجمال روحي وما الى ذلك من الصفات التي تجعل دم الانسان فوارا".

وتقول عنه كروبسكايا: "كان يقبل على الناس بحساسية رائعة، ويكتشف فيهم كل ما هو طيب وقيم يمكن وضعه في خدمة القضية العامة.. لم يخاتل أحدا، ولم يكن يلجأ الى الدبلوماسية، فكان الناس يشعرون بصدقه واستقامته".

وتقول أيضا:

"كان الاهتمام بالرفاق سمة مميزة له. فكان يهتم بهم وهو رهين السجن، وهو طليق، وهو في المنفى، وهو في المهجر. وعندما صار رئيسا لمجلس مفوضي الشعب، لم يكن يهتم بالرفاق فقط، بل وبأناس بعيدين جدا ممن هم بحاجة الى مساعدته".

لشدة ما كان لينين يفرح ويعتز بمواهب رفاقه، واقبالهم على العمل والتعلم، كتب لـ (غوركي) عن سروره الكبير بقدوم ستالين

عام 1913 ومعرفته بالمشكلة القومية. قال: "لدينا الآن جورجي رائع يكتب مقالة طويلة لمجلة الثقافة وقد جمع كل المعلومات المتوفرة في النمسا وغيرها أيضا". وقد حثّ لينين ستالين ان يقضي شهرين لدراسة المراجع في مكتبة فينا.

وكان لينين – حسبما تروي رفيقته كروبسكايا – يبدي اهتماما كبيرا بتصحيح كتابات الكتّاب غير المحترفين من رفاقه، ويقترح التعديلات الضرورية بصورة لا تجعلهم يشعرون بها. كما كان يلهم الكتّاب أفكار مقالاتهم بنفس الكيفية، بحيث يجدون انفسهم وهم يرددون نفس عباراته وصيغه احياناً.

هو ذا لينين الانسان المترفع عن الصغائر والاحقاد والحسد الرخيص. ولذا استطاع ان ينشئ ويقود حزبا جباراً، شق جسد النظام القيصري مثل سهم فولاذي منطلق.

ذلك هو لينين النموذج والقدوة لكل المتصدين لمهمات القيادة. ان الحصانة إزاء الصغائر والاحقاد الشخصية هي صفة ضرورية للقائد وهي سر منعة الحزب الثوري. ان هذه العواطف الوضيعة المؤذية يمكن لها اذا ما استحوذت على القائد ان تفسده، وتجعل منه شخصا خطراً لا مبادئ له. كما يمكن لها، اذا ما وجدت ارضا تعيش عليها داخل حزب ما، ان تسمم حياته، وتشل قدراته، وتصنع له من داخله عدوا قد لا يكون اقل خطرا من اعدى اعدائه الطبقيين.

كان لينين عادلا رحيما، شديد المقت لكل مظاهر الظلم والقسوة ونزعات التعسف. اختار بنفسه (درجنسكي) ليرأس (لجنة امن الدولة) وهو العليم بما يتمتع به صديقه ورفيقه (درجنسكي) من مزايا خلقية رفيعة. كان حريصاً على ان يشغل هذه المهمة الحساسة، رجل يتحلى بأكبر قدر من صفات العدالة والنزاهة وحساسية الضمير.

كان لينين ضد العنف، كلما كان ذلك ممكناً، وقد ابدى حرصاً شديداً على متابعة ومراقبة اعمال لجنة امن الدولة بنفسه.

شكا إليه درجنسكي مرة من ان المسؤول عن شؤون السجناء من أعداء الثورة قد خفض حصصهم من الخبز بمقدار عشرين حصة بدعوى انه حتى العمال الذين ينتجون السلاح لا يجدون ما يأكلون. فأبدى لينين امتعاضه وطلب من درجنسكي ان يختار عشرين سجيناً ممن هم اقل عدوانية، ويطلق سراحهم لقاء وعدهم بالتوقف عن مكائدهم ضد الثورة. وقال: "يبدو ان سجناءك جياع، فأرجوك ان تفعل ما أقوله لك فوراً"! وشكا اليه احد المواطنين من ان ابنه قد اعتقل دون تهمة، فاهتم بالامر فوراً وطالب بالتحقيق واعلامه بالنتائج. وغالباً ما نرى في الرسائل التي يوجهها لينين في مثل هذه الأحوال الصيغة التالية: "ارجو اصدار الأوامر للتحقيق في القضية بأكبر قدر من العناية واعلامي بالنتائج".

وعلى هذا النمط، كان رد فعله لشكوى قدمها أربعون مواطنا ضد ما نسبوه للسلطات المحلية من اعمال تعسف ضد الفلاحين. ومثلها أيضا مطالبته بمحاكمة المسؤولين الذين لم يسمحوا للعناصر غير الحزبية، في احدى المدن بالاشتراك في انتخابات السوفييت المحلي، والقوا القبض على من قدم الشكوى ضدهم. فطالب باطلاق سراح هذا المعتقل فوراً بعد ان تحقق من صدق الشكوى. وعندما علم بأن "لجنة امن الدولة" قد صادرت من احد المواطنين كمية

من الطحين وبعض المنتجات التي حصل عليها بعمله. وانه يعيل أربعة افراد، طالب "بفحص هذه القضية بعناية تامة، واعلامه بالنتائج، برقياً".

وخلال حملة تطهير الحزب في مستهل عام 1922، انشغل في فحص جميع الشكاوى التي كانت ترده، مدلياً بمعلوماته لصالح أولئك الذين يعرفهم او يقدر خدماتهم السابقة او خدمات عوائلهم للحزب قبل الثورة. كما كان يهتم بجمع المعلومات عن أولئك الذين لا يعرفهم، ويطالب بإعادة تدقيق قضاياهم بعناية، مشيرا في رسائله الموجهة بهذا الصدد، الى مشاطرته القلبية لهؤلاء في آلامهم ويأسهم.

تلك نماذج صغيرة من مواقف كثيرة، تدل على مبلغ ما كان يتحلى به لينين من حساسية مفرطة إزاء كل مظهر من مظاهر التعسف والظلم. اما مواقفه من القضايا الكبرى، فهي مستمدة من عقيدته الثورية، فلطالما اكد لينين بأن العنف ليس هو الشيء الرئيس في دكتاتورية البروليتارية، بل سياسة الاقناع والتثقيف. وليس في الوثائق المكرسة لسيرة لينين وعمله كرئيس للدولة ما يشير الى امارة واحدة من امارة القسوة او نزعة الى العنف. وهذا ما يؤكده رفاقه القدامى، ويذكرون له موقفا فريدا وحيدا وهو ابداء موافقته اللاحقة على مبادرة العمال في اعدام القيصر واسرته بعد ان تقدمت جيوش المتدخلين من الشرق نحو القرية التي نفي اليها، خشية ان يعمد المتدخلون الى اعادته الى السلطة. ان وجود لينين على رأس الحزب والدولة، كان عاملا هاماً، في اكساب ثورة أكتوبر طابع ثورة بيضاء كانت اقل عنفا من اية ثورة كبرى في التاريخ. وتلك في الحق ظاهرة تبعث على الدهشة، خصوصا اذا اخذنا بعين الاعتبار مقدار ما تعرضت له ثورة أكتوبر من المكائد الشريرة، واعمال التخريب، والاغتيالات، ثم الهجمات المسلحة من جانب المتدخلين والحرس الأبيض. كان يقول لغوركي مرة: "انت تعلم اننا نتابع مُثلاً عليا تناهض كل شكل من اشكال العنف ضد الشعب".

كان لينين، ولا سيما في أواخر حياته، في اشد القلق من احتمال نشوء مظاهر التعسف والبيروقراطية. ولذلك اشغل نفسه رغم مرضه الشديد في صياغة أفكاره حول "لجنة الرقابة العمالية – الفلاحية" والدعوة الى ضرورة تكوينها حالاً. وكان من رأيه ان تولى هذه اللجنة أهمية فائقة، وان تمنح حق مراقبة اللجنة المركزية والمكتب السياسي، بعد ان يصطفى لها عدد كبير من العناصر العمالية والفلاحية المجربة، وذات الخبرة والمتحلية بأكبر قسط من النزاهة والكفاءة.

كان لينين منشغلا ليس فقط ببناء الاقتصاد الاشتراكي، بل ببناء الديمقراطية الاشتراكية. كان يرى ان الاشتراكية ليست في بنائها الاقتصادي فقط، لان الاقتصاد هو فقط قاعدة هذا البناء. اما أساسها ومستلزمها فيكمن في إعادة بناء النسيج الاجتماعي بأسره، وفي إرساء قاعدة الديمقراطية الاشتراكية. وهذا ما كان يميز لينين الثوري المبدئي الصارم، والانسان الديمقراطي العادل في الوقت نفسه.

***

كانت إنسانية لينين تعبر عن نفسها ايضاً، في تعلقه بالأطفال وشدة عنايته بهم. فما كان يلتقي بالأطفال حتى تبدأ في الحال مداعبات ومحادثات مرحة صاخبة. يروي أصحابه انه كان ابرع من يتقن فن محادثة الصغار،

وغالبا ما كان يتحدث اليهم بجدية ليشعرهم بالثقة والود، خلافا لما يلتزمه الكبار إزاء الأطفال عادة.

تذكر احدى رفيقاته، كيف كان يستحوذ عليه الحزن عندما يرى حرمان الأطفال من الطعام والملابس والملاعب. وتروي مثلا لذلك قصة الطفل (اليوشا) وكيف هتف لينين حانقا وهو يقول: "كتب على اليوشا ان يحرم من طفولته، لتستطيع عشيقة القيصر ان تعيش ببذخ ورفاه".

فورا بعد ثورة أكتوبر طلب (لينين) ان ينشأ مجلس لحماية الطفولة تحت اشراف وزارة التعليم على ان يضم ممثلين عن جميع الوزارات التي لها علاقة بالأطفال. وعندما وجد لينين ان أمور هذا المجلس لا تسير على ما يرام، اقترح تكوين لجنة لرعاية الطفولة تحت اشراف رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية لعامة روسيا، وتعيين (درجنسكي) الصديق الودود للأطفال، رئيسا لها.

وخلال المجاعة، ابدى لينين اهتماما فائقا بتغذية الأطفال، واستصدر بتوقيعه بيانا من اللجنة المركزية ومجلس الوزراء يقول: "ان الأطفال في الدولة البروليتارية السوفيتية، ينبغي ان يمونوا تموينا كاملا، ولسوف ينالون ذلك، بصرف النظر عن الصعوبات الاقتصادية الخطيرة وشحة الغذاء التي تعانيها البلاد". كما وقع لينين عام 1919 لائحة تقول: "ان جميع تجهيزات الطعام التي تقدمها هيئات الغذاء المحلية، الى الأطفال حتى سن الرابعة عشرة، ينبغي منذ الآن ان تقدم مجاناً وعلى حساب الدولة.. ان المنتجات الغذائية المكرسة للاطفال ينبغي ان تعطى الأولوية". وطبقا لأوامر لينين جرى تحويل افضل المنازل الريفية وبنايات حقول الدولة الى مؤسسات للأطفال، كما صدر قرار بتوقيع لينين ينص على: "اعتبار شحن البضائع الموجهة الى معسكرات الأطفال مهمة بقدر أهمية شحن الأسلحة".

كان لينين يحول رزم الأطعمة التي كانت ترده كهدايا من الفلاحين الى دور الأطفال والمرضى. وحدث مرة ان اهدى له احد الصيادين سمكة، حاولت الطاهية في الكرملين ان تعدها لغدائه فزجرها قائلاً: "يبدو انك نسيت رجائي برفض قبول أية هدية. هنا أطفال يموتون من الجوع، وانت تنوين ان تطعميني السمك.. تفضلي رجاء بإرسالها فورا الى بيت الأطفال".

تنقل (كلارا زايتكن) في احد احاديثها مع لينين شكواه من قلة عدد رياض الأطفال والمياتم والمدارس الابتدائية، وقوله: "ان ملايين الأطفال يكبرون دون ان يحصلوا على تربية وتعليم، ويظلون جهلاء وغير متعلمين مثل آبائهم واجدادهم. كم من موهبة تموت من جراء ذلك، وكم من طموح نحو نور اخمد! انها لجريمة فظيعة من ناحية سعادة الجيل الناشئ، جريمة تعادل نهب ثروات الدولة السوفيتية.. وفي ذلك يكمن خطر مريع".

كذلك كان موقف لينين من (الشبيبة). فلقد كانت معاملته للشباب رفاقية محضة، متحررة من الحذلقة واللهجة الاستاذية او التعالي المتأتي من الادعاء بان كبر السن بحد ذاته هو فضيلة وتفوق. كان يتصرف معهم تصرف الند بين انداد مرتبط بهم بكل نياط قلبه، ولم يكن الشبيبة ليحسوا – وهو بينهم – ان فيه أثر ما لرجل السلطة.

كان لينين أيضا يعلق املا عظيما على الشبيبة. كتب في احدى رسائله من الخارج

حوالي عام 1905 ردا على شكوى الحزب من "قلة الناس" قائلاً: "هناك حاجة الى قوى فتية، والامر لا يحتاج إلا الى تجنيد الشبيبة بشكل أوسع وأجرأ، أجرأ وأوسع، ومرة أخرى أوسع، ومرة أخرى اجرأ، ودون خوف منها.. خلوا عنكم العادات القديمة، عادة الركود والخضوع للرتبة الخ.. شكلوا من الشبيبة مئات الحلقات من الطليعيين وشجعوهم على العمل بكل طاقة".

***

كان (لينين) ابعد ما يكون عن التزمت وضيق الأفق، وهي صفات ليس من المستبعد ان يبتلى بها القادة الثوريون.

تروي (كروبسكايا) كيف ان احد الرفاق يتساءل بلهجة اللوم عن مقابلة أليبتش للقس غابون – جاسوس القيصر – ومدير مذبحة العمال في (الاحد الدامي). وبالفعل فقد قابله بليخانوف ببرود شديد. اما لينين، الذي ينظر الى الثورة ككائن حي، فلم يستطع ان يتجاهل غابون الذي كان على ارتباط وثيق بالجماهير، ورافق التحولات التي طرأت على مزاج العمال في بطرسبورغ، وتمردها على القيصر وعملائه. كما تعرف الى سر نفوذ غابون على الفلاحين بحكم المامه باحتياجاتهم، ولغته المبسطة معهم، وقربها من مداركهم. كما نصحه بالتعلم من تجربته وانتهاج طريق آخر.

وكان لينين اكثر من مرة قد استدعى الكولونيل الأمريكي (روبنز) رئيس بعثة الصليب الأحمر الى روسيا، واجرى معه احاديث عديدة. كان (روبنز) من اسرة بروليتارية ريفية، واصبح مليونيراً. فكان لينين يلاحظ "ان هؤلاء البرجوازيين العصاميين، يعرفون الحياة على الأقل".

ويستنتج احد رفاق لينين الذين حضروا هذه المقابلات، ان جانبا من طبيعة (روبنز) قد اعجب لينين. لذلك كان يحب التحدث معه: لانه كان يتمتع بخفة الروح، كما كان يمتلك معرفة واسعة عن الحياة. وقسطا من سعة الأفق التي تميز الأشخاص الموهوبين حتى وان كدسوا ثروة طائلة. ويقول آخرون ان ما جعل لينين والبلاشفة ينجذبون إليه هو شدة تدينه، وربما انشغاله في التوفيق بين (البيان الشيوعي) و(الكتاب المقدس)! ويقولون أيضا انه – وهو المليونير – كان ولوعا بمحاورة رئيس اول حكومة للعمال.

لم يكن لينين طامحا في تغيير عقائد روبنز وموقفه، بل كان يريد فقط ان يكسب حياده، أو ولاءه، أو ان امكن صداقته. كما كان واثقا من ان هذا الذي جاء الى روسيا كعدو، يمكن ان يعود منها كصديق. وهكذا كان موقف لينين في مقابلاته لـ (وليم بوليت) و (أج. جي. ويلز) وغيرهما.

لقد استعان (لينين) بـ(روبنز) وخوّله ان يتكلم باسمه حول إقامة العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة. وقد طلب لينين تيسير مهمة سفره. واستدعى روبنز للمحاكمة امام لجنة مجلس الشيوخ، فاتخذ موقفا صلبا وطلب مقابلة رئيس الجمهورية ليبحث معه إمكانية إقامة علاقات اقتصادية واسعة مع روسيا. ثم عاد الى موسكو في الثلاثينات، ليؤكد ان تحسين العلاقات الامريكية – السوفيتية قد اصبح هدفه في الحياة. وبالفعل، فقد استثمر مكانته ونفوذه لحمل الولايات المتحدة على الاعتراف بالاتحاد السوفيتي.

***

كان لينين متفتحا دون عصبية او تزمت. وهو الذي دعا مرة بعد أخرى الى الاقتباس

من منجزات الرأسمالية في العلم والتكنيك والمعرفة، والاخذ بكل ما هو نافع من الحضارة الاوربية. وبعد ان درس طرائق (رامزي) و(تايلر) حول تيسير ظروف العمل، ورفع انتاجيته، دعا الى اقتباسها وتطبيقها بالطرائق الاشتراكية. كما كان يطالب بارسال البعثات والتخصص الى المانيا وبريطانيا وغيرها من الدول المتحضرة. كما ابدى ملاحظاته حول إعادة بناء موسكو مقترحا الاقتباس من جمال الحدائق والشوارع في لندن وباريس وفينا. وخلافا لما ارتآه البعض من البلاشفة بعد الثورة، دعا لينين الى استثمار مواهب المتخصصين من البورجوازيين ورجال إدارة الدولة القديمة، لقاء اغداق المال عليهم. كما استبقى على الكثيرين من الجنرالات والرجال العسكريين ذوي الكفاءة والخبرة في الجيش الأحمر، رغم انه دعا الى وضعهم تحت الارشاد والرقابة. وبالفعل انحاز فريق كبير منهم الى الاشتراكية، وخدموا الجيش الأحمر بإخلاص.

واهتم لينين باقتباس كل ما هو مفيد من أساليب الثقافة الاوربية، وحث وزير الثقافة (لوناشارسكي) على الاهتمام بمكتبات المطالعة، قائلاً: "في أمريكا يقومون بأشياء كثيرة وجيدة في هذا المضمار، والكتاب قوة جبارة".

لم يكن موقفه من التراث الروسي، موقف القومي المتعصب او الجاحد. لقد رفض كل ما هو ظالم ورجعي ولا انساني. وثمن كل ما هو تقدمي وثوري وانساني، وذلك في مقالته الشهيرة حول (الاعتزاز الروسي). ومن هنا كان موقفه إزاء التيار الذي تفاقم بعد الثورة برفض التراث، والدعوة الى (ثقافة بروليتارية خالصة)! لقد خطَأ هذا التيار ودعا الى معالجة التراث بروح انتقادية متفتحة، والانطلاق مما هو إيجابي وتقدمي في الثقافة الإنسانية لمواصلة بناء صرح الثقافة الجديدة. وهو القائل: "يجب الحفاظ على ما هو جميل واتخاذه نموذجاً والانطلاق منه ولو انه (قديم). لماذا علينا ان ندير ظهورنا لما هو رائع حقاً، ونرفضه كنقطة انطلاق للتطور اللاحق لا لسبب سوى انه (قديم). لماذا يجب ان نركع امام الجديد، كما نركع امام إله ونخضع له لمجرد انه (جديد).. نحن ثوريون جيدون، ولكننا نشعر لسبب ما، بأننا ملزمون على البرهنة على اننا أيضا نقف على (ذروة) الثقافة العصرية. وانا املك الجرأة على ان اسمي نفسي (همجياً) لاني غير قادر على اعتبار اعمال التعبيرية والمستقبلية والتكعيبية وما اليها من المسميات اعلى مظهر للعبقرية الفنية. انا لا افهمها ولا استمد منها أية مسرة".

كان لينين شديد الاعجاب بالأدباء والفنانين الكلاسيكيين وبكل عمل فني رائع. وكان يكّن التقدير العظيم لاعمال تولستوي، ولا سيما روايته الشهيرة "الحرب والسلم". التي قرأها مرة بعد أخرى، وكان مفتوناً بوجه خاص بالوصف الاخاذ لرحلة الصيد. كما قرأ مرات ومرات – كما تروي كروبسكايا- قصة "انا كارنينا". وقد اعرب لغوركي عن اعجابه بتولستوي قائلاً: "أية صخرة شامخة! أي عملاق من عمالقة الإنسانية.. ذلكم يا صديقي فنان، بمن تستطيع ان تقارنه في اوربا؟ لا احد؟؟!".

كان يكن التقدير والاحترام لـ(جرنشفسكي) ويقرأ روايته "ما الذي ينبغي عمله؟" والأرجح انه استعار هذه التسمية لكتابه الموسوم بنفس العنوان. كما كان يقرأ

لـ"ليرمنتوف، ونكراسوف، وتورغينيف، واوسبنسكي". من الادباء الروس، ومثلهم "زولا- وهوغو- ونادسون". وكان يؤثر من هؤلاء (بوشكين وبيساريف). كما كان ولوعاً بـ(غوركي)، وقد اقام معه صداقة راسخة. وأبدى اعجابه بقصيدة (مايكوفسكي) التي هجا فيها البيروقراطية السوفيتية. وكان لينين شغوفا بالموسيقى، وطالما استمع او طلب عزف مقطوعة بتهوفن الشهيرة (app assionata). وقد قال مرة لغوركي:"لا استطيع الاستماع الى الموسيقى بكثرة. انها تثيرني فأود ان أقول أشياء سخيفة، وان اربت على رؤوس أولئك الذين يستطيعون ان يخلقوا كل هذا الجمال".

وكان لينين شديد الاهتمام بالعلم والاختراعات، وبالحرص على رعاية ومساعدة العلماء والرحالة والمخترعين. ففي عام 1920 عندما عرض المهندس (تساندر) مشروعه لبناء سفينة الفضاء اهتمم لينين بذلك، ووعد بتقديم كل ما يمكن من المساعدة. كما اهتم بدراسات (تشيكولوفسكي) عالم الفضاء. وشكا لغوركي قائلاً: "لو كان بمقدورنا فقط ان نهيئ لهؤلاء التكنيكيين ظروف عمل مثالية لأصبحت روسيا، في غضون خمسة وعشرين عاما، اعظم بلد متقدم في العالم".

***

كان لينين يتحلى بطائفة من المزايا النادرة.. كان شجاعا، صلب الإرادة، قوي العزيمة، شديد الصبر، وعظيم التفاؤل.

يورد (ستالين) نماذج من مواقفه الجريئة الحاسمة، في أوضاع عصيبة بالغة الرهبة، فيصفه بأنه "نسر من نسور الجبال". كما يشهد التاريخ على دوره الشجاع في الإصرار على تفجر انتفاضة أكتوبر المسلحة في توقيت زمني محكم. كذلك كان موقفه المتماسك الجريء في سحق هجوم (كورتليوف) وجيوش المتدخلين الأجانب. وخلافا لمواقف المناشفة والاشتراكيين الثوريين، اطلق شعاره الجريء فور وصوله الى روسيا في نيسان 1917: "كل السلطة للسوفيت. عاشت الثورة الاشتراكية". تصف (كولنتاري) احدى رفيقاته في قيادة الحزب ظهوره بينهم في تلك الأيام "مثل ريح نقية تهب على مكان خانق فتنعش جوه". وعندما ظهر في مؤتمر السوفيتات الأول قبيل ثورة أكتوبر واستمع الى نواح المناشفة والاشتراكيين الثوريين بأنه "لا يوجد حزب ثوري في روسيا مستعد لأخذ السلطة". انطلق صوت لينين الثابت ليقول: "يوجد حزب كهذا"! وكانت تلك كلمة كبيرة في تلك الأيام العصيبة، كلمة مفعمة بالجرأة والثقة، لأن البلاشفة لم يكونوا وقتذاك غير أقلية ضئيلة. ورغم الروع والقنوط الذي تملك الكثيرين بعد اندحار ثورة 1905، بمن فيهم فريق من البلاشفة، كان لينين ثابت الجنان، عظيم الثقة بالمستقبل. كان - كما تصفه كروبسكايا- "حتى خلال لحظات الاندحار يحلم بالانتصارات العظيمة للبروليتارية، كما كان يؤكد في مثل هذه الحالات على عدم فقدان الرشاد والانزلاق نحو المغامرات".

لم يتزعزع ايمانه ولا لانت عزيمته يوم كاد ان يكافح وحيداً بعد المؤتمر الثاني عام 1903، عندما انشق المناشفة، وانفض عنه اقرب رفاقه واكثرهم نفوذا وقدرة، وعندما وقف هؤلاء وغيرهم من الأحزاب والفرق الاشتراكية، في الحركة الاشتراكية الاوربية ليتهموه بـ "الطموح الشديد" وما الى ذلك من

الانتقادات والتهم الباطلة. ولم تلن عزيمته أيضا في سنوات الاندحارات والانشقاقات التي عصفت بالحزب بعد الردة الستولينية، وظل يصارع بثقة وعزم نادرين.

***

كان لينين – الشجاع القوي الإرادة – هو لينين الانسان الذي يتألم بعمق ويحزن بصمت. عانى الكثير من الألم بعد المؤتمر الثاني، وفي سنوات الانشقاق وغيرها من الفترات العصيبة، وقد مرت به - حسبما تذكر زوجته (كروبسكايا)-، أيام وليالي صعبة، كما تعرض للارهاق والألم. وقضى ليالي كثيرة بدون نوم. وتروي أيضا ما عانته ولينين من ألم نفسي عميق عندما اتهمت الحكومة المؤقتة لينين بـ(الجاسوسية)! وكيف كان حتى فريق من بسطاء الناس يزمجرون في الشوارع ضد لينين، ويتوعدونه، ويصدقون الشائعات المسمومة التي تقول "ان لينين جاسوس الماني"! و"انه يرشي العمال بذهب الالمان"!! تقول (كروبسكايا): "كانت تلك هي اللحظة التي بدا فيها لينين متردداً، وقرر ان يسلم نفسه للسلطات ويقف امام المحكمة. ثم تصف المشهد المؤثر - عندما كلفها بالذهاب الى (كامينيف) لإبلاغه هذا القرار، وكيف استوقفها ليعانقها قائلاً "دعينا نتوادع، فقد لا يرى احدنا الآخر بعد الآن"، وتذكر أخيرا كيف ان ستالين وآخرين قد زاروه في المساء واقنعوه بعدم تسليم نفسه للسلطات. وبذلك انقذوا حياته من موت محقق.

تعرف لينين على الاحزان منذ طفولته، يوم اعدمت السلطات القيصرية اخاه (الكسندر) لاشتراكه في محاولة لاغتيال القيصر. وعانى لينين كثيرا من صروف الدهر - سجنا وتشردا وحرمانا - وهذا ما عمق انسانيته واثراها بعطافة رحيمة، وإرادة ثورية صلبة.. ينقل السيد (اميل خوري) - سفير لبنان السابق في روما - في كتابه (آثار اقدام) كيف انه التقى بـ (كيرنسكي) في باريس الذي حدثه عن طفولته مع لينين وتقييمه لشخصية لينين. يقول كيرنسكي: "لا فوضى في تفكير لينين ولا في نظامه. لقد وضع لينين يده الفولاذية على الحكم واظن ان اعنته لن تفلت من قبضته.. اما الفرق بين اشتراكيتي واشتراكيته، فمرده الى التباين بين تربيتي وتربيته.. انا لم اكن في يوم من أيام حياتي رجل انقلابات عنيفة.. اما لينين فقد عانى من ظلم الدهر والرجعية ما لم يعانه احد من امثالي، فهو قد طورد وسجن وعذب وشرد وذاق مرارة الجوع والحرمان في كل بلد نزل به بعد فراره من مظالم العهد القيصري، وتعرف في اوربا على قسوة البوليس السياسي وضيق صدر الحكومات وغلاظة اكباد المستكفين.. انا عدو للاشتراكية الروسية الحاضرة وأود زوالها ولكني أقول الحقيقة كما تبدو لي". ثم يطري طبائع لينين ووفاءه ويقول: "علي ان اعترف بأن لينين لم يكن اقل وفاء مني، بل ذهب في الوفاء الى ابعد الحدود".

***

كان لينين رفيقاً بأمه التي تحملت النكبات وعنها ورث - كما تقول كروبسكايا - الصلابة والعطف والرعاية للناس. طلب في خريف 1895 عندما تعرض للاعتقال ان لا يسمح رفاقه لامه بالتردد على الدوائر الرسمية للسعي له لان ذلك سيذكرها بمساعيها السابقة لابنها الأكبر، وسيكون ذلك شديد الوطأة عليها. وعندما بلغه نبأ وفاتها، امتقع وجهه حتى اصبح مثل صفحة من الورق. كان - كما

يقول غوركي (يكتم مشاعره)، ولم يكن له مثيل في كبت "عواصف قلبه"، هو الذي كان ابعد الناس عن الاهتمام بنفسه او التحدث عن همومه للآخرين.

يروي سائق سيارته، حادثة اطلاق الرصاص عليه واصابته بإطلاقتين في عنقه وذراعه.. ويقول: "لم يفه بأي صوت، وكان وجهه يزداد امتقاعاً.. كان يتعذب من الألم.. وقد اغمض عينيه ثم ان انينا خافتاً جداً ومكبوتاً، وكأنه يخاف ان يقلق احداً".

بقدر ما كان لينين منصرفا عن نفسه وهمومه، كان مؤاسياً ونصيرا للمحرومين والمظلومين، من الناس والشعوب. وجد نفسه مرة مع زوجته كروبسكايا، وهما يعيشان في غرفة خربة في الاحياء الفقيرة من مدينة (زوريخ) حيث كان يساكنهم أناس من الطبقات الدنيا. تقول كروبسكايا، ان حديثنا مع هؤلاء كان فيه من "الإنسانية" اكثر مما يجده المرء في الفنادق الكبرى التي يؤمها علية القوم. كان (لينين) يرى ان على المرء ألا يهتم بمأواه وشؤونه ويهمل الآخرين. عليه ان يشاطر الناس والشعوب عذاباتهم وان يبدي لهم الرعاية والاحترام. كان يتمثل بمقولات ماركس من ان اتعس مصير لأمة من الأمم هو ان تكون ظالمة لأمة أخرى.

كان يبدي الحنق الشديد على الاستغلال والظلم، وعلى ما يشاهده من تفاوت طبقي بين المرفهين والمحرومين. تقول (كروبسكايا) انها لم تعرف انسانا مثل لينين في مقته العنيف لكل مظهر من مظاهر الشقاء والعذاب. وتروي في ذكرياتها عن تجوالهما في لندن بين الفيلات الانيقة والحارات الضيقة البائسة التي يقطنها الشغيلة، وكيف ان هذه المشاهد المتناقضة استثارت لينين فهتف بحنق وهو يصر على اسنانه (امتان)! كناية عن التفاوت الطبقي بين (امة المستغلين) و(امة المحرومين). وكان لينين عدوا لدودا للحروب وما تحمله من نكبات وفواجع للشعوب. ان المسحة العاطفية في (نداء زمرفالد) الذي اشترك فيه لينين وما تضمنه من اهابات الى الأمهات والارامل واليتامى والجرحى والمرضى تكشف جانباً آخر من إنسانية لينين النزاعة الى السلم. لقد اعتبر النداء مهمة تحقيق السلم بين الأمم، مهمة (لم يحدث في تاريخ العالم ان وجدت مهمة اكثر منها نبلا والحاحاً).

وليس صدفة ان يكون مرسوم السلم من بين أولى منجزات ثورة أكتوبر الاشتراكية منذ يومها الأول. وعندما عرض على لينين مخطط شعار الدولة لاحظ ان سيفا يخترق المطرقة والمنجل، فتساءل: "ما هو الغرض من هذا السيف؟" وبعد ان اكد على أهمية مواصلة القتال ضد الحرس الأبيض والمتدخلين، حتى يتم طردهم من البلاد قال:

"ان ذلك لا يعني ان الحرب والعسكرية والعنف العسكري ستظل اموراً سائدة بيننا الى النهاية. ان سياسة الالحاق غريبة علينا. اننا لسنا في حالة هجوم، بل في حالة صد اعدائنا في الداخل والخارج. ان حربنا هي حرب دفاعية، والسيف ليس شعارا لنا. ينبغي ان نمسك به بثبات في أيدينا للدفاع عن دولتنا البروليتارية، وما دام لنا أعداء يواصلون الهجوم علينا، وما داموا يواصلون تهديدنا، لكن ذلك لا يعني ان يكون الأمر هكذا دائماً.. لسنا بحاجة الى هذا السيف.. انه ليس شعارنا".

***

كان لينين يتحلى بطبائع إنسانية رفيعة وسجايا محببة. كان ودوداً اليفاً، مثيرا للتفاؤل والثقة حيثما حل. شبهت وجوده بينهم احدى

رفيقاته القدامى: "مثل زخة من المطر المانح للحياة". كان مرحاً خفيف الحركة، بشوشاً حلو المعشر وغير متصنع. وقد وصفه احد رفاقه قائلاً: "لم التق قط بانسان قادر على ان يضحك بشكل مغر بالضحك كما كان يضحك فلاديمير إلييتش. بل كان غريباً ان يستطيع انسان واقعي صارم، رجل اعمال تاريخية عظيمة ان يضحك كما يضحك الأطفال حتى تدمع عيناه". وهذا ما تقوله كروبسكايا عنه ايضاً: "انه كان يضحك ذلك الضحك المعدي ويمزح ذلك المزاح المرح، ويحب سدرة الحياة الخضراء، بقدر ما اعطته الحياة الفرحة".

ويعبر غوركي في ذكرياته عن لينين، عن دهشته كيف ان لينين هو الذي شهد الكثير من المصائب -، كان قادرا على ان "يضحك بذلك القدر من السذاجة". ويقول: "اية روح قوية صافية يحتاجها المرء ليضحك بهذه الصورة؟!".

وينقل غوركي عن احد صيادي السمك الذين كان لينين يعاشرهم في كابري قوله: "ان الانسان الشريف وحده يستطيع ان يضحك بهذه الصورة". كما يروي غوركي اثر حديث بينهما، كيف ان لينين بعد ان استغرق بالضحك ومسح عينيه، قال: "انه لشيء حسن ان يرى المرء الجانب المسلي من اخفاقاته.. ان خفة الروح هي صفة صحية رائعة. انا حساس لهذه الصفة، رغم اني غير موهوب بها. لا ريب ان في الحياة منها، بقدر ما في هذه الحياة من احزان".

وقال في مناسبة أخرى لغوركي "ان مزاج المرء هو شيء هام!". كان لينين بارعاً في الاصغاء والتعليق بالنكتة المرحة. ويجمع الذين عايشوه او التقوا به، على انه لم يكن له مثيل في الاصغاء، وفي الحديث المباشر "من القلب الى القلب". وقد اعتاد حتى وهو على رأس الدولة، ان ينتقل للجلوس بملاصقة زائريه للتحدث معهم باهتمام وود.

كان يستعين على اعبائه بالتنزه في الخلاء، ويحب المشي في الغابات والجبال وركوب الدراجات. كما كانت له هوايات في الصيد، وجمع الازهار ولعب الشطرنج ومراقبة مناورات الطائرات، وممارسة الرياضة. ولم يكن يشرب الخمر او يدخن، كانت اكبر هواياته زيارة المكتبات والمطالعة والعمل. كان منظما في عمله، مثابرا دؤوباً، شديد التركيز، دقيقا لا يعتمد على ذاكرته -، رغم انها حية متقدة. كان لا يكل من مراجعة اكداس من الاحصائيات والكتب والمراجع، كما اعتاد ان يكتب ملاحظاته على هوامش الكتب او على أوراق منفصلة، وكان أيضا يراجع مقالاته مرة بعد أخرى.

ان الجهد الخارق لقدرة الانسان العادي قد ارهق صحة لينين. "لقد احترق مبكراً". كما تقول زوجته ورفيقته كروبسكايا: "كيف لا يحترق وقد كان فكره يعمل طوال الوقت عملا مجهداً".. تلك هي صفات وشمائل لينين.. القدوة الفريدة لكل الثوريين!

ذلكم هو لينين النموذج الرائع للإنسان!

لقد عاش لينين في قلوب الملايين من أبناء الإنسانية، وسيظل هكذا الى الابد، لأنه كان قبل كل شيء، انساناً.

*** (الثقافة الجديدة)، العدد 12 اذار – نيسان 1970.**

**** نص الكتاب بالعربية تحت العنوان التالي: بليخانوف، في تطور النظرة الوحدوية إلى التاريخ (بيروت: دار الفارابي، 1983) – المحرر.**

في الذكرى الـ 150 لمولد لينين
اللينينية ثراء فكري للماركسية في عصر الإمبريالية

حسن بدوي
عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري

تحل في 22 نيسان/ ابريل من هذا العام الذكرى الـ 150 لمولد فلاديمير أليتش لينين، والتي يجدر الاحتفاء بها ليس فقط على مستوى الأحزاب الشيوعية ولكن أيضاً على مستوى الحركة التقدمية في العالم وقوى التحرر الوطني، والتي كان فكر (لينين) وكتاباته التاريخية الأكثر تأثيراً وإلهاماً لها طوال القرن العشرين.

ولأن (لينين) كان ماركسياً بحق، مادياً ديالكتيكياً بحق، فإنه لم يكن فقط مجرد زعيم لحزب ثوري، وقائد لأول ثورة منتصرة للطبقة العاملة، ومؤسس لأول دولة اشتراكية في التاريخ البشري ألهبت حماس قوى الثورة والتحرر الوطني في العالم عبر ما يقرب من مائة عام أو يزيد، ولكنه أيضاً أثرى الماركسية في كافة الاتجاهات، فيلسوفاً مادياً جدلياً، خاض معارك فكرية ضد ممثلي الفلسفة التجريبية والمادية الميكانيكية في عصره، ومتابعاً لأدق تفاصيل التغيرات والتحولات داخل النظام الرأسمالي العالمي والطبقة العاملة في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، والتي لم يكن ماركس وإنجلز قد عاصراها، ومستخلصاً من تلك التفاصيل السمات الجوهرية للرأسمالية في عصر تحولها إلى الإمبريالية وانعكاسها على احتدام النضال الطبقي، ومناضلاً ضد ما نتج عن هذا التحول من أفكار شوفينية وتحريفية وتصفوية وانتهازية يمينية وعبث يساري طفولي داخل حركة الطبقة العاملة.

لم يدرس (لينين) التفاصيل فقط بالنسبة للتطور الاقتصادي الاجتماعي السياسي في روسيا، ولكن أيضاً في مختلف البلدان الرأسمالية، بل ولحركة شعوب الشرق المناهضة للاستعمار، ولحركة الطبقة العاملة في روسيا والعالم، وسط أعاصير الصراع الطبقي في روسيا والصراع الفكري ضد القادة الانتهازيين في صفوف الحركة الاشتراكية الروسية والعالمية، وترك للشيوعيين وقوى التقدم من الأجيال التالية ثروة غزيرة من الأفكار في مجالات بناء الحزب الثوري ومعالجات مادية ديالكتيكية لمشكلات بناء الاشتراكية، والعلاقة بين الطبقة العاملة وبقية الطبقات، خاصة الفلاحين الفقراء، في مرحلتي الثورة وبناء الاشتراكية، والتعامل البروليتاري في مشكلة القوميات وحق تقرير المصير، وغيرها من القضايا.

لقد أثرى لينين النظرية الماركسية بثروة فكرية وتجربة عملية، لعل أهمها مفهوم

خصوصية التغير الثوري للمجتمعات البشرية وفق خصائص وسمات المجتمع المحدد في الزمن المحدد، وفي إطار من القوانين العامة للمادية الجدلية والمادية التاريخية، وبالتالي إمكانية قيام الثورة الاشتراكية في بلد واحد، حتى وإن كان أقل تطوراً من بلدان رأسمالية أخرى، تلك الإمكانية التي فرضت ضرورتها وإمكان تحققها ظروف تحول الرأسمالية إلى الإمبريالية، والتي لم يكن لماركس وإنجلز التوصل إليها دون أن يعيشا هذا التحول، فالماركسية ليست ديناً ولا عقيدة جامدة تطرح حلولاً شاملة لكل المشكلات في كل مكان وزمان دفعة واحدة وإلى الأبد، بل هي نتاج لعملية التطور التاريخي المادي والموضوعي، استكشفت القوانين العامة لهذا التطور واستشرفت مستقبله، تلك القوانين التي تتجلى في حركة الواقع بأشكال متنوعة ومتغيرة من مجتمع لآخر ومن زمن لآخر، لتزداد النظرية ثراءً مع كل حركة ثورية وكل تغير ثوري عبر الأزمنة التالية.

الفهم الخلاق للماركسية

في خضم انشغاله، بنهاية القرن التاسع عشر وعلى أبواب القرن العشرين، بوضع أسس بناء الحزب الثوري في روسيا وسط صراع طبقي محتدم، وما تطلبه ذلك من معارك ضد كافة الأفكار الانتهازية والتحريفية في حركة الطبقة العاملة، حرص (لينين) على وضع الخطوط الأساسية للفهم الصحيح للماركسية كنظرية ثورية، فكتب في "برنامجنا":[1]

"... ونحن نتخذ كافة مواقفنا استناداً إلى النظرية الماركسية، فالماركسية هي أول نظرية تحول الاشتراكية من خيال إلى علم، وهي التي أرست الأسس الراسخة لهذا العلم، وحددت معالم الطريق الذي ينبغي انتهاجه من أجل المزيد من التعميق والإثراء لهذا العلم بجميع مكوناته وعناصره".

"وهي التي علمتنا كيف نتعمق بنظرتنا إلى ما وراء أستار العادات القديمة الضاربة بجذورها، والمؤامرات السياسية، والقوانين المغلفة بالطلاسم والإبهام، والمذاهب المعقدة التي تصعب على التحليل، من أجل أن ندرك ما وراءها من صراع طبقي، ذلك الصراع المحتدم بين الطبقات المالكة بكافة أشكالها، وبين البروليتاريا، والتي تقف في مقدمة الجماهير التي لا تملك شيئاً".

"وهي التي سلطت الأضواء على المهمة الحقيقية للحزب الاشتراكي الثوري: ألا يضع الخطط لتعديل المجتمع القائم، أو أن يحيك المؤامرات، وإنما أن ينظم الصراع الطبقي للبروليتاريا وأن يقود هذا الصراع، الذي يتمثل هدفه الأسمى في استيلاء البروليتاريا على السلطة وبناء المجتمع الاشتراكي".

بهذا الفهم المادي الجدلي، تمكن (لينين) من فضح حقيقة الأفكار التحريفية للألماني إدوارد برنشتاين[2] وأحزاب الدولية الثانية الاشتراكية، والتي روجت مقولة أنه يمكن التوفيق بين المصالح الطبقية المتناقضة في ظل الرأسمالية، وأن الرأسمالية يمكنها أن تتطور من تلقاء نفسها إلى الاشتراكية، الأمر الذي دفع هؤلاء التحريفيين إلى اتخاذ مواقف شوفينية وذيلية للرأسمالية في بلدانهم، عندما نشبت حرب سنوات

1914 - 1918 بين الدول الإمبريالية لإعادة اقتسام مناطق النفوذ في العالم في ما بينها، والتي تحمل جزءا كبيرا من أعبائها شعوب المستعمرات التي سخرت مواردها لخدمة الجيوش المتحاربة، وفرضت عليها الأحكام العرفية، بل إن هؤلاء الشوفينيين المتسترين بعباءة الاشتراكية تبنوا الموقف الداعي لهذه الحرب قبل نشوبها في "بيان بال" الصادر عن الدولية الثانية عام 1912.

وبهذا الفهم للماركسية انتقد (لينين) أيضاً بعض الاشتراكيين الديمقراطيين الروس الذين اعتبروا أن الصراع الاقتصادي هو الأكثر أهمية، ودعوا لإرجاء النضال السياسي، وأكد على "أن أي نضال من أجل أي مطلب تحتمه الأوضاع القائمة، لا بد أن يرتبط أوثق الارتباط بالأهداف الأساسية"[3] وأنه من واجبنا جميعاً، ومهما كانت الظروف، ألا نفقد رؤية الاتجاه العام للنضال. وأن الطبقة العاملة إذا تخلت عن هذا المبدأ فسوف تفقد القدرة على تحديد اتجاه حركتها في الغمار المتلاطم للمعارك الطبقية، الأمر الذي سينتهي حتماً إلى تضييق أهداف نضالها والتركيز على المطالب المباشرة، ومن ثم تخضع لمتطلبات احتياجاتها اليومية، وهذا المفهوم لا يخدم إلا العدو الطبقي.

ولا شك في أننا نرى اليوم الكثير من هذه الأفكار التحريفية، لدى أحزاب اشتراكية قولاً، وخادمة للرأسمالية فعلاً، ولدى حركات مدنية ونقابية، وكل هؤلاء تعمل الرأسمالية في بلدانهم على دعمهم، بل وتمولهم دوائر رأسمالية عالمية، لاختراق صفوف الطبقة العاملة وحرف صراعها الطبقي عن المهمة الأساسية، وهي القضاء على جذور الاستغلال الرأسمالي وبناء المجتمع الاشتراكي.

الثورة في بلد واحد

وفي "برنامجنا" أيضاً يواصل لينين: "نحن لا نعتبر نظرية ماركس شيئاً اكتمل ولا يمكن المساس به، بل وعلى العكس من ذلك، فنحن نؤمن بأنها لم تقم إلا بإرساء الحجر الأساس للعلم الذي يتحتم على الاشتراكيين أن يطوروه في كافة الاتجاهات إذا أرادوا أن يواكبوا حقاً مجرى الحياة.. إن هذه النظرية لا تقدم إلا مبادئ مرشدة عامة، تطبق في انجلترا على نحو يختلف عن تطبيقها في ألمانيا، وتطبق في ألمانيا على نحو يختلف عن تطبيقها في روسيا".

وبهذا الفهم اللينيني للماركسية، وبدراسة تفاصيل التطورات التي طرأت على الرأسمالية في عصره، تعمق لينين في دراسة وفهم التطورات التي طرأت على الرأسمالية في عصره، وتوصل إلى أن الإمبريالية هي أعلى وآخر مراحل الرأسمالية، عندما يصبح نظامها، بكافة عناصره، ناضجاً للثورة، وأنها ليست "الرأسمالية المنظمة" التي يبشر بها التحريفيون، والتي ستتحول في يوم ما إلى نقيضها كما يزعم الإصلاحيون.

وبهذا الفهم أيضاً توصل، بل وأثبت بالتجربة العملية، إلى أن الثورة الاشتراكية يمكن إنجازها في بلد واحد في عصر الإمبريالية، على عكس ما كان ينادي به الانتهازيون استناداً إلى ما توصل إليه

ماركس وإنجلز في ظرف تاريخي سابق على الإمبريالية، وقبل تطورات مطلع القرن العشرين، من أن الثورة لا يمكن أن تنجح إلا إذا نشبت في عدد من البلدان الأوروبية الأكثر تقدماً، وفي تزامن واحد.

بل وأثبتت التطورات اللاحقة لثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا، صحة أفكار لينين حول إمكانية نجاح الثورة في بلد متخلف وإقطاعي ومدمر اقتصادياً ومنهوب من دول استعمارية عديدة، وإمكانية استمرارها في طريق بناء الاشتراكية (الصين وكوبا وفيتنام) بعكس نظريات دعاة الجمود المذهبي الذين يصرون على أنه من أجل نضوج الظروف لقيام الثورة وبناء الاشتراكية، لا بد من وصول البلد إلى أعلى المستويات الرأسمالية في كافة جوانبه.

والحقيقة التي تتأكد كل يوم، أنه لم يحدث أن تحولت الإمبريالية في أي مكان إلى اشتراكية من تلقاء نفسها، بل وعلى العكس، ما زالت الإمبريالية أعدى أعداء الاشتراكية وأكثر شراسة في مقاومتها.

لقد أثرى (لينين) الماركسية بفكر وكتابات توصل فيها للنتائج الأساسية لأكثر مشكلات التطور الاجتماعي حيوية في عصره، والتي صارت نقطة انطلاق لحركة الطبقة العاملة الروسية، والحركة العمالية الثورية والتقدمية في العالم خلال حياته، وبعد وفاته، بل وما زالت دروسها ملهمة حتى اليوم، ليس لاستنساخ التجربة التي قادها وأسس لها (لينين)، ولكن للسير بنفس الفهم المادي الجدلي الذي سار عليه، وفقاً لواقع مجتمعاتنا وفي عصرنا الحالي.

الإمبريالية مرحلة خاصة للرأسمالية[4]

كان اكتشاف لينين للقوانين التي تحكم تطور الرأسمالية إلى إمبريالية وخصائصها في تلك المرحلة النوعية، وتأثير هذا التحول على المستوى العالمي، وتصاعد النضال الثوري للطبقة العاملة في الدول الرأسمالية، ولحركات التحرر الوطني في المستعمرات، من أبرز إضافاته النظرية للفكر الماركسي، حيث وضعت الخطوط العامة للحلول السياسية السليمة، وأضاءت الطريق إلى المناهج الصحيحة للنضال، والتي أثبتت صحتها في انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا (أكتوبر 1917).

لقد أكد (لينين) في كتابه "الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" أن الامبريالية هي عشية الثورة الاشتراكية، وأن الاشتراكية - الشوفينية (الاشتراكية قولا والشوفينية فعلا) هي خيانة تامة للاشتراكية وانتقال تام إلى جانب البرجوازية، وأن انقسام حركة العمال هذا منوط بظروف الامبريالية الموضوعية، وكشف "كيف يكذب الرأسماليون دون خجل، وكذلك الاشتراكيون -الشوفينيون الذين انتقلوا إلى جانبهم، والذين لا يناضل كاوتسكي [5] ضدهم بالاستقامة اللازمة".

لقد برهن هذا الكتاب على أن حرب سنوات 1914 - 1918 كانت من جانب الطرفين حربا امبريالية، أي حرب غزو، حرب من أجل تقاسم العالم، من أجل اقتسام واعادة اقتسام ونهب واغتصاب المستعمرات و«مناطق نفوذ» الرأسمال المالي، إذ أن الدليل على طابع الحرب الاجتماعي الحقيقي، أو بالأصح: على طابعها الطبقي الحقيقي، لا يكمن طبعا في

تاريخ الحرب الديبلوماسي، بل في تحليل الحالة الموضوعية للطبقات المسيطرة في جميع الدول المتحاربة.

وبربط مادي جدلي للواقع العالمي المحدد في الزمن المحدد يقول (لينين): "ولتصوير هذه الحالة الموضوعية لا ينبغي أخذ أمثلة أو أدلة منعزلة (فرغم كون ظواهر الحياة الاجتماعية في منتهى التعقيد يمكن على الدوام إيجاد أي قدر من الأمثلة أو الأدلة المنعزلة لتعليل أي فكرة)، بل ينبغي حتما أخذ مجمل الأدلة عن أسس الحياة الاقتصادية في جميع الدول المتحاربة وفي العالم كله. وهذه الأدلة الاجتماعية التي لا تدحض، هي بالضبط، ما ذكرته في لوحة تقاسم العالم في سنتي 1876 و1914 وفي لوحة توزيع السكك الحديدية في العالم أجمع في سنتي 1890 و1913. فالسكك الحديدية هي حاصل جميع الفروع الرئيسية في الصناعة الرأسمالية، صناعة الفحم الحجري والتعدين؛ هي حاصل وأكثر مقاييس تطور التجارة العالمية والحضارة البرجوازية الديموقراطية جلاء. وقد بينت فصول الكتاب السابقة كيف تتصل السكك الحديدية بالإنتاج الكبير، بالاحتكارات وبالسنديكات وبالتروستات وبالبنوك وبالطغمة المالية. إن توزيع خطوط السكك الحديدية وتفاوته وتفاوت تطورها هو حاصل الرأسمالية الاحتكارية الحديثة على النطاق العالمي. وهذا الحاصل يظهر في الحروب الإمبريالية، هو أمر محتوم تماما على هذا الأساس الاقتصادي، طالما بقيت وسائل الإنتاج ملكا خاصاً"[6].

ومن هذه الرؤية الفلسفية الاقتصادية يكشف (لينين) الشعارات الخادعة للرأسمالية، التي دخلت مرحلة خاصة، لها سمات مختلفة، صارت فيها طفيلية وأكثر شراسة واستغلالاً وعدوانية، ومعوقة لحركة الارتقاء التاريخي للبشرية، مرحلة مختلفة عن مرحلتها الأولى عندما كانت طبقة ثورية تحتاج لدعم الطبقة العاملة والفلاحين في صراعها مع الإقطاع، فيكتب (لينين): "إن الملكية الخاصة القائمة على عمل صغار أصحاب الأعمال، والمزاحمة الحرة، والديموقراطية – إن جميع هذه الشعارات التي يخدع بها الرأسماليون وصحافتهم العمال والفلاحين قد اندرجت بعيدا في طيات الماضي. لقد آلت الرأسمالية إلى نظام عالمي لاضطهاد الأكثرية الكبرى من سكان الأرض استعماريا وخنقها ماليا من قبل حفنة من البلدان «المتقدمة». ويجري اقتسام هذه "الغنيمة" بين ضاريين أو ثلاثة ضوار أقوياء في النطاق العالمي، مسلحين من الرأس حتى أخمص القدمين (أمريكا وانجلترا واليابان) يجرون الأرض كلها إلى حربـهم من أجل اقتسام غنيمتـهم"[7].

ثم يضع (لينين) يده على النتيجة الحتمية لهذه المرحلة مهما طال زمنها ومهما كانت تقلباتها قاسية "إن عشرات الملايين من الجثث والمشوهين الذين تركتهم الحرب التي أضرمت نيرانها لتحديد ما إذا كانت الزمرة الإنجليزية أو الألمانية من قطاع الطرق الماليين ينبغي أن تنال حصة الأسد من الغنيمة، تفتح بسرعة لم تعهد من قبل، عيون الملايين وعشرات الملايين من الناس الذين ظلمتهم البرجوازية وسحقتهم وخدعتهم وضللتهم. وعلى صعيد الخراب العالمي التي لا يمكنها أن تنتهي إلى غير الثورة البروليتارية وظفرها، مهما كانت

طويلة وقاسية تقلبات الأحوال التي لا بد لهذه الأزمة أن تجتازها" [8].

ولأن (لينين) كان مادياً جدلياً بحق، فقد ارتبطت عنده الرؤية النظرية بالواقع الملموس وبالتعرية للأكاذيب الرأسمالية وللتحريفية والانتهازية في صفوف الاشتراكيين الديمقراطيين ليس فقط في روسيا، ولكن في أوروبا بأسرها. تلك التحريفية والانتهازية التي ما زالت صورها تتشكل حتى في زمننا الحالي، بنفس السمات الجوهرية التي شخصها (لينين) بدقة في بدايات القرن العشرين فيكتب:

"إن بيان بال الصادر عن الأممية الثانية والذي أعطى، في سنة 1912، تقديرا لتلك الحرب التي اندلعت في سنة 1914، قد بقي أثرا للذكرى، يعزي بصورة تامة إفلاس أبطال الأممية الثانية المشين وارتدادهم. إن أبطال الأممية الثانية يتجنبون بحذر مقاطع البيان التي تتحدث بصورة دقيقة، واضحة، وصريحة بالضبط عن صلة الحرب المقبلة بالثورة البروليتارية، يتجنبونها بنفس حذر اللص في تجنب المكان الذي ارتكب فيه السرقة . في هذا الكتاب أوجه انتباهاً خاصاً لانتقاد الكاوتسكية، وهي تيار فكري عالمي، يمثله في جميع بلدان العالم، كبار النظريين، زعماء الأممية الثانية، في النمسا أوتو باور وشركاه، وفي إنجلترا رمسي ماكدونالد وغيره، وفي فرنسا البير توما.. وهلم جرا، وجمهور من الاشتراكيين والإصلاحيين والمسالمين والديموقراطيين البرجوازيين والكهنة. وهذا التيار الفكري هو، من ناحية، نتاج فساد وتقيّح الأممية الثانية، وهو، من الناحية الأخرى، نتاج محتوم لإيديولوجية صغار البرجوازيين الذين يبقيهم وضع حياتهم بأكمله في أسر الأوهام البرجوازية والديموقراطية. إن أمثال هذه النظرات عند كاوتسكي ومن على شاكلته هي ارتداد تام بالضبط عن الأسس الماركسية الثورية. ولذلك ليس من باب الصدفة أن اتحد الكاوتسكيون الآن مع الانتهازيين المتطرفين في العالم أجمع عمليا وسياسيا (عن طريق الأممية الثانية أو الصفراء) ومع الحكومات البرجوازية (عن طريق الحكومات البرجوازية الائتلافية التي يساهم فيها الاشتراكيون .(إن الحركة البروليتارية الثورية بوجه عام والشيوعية بوجه خاص، هذه الحركة المتنامية في جميع أنحاء العالم، لا غنى لها عن تحليل وفضح الأخطاء النظرية التي تقترفها الكاوتسكية. وهذا لا ندحة عنه لاسيما وأن النزعة المسالمة و"الديموقراطية بوجه عام، اللتين لا تدعيان بالماركسية إطلاقا، ولكنهما، شأن كاوتسكي وشركاه سواء بسواء، تطمسان عمق تناقضات الامبريالية وحتمية الأزمة الثورية التي تنشأ عنها، هما تياران ما زالا منتشرين لأقصى حد في العالم كله. والنضال ضد هذين التيارين هو أمر إلزامي لحزب البروليتاريا الذي يتوجب عليه أن ينتزع من البرجوازية صغار أصحاب الأعمال والملايين من الشغيلة المخدوعين بها والذين تحيط بهم لهذا الحد أو ذاك ظروف حياة البرجوازية الصغيرة"[9].

ومباشرة يكشف (لينين) عن خريطة الصراع الفكري والسياسي داخل حركة الطبقة العاملة في روسيا، وأوروبا بشكل عام، بين الشيوعيين الذين أدركوا أن الرأسمالية دخلت في مرحلة الطفيلية والتعفن

في أعلى مراحلها التاريخية، أي في مرحلة الإمبريالية، وبين مختلف أنواع الانتهازيين والتحريفيين خدم الرأسمالية، فيكتب عن «طفيلية الرأسمالية وتعفنها»: ".. ما هو، إذن، الأساس الاقتصادي لهذه الظاهرة التاريخية العالمية؟ إنه يتلخص بالضبط في الطفيلية والتعفن الملازمين للرأسمالية في أعلى مراحلها التاريخية، أي في مرحلة الإمبريالية. فالرأسمالية قد أبرزت الآن حفنة (أقل من عشر سكان الأرض، وفي أبعد حالة "للتسامح" والمغالاة في التقدير، أقل من الخمس)، من الدول في منتهى الغنى والقوى تنهب العالم كله بمجرد (قص الكوبونات). إن تصدير الرأسمال يعطي دخلا يتراوح بين 8 و10 مليارات فرنك، في السنة حسب أسعار ما قبل الحرب، وحسب إحصاءات البرجوازية لما قبل الحرب. والآن أكثر جدا بطبيعة الحال. وواضح أن هذا الربح الإضافي الهائل (إذ أنه يبتز إضافة إلى الربح الذي يعتصره الرأسماليون من عمال بلاد«-هم») يمكن من رشوة زعماء العمال والفئة العليا التي تكون أرستوقراطية العمال. والرأسماليون في البلدان «المتقدمة» يرشون هذه الفئة، بآلاف الطرق، المباشرة وغير المباشرة، العلنية والمستورة. إن هذه الفئة من العمال المتبرجزين أو «ارستوقراطية العمال»، الذين هم برجوازيون صغار تماما بنمط حياتهم ومقاييس أجورهم وبكامل نظرتهم للعالم، هي سند الأممية الثانية الرئيسي، وفي أيامنا سند البرجوازية الاجتماعي (لا العسكري) الرئيسي. لأن هؤلاء عملاء حقيقيون للبرجوازية في حركة العمال، متعهدون عمال في خدمة طبقة الرأسماليين، وسائط حقيقية لنقل الإصلاحية والشوفينية. وأثناء الحرب الأهلية بين البروليتاريا والبرجوازية يقف هؤلاء حتما بعدد كبير إلى جانب البورجوازية. وإذا لم يدرك المرء الجذور الاقتصادية لهذه الظاهرة، لا يستطيع أن يقدر أهميتها السياسية والاجتماعية حق قدرها، إذا لم يخط خطوة في ميدان حل المهام العملية التي تواجه الحركة الشيوعية والثورة الاجتماعية المقبلة. إن الإمبريالية عشية الثورة الاجتماعية البروليتارية، وقد ثبت ذلك منذ سنة 1917 في النطاق العالمي"[10].

حلول المشكلات السياسية

وأعاد (لينين) في كتاباته النظر في العديد من المشكلات السياسية الجوهرية المتعلقة بالواقع الروسي، أو بقضايا أكثر شمولاً، وتوصل إلى حلول لها، تتفق مع الواقع الخاص بكل منها، وقد أثار بعضها هجوماً شديداً ضده، ليس فقط من خصومه الطبقيين، ولكن حتى داخل حزبه نفسه، خاصة السياسة الاقتصادية الجديدة "النيب" أو صلح بريست، غير أن التطورات أثبتت صحة الحلول التي وضعها، لأنها كانت جميعها تصب في اتجاه الهدف الأساسي، وهو حماية الثورة والدولة الاشتراكية الوليدة، في غمار حرب أهلية وتكتل الدول الرأسمالية كلها ضد الدولة الاشتراكية الأولى في التاريخ، وفي ظل قوى إنتاجية متخلفة، وصناعة أقل تطوراً عن نظيراتها الأوروبية، وغلبة النشاط الزراعي على الاقتصاد.

ومن بين تلك القضايا الجوهرية، العلاقات بين الطبقة العاملة الروسية وبقية الطبقات في

المجتمع، فأكد (لينين) أن من بين الشروط الأساسية لنجاح الحزب الثوري للبروليتاريا "سلامة القيادة السياسية التي يمارسها هذا الحزب، وسلامة استراتيجيته وتكتيكاته السياسية، وبشرط أن تدرك الجماهير الواسعة، من تجربتها الخاصة، أنها سليمة بالفعل"[11].

ووضع (لينين) بشكل خاص حلولاً للعلاقة بين الطبقة العاملة والفلاحين، وأيضاً المثقفين، في مجرى النضال من أجل الثورة وبناء المجتمع الاشتراكي، والعلاقة بين تحالف القوى الاجتماعية، وبين الأحزاب والتنظيمات السياسية، وضرورة الوصول إلى حلول وسط مع عدم التهاون في المبادئ، وأشكال النضال الثوري بصفة عامة، والطريق السلمي وغير السلمي إلى الثورة بصفة خاصة، والربط بين النضال العلني والنضال السري، والعلاقة بين الثورة والإصلاح، واستخدام الطبقة العاملة للمؤسسات التي يمارس المجتمع الرأسمالي حياته من خلالها، مثل البرلمان والهيئات الاقتصادية، العمل في النقابات، بحيث تتمكن الطبقة العاملة من فهم واستيعاب كل أشكال وأساليب ووسائل النضال، مقدماً ثروة زاخرة بالتكتيك الثوري، وكان لينين يصر دائماً على ضرورة المواءمة بين أشكال وأساليب النضال وبين الظرف التاريخي المحدد للواقع المحدد، مشيراً على الدوام إلى أن "الماركسية تعترف بكافة الأشكال المتنوعة للنضال، ولا تبتدعها أو تلفقها، وإنما كل ما في الأمر أنها تعمم وتنظم تلك الأشكال من النضال الثوري التي تنبثق من تلقاء نفسها في مجرى حركة الصراع الطبقي، وتجسدها تجسيداً واعياً".

الديمقراطية والبروليتاريا وحق تقرير المصير

وربط (لينين) ربطاً جدلياً وثيقاً بين الثورة البروليتارية الاشتراكية وبين قضايا الديمقراطية، وفي مقدمتها قضية القوميات وحق تقرير المصير، وهي القضايا التي لا يمكن حلها في ظل المجتمع الرأسمالي، فكتب حول هذا الشأن:

" ... سوف تكون الثورة البروليتارية عصراً، يتكون من سلسلة كاملة من المعارك حول جميع القضايا الاقتصادية والسياسية، بما في ذلك القضايا القومية، إن حل مجموع النزاعات المنبثقة عن هذه القضايا، التي لم تجد لها حلاً حتى الآن هو الذي يولد الثورة الاشتراكية، وإنه لمن السخف أن نزعم قيام أي تعارض بين النضال ضد الرأسمالية وبين إحدى قضايا الديمقراطية، وهي قضية القوميات، فالبروليتاريا لا يمكن أن تحقق النصر إلا من خلال الديمقراطية، وإلا من خلال التحقيق الكامل للديمقراطية، ولهذا السبب لا بد من تجميع وتوحيد جميع المطالب الديمقراطية، مثل تكوين الميليشيا الشعبية، وانتخاب الشعب للمسؤولين، والمساواة بين القوميات، وحق الأمم في تقرير المصير، وما إلى ذلك"[12].

وفي رسالته إلى المؤتمر العام للحزب الشيوعي الروسي، في 31 ديسمبر 1922، تحت عنوان: حول مسألة القوميات أو "الحكم الذاتي"، كتب لينين:

"ونحن، أبناء الأمة الكبيرة، مذنبون بصورة دائمة تقريباً في الواقع التاريخي،

في وقوع عدد لا يحصى من أعمال العنف، حيال قومية النوع الثاني، أضف إلى ذلك أننا نقترف دون أن نلاحظ عدداً لا يحصى من أعمال العنف والإهانات، حسبي أن أتذكر ما شهدته على الفولجا من معاملة أبناء القوميات غير الروسية من رعايا روسيا، وكيف أنهم لا يذكرون البولوني إلا بقولهم ''بولويني'' ويسخرون من التتري بقولهم ''الأمير'' ومن الأوكراني بقولهم ''أبو شوشة'' ومن الجورجي وغيرهم من أبناء الأقوام القفقاسية بقولهم ''إنسان كابكازي''. ولذلك، فالأممية من جانب الأمة الظالمة، أو المسماة بـ''العظمى'' (وإن كانت عظمتها لا تتجاوز أعمال العنف، لا تتجاوز عظمة الموظف الفظ) لا تستقيم بمجرد المساواة الشكلية بين الأمم، بل بنوع من عدم المساواة يعوض من جانب الأمة الظالمة، الأمة العظمى، عدم المساواة التي تتكون في الحياة فعلاً. ومن لا يفهم ذلك لا يفهم الموقف البروليتاري الحق في المسألة القومية، بل ويبقى في الجوهر على وجهة النظر البرجوازية الصغيرة، ولذلك ينزلق لا محالة في كل لحظة إلى وجهة النظر البرجوازية. ما هو المهم للبروليتاري؟ من المهم للبروليتاري، بل من الضروري له ضرورة مطلقة، أن يضمن الحد الأقصى من ثقة الأقوام الأخرى في النضال الطبقي البروليتاري. وماذا ينبغي لذلك؟ لا تكفي لذلك المساواة الشكلية، لذلك ينبغي بمعاملته لابن القومية الأخرى، أو بتساهله معه، أن يعوض بشكل أو بآخر عما خلفته أمة ''الدولة العظمى'' خلال الماضي التاريخي من ريبة وظنون وشعور بالإهانة''[13].

الدولة والثورة

وعن موقف الثورة من الدولة، اهتم (لينين) بإثبات أن فكرته الأساسية في هذه القضية وردت في كتابات ماركس وإنجلز، وأنها حصيلة دراستهما لخبرة كوميونة باريس عام 1972، أول ثورة بروليتارية في التاريخ، وليست نتيجة تفكير نظري مجرد، فهما لم يقوما بالتنظير حول هذه القضية عند إصدار ''البيان الشيوعي'' عام 1848، ولا عند تقييم ثورات وانقلابات 1851 و1852 في فرنسا، ففي تلك الثورات وما سبقها كان جهاز الدولة ينتقل من طبقة مستغلة إلى أخرى مستغلة دون حاجة لتحطيمه، أما في حالة كوميونة باريس فقد انتقلت السلطة إلى البروليتاريا، وكان لا بد - وفقاً لماركس - من إلغاء الجيش النظامي وإحلال الشعب المسلح بدلاً منه، وإلغاء جهاز الدولة البيروقراطي ليقوم مكانه ما يلزم من مراقبين ومنظمين منتخبين، وقابلين للعزل، ولا تتجاوز أجورهم أجور العمال المهرة. وكان انتقادهما لكوميونة باريس أنها لم تقم بهذه المهمة بالعزم الكافي، كما أنها لم تسع لتوسيع مجال الثورة لتشمل فرنسا كلها.

غير أن (لينين) أوضح أنه في مرحلة بناء الاشتراكية لا بد من وجود الدولة لكبت مقاومة الرأسماليين، ولتنظيم تطبيق مبدأ ''من كل حسب طاقته ولكل حسب عمله''، غير أن هذه الدولة لا تكتسب الطبيعة البيروقراطية لأنها قائمة على الانتخاب، وحق العزل، ولا تمنح أعضاءها الأجور الضخمة المفسدة، والتي تربط الدولة

البرجوازية بالطبقة المستغلة أوتوماتيكياً.

ويرفض (لينين) الطرح الطوبوي "الخيالي" والفوضوي في نفس الوقت، والداعي إلى إلغاء الوظائف دفعة واحدة جميعها وبصورة تامة، ويقول: "نحن لسنا طوبويين، نحن لا نحلم بالاستغناء دفعة واحدة عن كل إدارة، عن كل خضوع، فهذه الأحلام الفوضوية الناشئة عن عدم فهم مهام ديكتاتورية البروليتاريا غريبة تماماً عن الماركسية، ولا تفعل في الواقع غير تأجيل الثورة الاشتراكية إلى أن يصبح الناس غير ما هم عليه.. لا.. نحن نريد الثورة الاشتراكية مع الناس على ما هم عليه اليوم، مع هؤلاء الناس الذين لا يستطيعون الاستغناء عن الخضوع، عن المراقبة، عن المراقبين والمحاسبين"[14].

وأوضح (لينين) أن الدولة كدولة لا يتم تحطيمها بل إنها تضمحل حين تتوافر الشروط الموضوعية لذلك، والتي حددها بقوله: "مع القضاء على مقاومة الرأسماليين، وزوال التضاد الحالي بين العمل الذهني والبدني، وخاصة مع التطور التكنولوجي الكبير الذي يقرب بينهما، تبدأ هذه الدولة ـ أي الدولة الاشتراكية ـ في الاضمحلال وتتحول إلى جهاز إداري بسيط يقوم بتنظيم العمل الاجتماعي، بما في ذلك الجوانب الفنية الضرورية لإدارة المجتمع الاشتراكي المتقدم تكنولوجياً وعلمياً"[15].

والآن.. وفي العقد الثالث من الألفية الثالثة، وأمام الجيوش عالية التسليح التي تملكها الدولة الرأسمالية، وفي بلداننا العربية والبلدان التابعة التي لا تتوقف الدول الإمبريالية عن التخطيط الدائم لاستمرار هيمنتها عليها، وضرب وإيقاف أية محاولات للتنمية فيها وتفكيك جيوشها وتقسيمها وإعادة تقسيمها وتغذية وخلق منظمات الإرهاب فيها، هل يمكن القول بصلاحية مقولة ماركس وإنجلز ولينين التي كانت صالحة في حقبة تاريخية سابقة بشأن "استبدال الجيش بميليشيات الشعب المسلح"؟ أم أن الجيوش بحاجة إلى آلاف الضباط الصغار القادرين على قيادة الميكنة العالية للجيوش الحالية، كما أن تحقيق مهام الاستقلال الوطني والتخلص من التبعية والتوجه إلى بناء الدولة الاشتراكية في عصر العولمة الرأسمالية تحتاج إلى جيوش نظامية؟ الأمر الذي يتطلب تعديلاً في الرؤية النظرية للطبقة العاملة بهذا الشأن، شريطة أن تكون مهمة الجيش الرئيسية الدفاع عن استقلال الوطن، وخدمة الشعب العامل.

أما بالنسبة للبيروقراطية فما زال من المهم، بل والضروري، تعميم مبدأ الانتخاب في تعيينها (موظفين وقضاة وأساتذة جامعيين ونظار مدارس وإدارات محلية وغيرهم) مع حق العزل، وعدم تجاوز أجورهم أجور العمال المهرة، وهنا تأتي أهمية تحديد الحد الأقصى للأجور لوقف التكالب على تلك الوظائف التي تربط أصحابها بالطبقة الرأسمالية المسيطرة، كما يجب أيضاً التفرقة بين من وصفهم (لينين) بـ"التروس"، أي صغار الموظفين الذين يقومون بأعمال الإشراف والرقابة الفنية والمحاسبة بالكامل، وبين الرؤساء الذين يفرضون السياسات الحاكمة في المجتمع الرأسمالي.

الخلاصة.. والمهمة العاجلة الآن

لقد مضى نحو قرن من الزمان على تلك الفترة التي شهدت قيادة هذا القائد الفذ لأول ثورة اشتراكية، وعلى كتاباته وأفكاره، وما زالت رؤاه حول السمات العامة للرأسمالية في مرحلة الإمبريالية، وخصائصها، قائمة ومستمرة.

ولعل من بين أهم واجبات الشيوعيين الآن، التعمق في فهم التطورات التي طرأت على الرأسمالية كنتاج لثورة الاتصالات والتكنولوجيا، وكنتاج للعولمة الرأسمالية التي تغولت في العالم عقب انهيار التجربة الاشتراكية الأولى في الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي، وما أسفرت عنه من أزمة كبرى ضربت الاقتصاد الرأسمالي العالمي عام 2008 وما زالت تداعياتها مستمرة، وتعاظم حركة الشعوب المناهضة للإمبريالية وللعولمة الرأسمالية، والتناقضات التي أسفرت عنها تلك المرحلة في صفوف الأعداء الطبقيين، والتغيرات البنيوية في صفوف الحلفاء الطبقيين، مع التأكيد على استمرار جوهر الاستغلال الرأسمالي قائماً في كل تلك التطورات، واستمرار التناقض الرئيسي في العالم بين الإمبريالية وأتباعها الطبقيين من جهة والطبقة العاملة وحلفائها وحركات التحرر الوطني من جهة أخرى.

لقد أدت ثورة الاتصالات والتكنولوجيا في نهاية القرن العشرين والألفية الثالثة إلى تشديد الاستغلال الرأسمالي وتعظيم فائض القيمة الناتج عن جهد العاملين العضلي والذهني، والذي تستولي عليه الرأسمالية، كما أن العولمة الرأسمالية أسفرت عن تشديد النهب الرأسمالي للبلدان التابعة بوسائل أكثر توحشاً، واستخدام تلك البلدان كحقول تجارب لتجار الحروب وللمجمع الصناعي - العسكري وشركات السلاح العملاقة، بل وحقول تجارب لشركات الأدوية الرأسمالية العملاقة عابرة الجنسيات، ومجالات للنهب من قبل الشركات متعددة الجنسية ورأس المال المالي في البلدان الرأسمالية المتقدمة، وعلى رأسها أمريكا.

إنها المرحلة الأكثر توحشاً للإمبريالية، والتي تشهد تفجرات الغضب ضدها وضد مؤسساتها المالية وسياساتها العدوانية في كافة أرجاء المعمورة، ولا بد من الفهم المادي الديالكتيكي لخصائصها وسماتها الجوهرية وآثارها المدمرة واكتشاف أساليب النضال الملائمة لها من خلال حركة الطبقة العملة والشعوب المنهوبة، في ظل تقدم أقطاب جديدة وتناقضات عديدة داخل معسكر الإمبريالية، وبزوغ فجر عصر جديد لتغيرات أكثر رسوخاً باتجاه الاشتراكية.

الهوامش:

1 - لينين، "برنامجنا" (مجموعة المؤلفات - المجلد -4 ص 210 - 213) أكتوبر 1899.

2 - إدوارد برنشتاين (1850 – 1932): من الزعماء البارزين للاشتراكيين الديمقراطيين الألمان والدولية الثانية، حاول بعد وفاة فردريك إنجلز أن يحرف جميع التعاليم الماركسية الأساسية، ومن هنا ظهر مفهوم التحريفية، ونادى بأن "التطور السلمي" هو المبدأ الأساسي للتطور الاجتماعي، وفي محاولة لإثبات إمكانية التوفيق والانسجام بين المصالح الطبقية في ظل الرأسمالية رفع شعار "الحركة هي كل شيء، أما الهدف الأسمى فهو لا شيء".

3 - لينين، مجموعة المؤلفات، دار التقدم، موسكو 1968 – المجلد 19 ص 45.

4 - أنهى لينين كتاب "الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" في سنة 1916، ليبين "بموجب مجمل أرقام الإحصاءات البرجوازية التي لا تقبل الجدل، وبموجب اعترافات العلماء البرجوازيين في جميع البلدان، كيف كانت، في بدء القرن العشرين قبيل الحرب الإمبريالية العالمية الأولى، الصورة الإجمالية للاقتصاد الرأسمالي العالمي ضمن علاقاته العالمية".

5 - كارل كاوتسكي (1854 – 1938): أحد زعماء الاشتراكية الألمانية والأممية الثانية، والعقل المفكر لتيار من أشد التيارات الانتهازية خطراً، وهو الوسطية (الكاوتسكية)، وهو تيار يتميز باتخاذ موقف وسط عند مواجهة النزاعات الطبقية الحادة، والوسطية في جوهرها أيديولوجيا انتهازية تضحي بالمصالح الحقيقية من أجل مكاسب عاجلة وتافهة، وتعمل على إخضاع الأهداف والمهام التاريخية للطبقة العاملة لمصالح البرجوازية.

6 - كتاب الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية (الطبعتان الفرنسية والألمانية – 6 يوليو 1920)

7 - المصدر السابق.

8- المصدر السابق.

9- المصدر السابق.

10- المصدر السابق.

11- "الشيوعية اليسارية عبث أطفال" كتبه لينين في ربيع 1920، بعد ظهور العديد من القادة الشيوعيين الشبان، الذين أعلنوا الحرب على الانتهازيين اليمينيين والإصلاحيين أصحاب سياسة الوفاق الطبقي، ولكنهم اندفعوا نحو النقيض "اليساري" والمذهبية فرفضوا ضرورة العمل السياسي الجاد بين الجماهير، وتشبثوا عاطفياً بالأساليب القديمة للنضال، واتسموا بنقص خبرتهم العملية والنظرية، وفهمهم السطحي المتمثل في أن مجرد الاعتراف بأهداف الشيوعية ومبادئها يكفي لأن تكون الأحزاب الشيوعية بديلاً للقوة السياسية ذات النفوذ والتأثير، ولم يتمكنوا من إدراك أنه قبل أن يكتسبوا الحق في قيادة الطبقة العاملة والشعب المقهور كله في النضال ضد العالم القديم، ينبغي أن تقتنع الجماهير العاملة بصحة الآراء والبرامج السياسية والشعارات التكتيكية للشيوعيين، وما كان أولئك الذين جاءوا إلى الحركة الشيوعية من صفوف البرجوازية الصغيرة يحملون في جعبتهم سوى التعصب الثوري، ولم يكن لهم دور إلا زيادة الأخطاء، وأوضح (لينين) في هذا الكتاب، ومن خلال تجارب الثورات الروسية الثلاث (1905 وفبراير ثم أكتوبر 1917) التكتيكات الثورية الذاخرة للصراع الطبقي وأهمية العمل بين الجماهير، وأساليب التعامل مع البرلمان الرجعي، وأهمية العمل في النقابات، وغيرها.

12- "البروليتاريا الثورية وحق الأمم في تقرير المصير" مقال عمّق فيه لينين وجهة النظر الماركسية القائلة بأن الطبقة العاملة هي المؤهلة لقيادة الشعب نحو انتصار الثورة الديمقراطية، ثم الثورة الاشتراكية، ولكن بشرط أن تناضل بثبات من أجل حق جميع الأمم والقوميات في تقرير المصير، بما في ذلك الحق في قيام دولها المستقلة.

13- لينين، الرسائل والمقالات الأخيرة- دار التقدم – موسكو.

14- كتاب "الدولة والثورة" - أغسطس 1917، وقبل شهرين من قيام الثورة.

15- المصدر السابق.

في الذكرى الـ 150 لميلاده

لينين والماركسية: في الاستراتيج والتكتيك الصراع الفكري الذي خاضه لينين

فرحان قاسم

ان صرخة (انجلز) في مقدمة طبعة "البيان الشيوعي" لعام 1890 "ألا ليت ماركس كان بجانبي ليرى بعينيه كل هذا"، لتعبر عن الخط البياني المتصاعد لدور حركة الطبقة العاملة ونمو الأحزاب الاشتراكية، على الرغم من الانتكاسات التي واجهت (ماركس) و(انجلز) سواء بعد ثورة عام 1848 ام بعد كومونة باريس عام 1871. فهل المشهد المعاصر وبعد عقود طويلة من رحيل (لينين) وبالرغم من انهيار تجربة الاشتراكية الفعلية والنظرة السوداوية للكثير من المفكرين المحسوبين على الفكر الاشتراكي او المعادين له، يسمح لنا ان نتفاءل ارتباطا باتساع جبهة معاداة الرأسمالية، وتعمق ازماتها التي تركت اثارها السلبية المدمرة ليس على بلدان الأطراف فحسب، وانما بدات تعصف ببلدان المركز الرأسمالي نفسه. واعتقد جازما ان الصراع الذي خاضه (ماركس) و(انجلز) و(لينين) وبقية المفكرين والقادة الاشتراكيين يمدنا بمعين لا ينضب من الثقة بانتصار الانسان للانتقال من مجتمع الضرورة الى عالم الحرية الفسيح.

حينما وصف (لوكاتش) المفكر الماركسي المجري، لينين بانه "المنظر الوحيد الذي كان بمستوى ماركس" فانه أكد ما ذهبت اليه (كلارا زيتكن) بعد وفاة (لينين) بان "رجلا لا بديل له قد رحل عنا"، فلينين خلال ثلاثين عاما فقط ما بين عامي (1893 و1923) كتب (45) مجلدا ضم عشرات الكتب والاف المقالات والخطب والتقارير، شكلت إرثه الفكري الثر. ان ما طرحه لينين بشكل عام يعكس التطبيق الخلاق للماركسية ضمن نطاق فترة تاريخية جديدة ارتبطت بانتقال مرحلة رأسمالية المنافسة الحرة الى مرحلة الامبريالية، وبعملية تحول الثورة البرجوازية الديمقراطية الروسية الى ثورة اشتراكية.

يمكن اجمال نظريات واطروحات لينين في مجال النظرية والتطبيق في أربعة حقول مترابطة ببعضها:

الحقل الاول: تحليله العميق للامبريالية بوصفها مرحلة عليا في الرأسمالية ودراسة ما هو خاص في التجربة الروسية وخصوصا نمط الإنتاج والمسالة الزراعية ودخول نمط

الإنتاج الرأسمالي الى روسيا، كما درس نمط الإنتاج الاشتراكي وشروطه.

الحقل الثاني: نظرية الثورة ومفهوم التحالفات وظروف تكوينها، وقضية بناء حزب من طراز خاص، وعلاقة ذلك بمفاهيم الطبقة والجماهير والمركزية الديمقراطية والبيروقراطية ، والاممية البروليتارية، واطروحاته المتعلقة بالمسالة القومية وتقرير المصير، وحركة التحرر الوطني، والثورة الدائمة، والحرب.

الحقل الثالث: اطروحاته الخاصة بالدولة ومفاهيمدكتاتوريةالبروليتاريا،والديمقراطية، ومجالس السوفيتات، والاشتراكية في بلد واحد والصراع بين النظام الاشتراكي والرأسمالي.

الحقل الرابع: نضاله الأيديولوجي في مجال الدفاع عن الفلسفة المادية الديالكتيكية ضد الاتجاهات المثالية والمادية الميكانيكية ومعاركه الفكرية ضد الشعبوية والفوضوية والانتهازية اليمينية واليسارية والنزعة القدرية والاصلاحية واطروحاته الخاصة في الادب والسياسة والثقافة والفن.

ولد لينين عام 1870 وارتبط بالحركة العمالية مبكرا وبدأ الكتابة منذ أوائل العشرينات من عمره، وعاش "تناقضات الحركة العمالية عشية الحرب العالمية الأولى التي ظهرت فيها ثلاثة اتجاهات: الاول، اتجاه وسطي يقوده كاوتسكي والماركسيون النمساويون، وهو اتجاه يحافظ على المفردات التقليدية الماركسية، ويراهن على الطابع الحتمي للتطور التاريخي والتنبؤ بالثورة، لكنه يخفي ممارسة نزعة طمأنينة انتهازية. أما الاتجاه الثاني فهو إصلاحي "تحريفي" يقوده برنشتين نما نموا واسعا في الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الكبيرة في المانيا وفرنسا وإيطاليا وفي روسيا، يوافق هذا الاتجاه على تسويات مع الأيديولوجية القومية ومع الامبريالية واكد على انه ينبغي للاشتراكية الديمقراطية ان تتحول من حزب للثورة الاجتماعية الى حزب ديمقراطي للإصلاحات الاجتماعية، وان مفهوم "الهدف النهائي" باطل وانكر نظرية الصراع الطبقي. والاتجاه الثالث هو يساري مشتت يمثله انصار روزا لوكسمبورغ في المانيا و"المنبريون" الهولنديون، والبلاشفة الروس، الذين تبنوا مفهوم الثورة، ودعوا الى الاضراب العام لإيقاف الحرب الوشيكة.

شهدت هذه المرحلة إضافة الى (لينين) بروز مجموعة كبيرة من القادة والمفكرين الذين عاصروا (ماركس) و(انجلز) او تتلمذوا على منهجهما، ففي المشهد الفكري السوفياتي برز (بليخانوف)، و(زينوفيف)، و(ماراتوف)، و(تروتسكي)، و(بوغدانوف)، و(لوناتشارسكي)، و(بوخارين)، و(ستالين)، و(كامينيف). وفي المشهد الفكري الأوروبي برز لوكاتش،وغرامشي،وروز الوكسمبورغ، وليبنخت، وكاوتسكي، وبرنشتاين، وبارفوس ورواد مدرسة فرانكفورت. وقد خاض هؤلاء المفكرون وغيرهم صراعا فكريا اغنى الماركسية ومنحها حياة متجددة رغم بعض "الخسائر" التي تعرضت لها الحركة العمالية من خلال ذلك الصراع. وكانت اطروحات لينين الجديدة هي الحافز لانطلاق تلك الحركة الفكرية الخلاقة التي امتدت الى يومنا هذا وسيظل الصراع الفكري تحت خيمة الماركسية واحدا من علاماتها البارزة.

دافع لينين عن الماركسية ضد جميع الاتجاهات التي حاولت تشويهها، وكان له الفضل الأول في كشف القوانين التي حلت

بالتطور الراسمالي في عصر الامبريالية حيث تعاظم الصراع بين البلدان الراسمالية من اجل إعادة تقسيم العالم وخلق الحروب الامبريالية، وتقويض جبهة الامبريالية العالمية، التي أوصلت لينين الى استنتاجه الحاسم بان الاشتراكية في البداية يمكن ان تنتصر في عدة بلدان او حتى في بلد واحد.

تقرير المصير والقضية القومية

القضية القومية و"حق الأمم في تقرير مصيرها" مفهومان تاريخيان مرتبطان بقوانين التطور الاجتماعي الخاصة بالتشكيلة الاقتصادية - الاجتماعية الرأسمالية وان الأساس في ظهور المفهومين، هو أساسا عامل اقتصادي، يكمن في ان تفوق الإنتاج البضاعي يتطلب استيلاء البرجوازية على السوق الداخلية وتوحيد الأراضي التي يتكلم سكانها لغة واحدة في دولة واحدة. ويمكن القول بان "في العالم كله كان عهد انتصار الراسمالية التام على الاقطاعية مقترنا بظهور ونمو الحركات القومية". ويبدو ان "الميزة النموذجية والشيء الطبيعي هو قيام الدولة القومية في اوروبا الغربية كلها، بل في العالم المتدني كله"، وان "الرأسمالية بإيقاظها القارة الاسيوية قد اثارت حركات قومية، تسعى الى انشاء دول قومية، وان هذه الدول بالضبط تضمن للرأسمالية احسن الظروف التي يتطلبها تطورها".

ان مسالة حرية الأمم في تقرير مصيرها لم يعالجها البرنامج الروسي الموضوع في سنة 1903 وحسب، بل عالجها قرار مؤتمر لندن العالمي المنعقد في سنة 1896. لقد تطور موقف الحركة الطبقة العاملة والحركة الشيوعية من المسالة القومية وحق الأمم في تقرير مصيرها تبعا للتطورات الحاصلة في دول المركز الراسمالية او في دول الأطراف. وانعكس هذا على الشعارات المركزية التي رفعتها منذ تأسيسها. ففي عام 1848 رفعت رابطة الشيوعيين شعار "يا عمال العالم اتحدوا" في "البيان الشيوعي"، اذ كان هدفها "ان تصهر الطبقة العاملة الاوربية والأمريكية كلها في جيش جرار ضخم" كخطوة أولى للانقضاض على الرأسمالية. وبعد ثورة أكتوبر وفي المؤتمر الأول لشعوب الشرق الذي عقد في باكو عام 1920 وارتباطا باتساع جبهة العداء للرأسمالي، رفع شعار "يا عمال العالم ويا ايتها الشعوب المضطهدة اتحدوا"، تعبيرا عن نمو حركة التحرر الوطني ومحاولة الانعتاق من نير التبعية الكولونيالية. وفي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وسع المؤتمر العالمي للأحزاب الشيوعية والعمالية عام 1969 هذا الشعار الى شعار جديد، هو "يا شعوب البلدان الاشتراكية، أيها العمال، يا جميع القوى الديمقراطية في بلدان الرأسمال، أيتها الشعوب المتحررة والمضطهدة، اتحدوا في النضال المشترك ضد الامبريالية، من اجل السلام والاستقلال الوطني والتقدم الاجتماعي والديمقراطية والاشتراكية". وهذا الشعار يشير الى انه لم يعد الكفاح ضد الراسمالية مقتصرا على تحالف العمال والفلاحين وحسب، بل اخذ يمتد افقيا وعموديا الى ان وصل في الوقت الراهن الى مفهوم "عولمة التضامن" مقابل "عولمة راس المال" والتوجه العالمي لبلورة الكتلة التاريخية التي دعا لها غرامشي، كأداة واسعة للانقضاض على الراسمالية.

واجهت ثورة أكتوبر ثلاثة نماذج من البلدان من حيث حق الأمم في تقرير مصيرها: "النموذج الاول هي البلدان الرأسمالية المتقدمة في اوربا الغربية والولايات المتحدة حيث انتهت الحركات القومية التقدمية البرجوازية منذ زمن بعيد . وأمست كل من هذه الأمم الكبيرة تضطهد اما أخرى في المستعمرات وفي داخل البلاد. والثاني هي دول شرق أوروبا أي النمسا والبلقان وروسيا حيث نمت الحركات القومية البرجوازية الديمقراطية بقوة واشتدت حدة النضال القومي، لذلك لا تستطيع البروليتاريا ان تقوم بمهماتها الا اذا خاضت غمار النضال عن حق الأمم في تقرير مصيرها. ان المهمة الصعبة والهامة في هذه البلدان هي مهمة دمج وتوحيد النضال الطبقي الذي يخوضه عمال الأمم الظالمة مع نضال عمال الأمم المظلومة. والنموذج الاخير هو البلدان شبه المستعمرة مثل الصين وايران وتركيا وجميع المستعمرات. وهنا يترتب على الاشتراكيين الا يطالبوا فقط بتحرير المستعمرات الذي يعني الاعتراف بحق تقرير المصير وانما عليهم ان يساندوا العناصر الأكثر ثورية في حركات التحرر الوطني البرجوازية الديمقراطية وان يساعدوا في قيام ثورتها ضد الدول الامبريالية".

ذاد (لينين) عن حق الأمم في تقرير مصيرها وناضل ضد التعصب القومي البرجوازي وكافح في سبيل وحدة عمل البروليتاريين من جميع الأمم وفي سبيل التلاحم والصداقة والمساواة في الحقوق بين الشعوب، وتنبأ "بان الاشتراكية وحدها هي التي تؤمن التقارب بين الأمم على أساس ديمقراطي حقا واممي حقا وتؤدي الى التحالف والصداقة بين شعوب حرة ومتساوية في الحقوق". واكد (لينين) انه "ما دامت روسيا والدول المجاورة لها (ايران، تركيا، الصين) تشهد انبثاقا للميول الرامية الى انشاء دول مستقلة وموحدة من الناحية القومية فإننا نجد من الضروري ان يتضمن برنامجنا فقرة خاصة بحق الأمم في تقرير مصيرها". ان هذه الحالة تجعل مهمة البروليتاريا في روسيا مزدوجة وهي محاربة كل نزعة من نزعات التعصب القومي وفي مقدمتها نزعة التعصب القومي الروسي وليس الاقتصار على الاعتراف لجميع الأمم بالمساواة المطلقة في الحقوق بصورة عامة وحسب، بل أيضا بالمساواة في الحقوق فيما يخص انشاء دولة لها، أي الاعتراف بحق الأمم في تقرير مصيرها، وفي الوقت نفسه لا يجوز فهم حق الأمم في تقرير مصيرها كانفصال ضروري في كل الأحوال ولجميع الشعوب الداخلة في دولة متعددة القوميات وتشكيل عدة دول صغيرة مشتتة اقتصاديا ولو انها مستقلة سياسيا".

بعد ان بدأ المد الثوري في أوروبا ينحسر صار (لينين) يعلق أهمية اكبر فاكبر على الحركات القومية الثورية في المستعمرات وشبه المستعمرات. قال لينين في المؤتمر الثاني للمنظمات الشيوعية لشعوب الشرق في 1922 "وفي اثر مرحلة استيقاظ الشرق في الثورة المعاصرة ستحل مرحلة تشترك فيها جميع شعوب الشرق في تقرير مصائر العالم كله، كي لا تظل هذه الشعوب مجرد وسيلة لإثراء الاخرين". واصبح (لينين) يرى ان الحركات القومية الثورية في اسيا جزء حاسم من الثورة العالمية حيث قال

في رسالة الى عصبة شيوعية هندية "فقط عندما تتشابك ايدي العمال والفلاحين الهنود والصينيين والكوريين واليابانيين والفرس والأتراك يصبح النصر الحاسم على المستغلين مؤكدا، وان مآل النضال يتوقف في نهاية المطاف على روسيا والهند والصين الخ.. التي تضم الأغلبية الساحقة من سكان الأرض. ان انتصار الاشتراكية النهائي هو بهذا المعنى مؤكد ومضمون تماما وبصورة مطلقة".

اكد (ماركس) على التلازم بين الثورات في البلدان المتخلفة والثورة الاشتراكية واعلن نبوءته العبقرية بان "ساعة موت الصين القديمة ستدق عما قريب وسنكون شهودا على احتضار اقدم إمبراطورية في العالم وعلى اليوم الذي سيفتتح فيه عهد جديد بالنسبة لكل اسيا". كما ان التناقض بين دول المركز الراسمالي والدول الطرفية التابعة اصبح من التناقضات التناحرية الأساسية للامبريالية وربط (لينين) بين سبل التحرر الوطني لشعوب الشرق وبين سبل تحررها الاجتماعي.

عارضت روزا لوكسمبورغ لينين في قضية حق تقرير المصير القومي، ووقفت ضد الاشتراكيين القوميين البولنديين معلنة ان الاشتراكيين الروس والبولنديين يجب ان يتحدوا ضد القضية القومية وان البروليتاريا يجب ان تسمو على الحدود القومية في صراع دولي في جوهره من اجل الحرية، وبررت موقفها من رفضها انفصال بولندا عن روسيا القيصرية بانه صعب وغير قابل للتحقيق على ارض الواقع وتعتبره تعزيزا للنزعات القومية الوطنية التي اكدت الماركسية على وجوب مقاومتها لصالح الأممية ورفضت الاعتراف بالتنازلات التي راها (لينين) ضرورية لمطالب القوميات الخاصة بالانفصال وإقامة حكومات خاصة بها. لانها كانت تفكر على أساس من "ثورة عالمية" بعيدة كل البعد عن ان تنشئ حدودا جديدة، بل تقضي على الحدود القائمة فعلا. وتنبأت بان هذا المبدأ سوف يخلق فوضى عارمة في حركات الانفصال والاستقلال مما سوف يقوم باضعاف قوة البروليتاريا حول العالم.

"ان روزا لوكسمبورغ عجزت تماما حتى عن تحليل قضية البناء الاجتماعي الذي يقوم عليه الحكم في روسيا بالنسبة الى بولندا البرجوازية". اما الخصائص التاريخية الملموسة التي تمتاز بها الحركات القومية في روسيا فهي لم تتعرض حتى الى بحثها". ولكنها في الوقت نفسه اعتمدت على أساس التحليل الملموس العيني لكل نزعة قومية على حدة، ووقفت ضد تعميم مبدأ تقرير المصير لجميع الأمم، إذ رأت مشروعية شعوب البلقان في التحرر من السيطرة التركية التي تضع العراقيل امام التقدم. بينما اعتبرت النزعة القومية البولندية نزعة بالية تجاوزها الزمن، لان البروليتاريا البولونية اصبحت قادرة لا على مهمة الانفصال بل على مهمة النضال المشترك مع الروس في سبيل الاشتراكية.

على الرغم من كل أخطاء روزا، فقد اكد لينين "انها كانت وستظل بالنسبة لنا نسرا محلقا". ولن يحفظ الشيوعيون في كل أنحاء العالم ذكراها باعتزاز فحسب، بل إن سيرة حياتها ومؤلفاتها الكاملة ستكون أيضا دليلا لتدريب أجيال من الشيوعيين في كل أنحاء العالم.

نظرية لينين السياسية

ان (ماركس) "هو اول من ادخل مفهوم الممارسة في نظرية المعرفة"، واصبح النشاط النظري مترابطا مع الممارسة والنشاط المباشر الذي يمارسه الانسان على بيئته، ومن خلال ذلك التفاعل بين النظرية والتطبيق تتكشف صحة المعرفة. اعتمدت نظرية ماركس في السياسة على كيفية الانقضاض على النظام الراسمالي كخطوة أولى لتغيير العالم والانتقال به من مجتمع الضرورة الى مجتمع الحرية، أي البحث عن الوسائل التي تساعد على تحويل المنجز النظري في حقل الفلسفة والاقتصاد الى واقع يعيشه المواطن.

يمكن القول بان براكسس ماركس كانت مرنة وحدثت فيها انتقالات كبيرة. وواجهت محاولات (ماركس) و(انجلز) في مجال ممارسة النظرية الكثير من المصاعب والعقبات منذ البداية لاسباب عديدة وعلى راسها عدم اكتمال أدوات التحليل النظرية للظاهرة الرأسمالية قبل الشروع بكتاب "راس المال".

ادت نتائج كومونة باريس بماركس وانجلز الى انتهاج سياسة جديدة تماما تبنتها الأممية الثانية التي أسسها انجلز عام 1889، وهي نضال البروليتاريا عبر الاليات البرلمانية وتأسيس أحزاب اشتراكية ديمقراطية لها نظمها الداخلية وسياساتها التي تقررها مؤتمراتها وفق ظروفها الخاصة.

ان تحليل (لينين) لخصائص الرأسمالية في ظل مرحلة الامبريالية فرض على لينين موضوعيا ان يضع نظرية سياسية جديدة في وضع ثوري خاص بروسيا. لقد طور (لينين) نظرية الثورة الاشتراكية، وقام بتطوير فكرة هيمنة البروليتاريا في الثورة ضمن استراتيجية تحالف العمال والفلاحين، وربط التحالف بثلاثة عوامل: نمط الإنتاج، الطبقة المهيمنة والقوى المحركة للعملية الاجتماعية، وميزان القوى الخاص بظرف معين. واكد انه لا غنى للبروليتاريا عن سياسة التحالفات سواء تعلق الامر بنضالها من اجل الديمقراطية ام من اجل الاشتراكية، لان البروليتاريا لا تستطيع تحقيق أي نصر لها سواء قبل الثورة ام بعدها الا اذا تمكنت من جعل اغلبية الشعب الى جانبها. وقد تم تأكيد هذه النظرية في الممارسة العملية.

وضع انتصار البلاشفة في 25 تشرين الاول 1917 الايديولوجيات الاشتراكية، للمرة الاولى، امام واقع جديد يفرض على الحكومة الجديدة ان تضع برنامجا لتطبيقه فعليا وفوريا. اعتمدت سياسة الحكومة توطيد انتصار الثورة، باسرع ما يمكن، وعقد مؤتمر مجالس السوفييتات الثاني في 26 تشرين الاول، وصادق فيه على مرسومي (الأرض والسلام) اللذين يمهدان في المستقبل لبناء الاشتراكية. كان (لينين) مقتنعاً بأن انتصار الثورة الاشتراكية العالمية، أو انتصارها على الأقل في عدد من البلدان الرأسمالية المتقدمة، هو وحده الذي سيضمن الانتصار الدائم للثورة الروسية ونجاحها في بناء الاشتراكية. ففي تقديره، كانت البروليتاريا الروسية قادرة على البدء بالثورة الاشتراكية، لكن سيكون من الصعب عليها وحدها مواصلتها ودفعها نحو النصر النهائي، أي نحو التنظيم الشامل للمجتمع الاشتراكي.

ان جوهر الخلاف بين (لينين) و(بليخانوف) سواء في النظرية او الممارسة

يكمن بشكل أساسي حول طبيعة القوى الاجتماعية السياسية التي يتوجّب عليها قيادة التحرّك الديمقراطي. (بليخانوف) قال بقيادة البورجوازية للمهمات الديمقراطية ذات الطابع البورجوازي، وعارضه (لينين) بالقول ان البورجوازية الروسية الضعيفة عاجزة عن قيادة الثورة الديمقراطية نظراً لدخول الرأسمالية في المرحلة الإمبريالية.

ان (بليخانوف) الذي تتلمذ على كلاسيكيات الادب الماركسي، لم يستطع استيعاب المتغيرات الجوهرية التي حصلت على الرأسمالية بعد تحولها الى الامبريالية، لذلك وقع في مطب الاصلاحية وابتعد عن روح الماركسية النقدية، فوقف موقفا انتهازيا من ثورة 1905 وطالب بعدم رفع السلاح، ورفض فكرة تحالف البروليتاريا مع الفلاحين، واتخذ من الحرب الامبريالية نفس موقف كاوتسكي، واعتبر ثورة اكتوبر حماقة تاريخية. كما اعتبر ان دكتاتورية البروليتاريا بمفهوم ماركس لن تتحقق ابدا لان تغلغل وترسيخ آلات الانتاج الجديدة يسبب تغيير التركيبة الطبقية للمجتمع، فالبروليتاريا التي ليس لديها ما تفقده سيقل عددها، وستحتل الانتلجينسيا المركز الاول في العدد ومن حيث الدور في عملية الانتاج، وفي عملية التنوير، وستتحول من خادمة للطبقة البرجوازية الى طبقة لها خصوصيتها من حيث تعدادها ودورها في عملية الانتاج وابتكار الات جديدة وخلق عامل رفيع التعليم والثقافة. احتدم الخلاف بين بليخانوف ولينين عشية الحرب العالمية الأولى 1914. فقد دعا (لينين) الى تحويلها الى حرب أهلية. إلا أن (بليخانوف) أعتقد بأن من واجب العمال والفلاحين أن يدعموا البرجوازية والسلطة في الحرب ضد المانيا وحليفاتها. واكد (بليخانوف) انه إذا لم تبلغ الرأسمالية في البلاد تلك الدرجة العالية التي تجعلها تشكل عقبة أمام تطور قواها المنتجة، فمن السخف توجيه الدعوة لإسقاطها. كما لا يقل سخفاً عن ذلك الدعوة الى الاستيلاء على السلطة السياسية"، ودعا (بليخانوف) الى تشكيل إئتلاف واسع من السوفيتات والبرجوازية والى اجراء صلح طبقي في فترة الحرب وتأجيل موضوع توزيع الأراضي لحين انعقاد الجمعية التأسيسية بيد أن هذه الدعوة لم تجد تقبلاً لدى الجماهير، فقد تدهور الوضع في البلاد عقب الانتفاضة الدموية في تموز وهزائم الجيش الروسي في الجبهة مما اعطى شعارات البلاشفة صدىً كبيراً لدى الناس: "السلطة للسوفيتات" و"الأرض للفلاحين" و"المصانع للعمال" و"السلام للشعوب".

نسب (لينين) فضل اعتناقه الماركسية الى مفكرين اثنين أولهما (ماركس) والثاني (بليخانوف)، ورغم اخطائه فقد انصفه لينين بقوله "ان المرء لا يمكن ان يصبح شيوعيا واعيا وحقيقيا الا بعد دراسة جميع ما كتبه بليخانوف في الفلسفة لانها افضل ما كتب في جميع الادب العالمي حول الماركسية".

احتل (غرامشي) موقعا مميزا في تاريخ الماركسية، لانه ابدع نظرية جديدة في السياسة، فنجاح ثورة أكتوبر في روسيا وفشل الثورة في أوروبا وضع الاشتراكية امام مهمات نظرية وعملية جديدة. واكد هوبزباوم بان غرامشي قدم استراتيجية ماركسية لحركات اشتراكية في بيئات واوضاع غير ثورية سادت في البلدان الراسمالية المتقدمة خلال وبعد الحرب العالمية الأولى، فهو فيلسوف التطبيق السياسي العملي بامتياز.

ان ابداع (غرامشي) في نظريته السياسية يكمن في انه ادرك ما هو خاص في روسيا وما هو خاص في إيطاليا وأوربا. في روسيا القيصرية حيث الدولة تتحكم في كل شيء ومؤسسات المجتمع المدني هشة وعائمة لا تاثير لها. لذلك اعتمد لينين تكتيك حرب الحركة والمناورة، لانه الأسلوب المناسب للحركة العمالية في روسيا واستطاع حزب البلاشفة تحت قيادة لينين من حسم قضية السلطة بسرعة قياسية، وعلى عكس ذلك في البلدان الراسمالية المتقدمة وبسبب هجمتها الفاشية على الحركة العمالية وتحطيم الاتجاه اليساري فيها وانتهازية الجناح الإصلاحي في الاشتراكية الديمقراطية وبسبب تمتع مؤسسات المجتمع المدني بعلاقة متوازنة في المجتمعات البرجوازية الاوربية، طرح (غرامشي) حرب المواقع او الخنادق كنظرية جديدة في السياسة لكفاح الطبقة العاملة بعيد المدى ضد الرأسمالية.

اتفق (تروتسكي) مع طرح (لينين) بانه لا يمكن للحكومة الثورية التي يقودها العمال تحت راية الماركسية ان تتوقف في منتصف الطريق، وانما عليها ان تدفع الثورة الديمقراطية الى الاشتراكية، وان انتصار الثورة الروسية سيعطي زخما هائلا للثورة الاشتراكية في الغرب التي ستشكل عامل دعم للثورة الاشتراكية في روسيا.

اختلف (تروتسكي) في البداية مع (لينين) في قضية تحالف العمال والفلاحين ودورهم في الثورة، وقد رد تروتسكي على فكرة لينين هذه قائلا إن الفلاحين لم يكونوا في أي وقت في التاريخ قادرين على لعب دور مستقل. لأنه اعتبر الفلاحين في غاية الميوعة سياسيا وثقافيا، ولا يمكنهم ان يلعبوا الدور الجدير بعمل سياسي كبير. ولكنه بعد ثورة أكتوبر وانضمامه الى قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي اقتنع بأطروحة (لينين) حول التحالف بين البروليتاريا والفلاحين في مرحلة تجاوز الرأسمالية وإرساء قواعد بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي.

من بين دروس ثورة 1905 ما طرحه (تروتسكي) "ان البروليتاريا تستطيع في بلد متخلف الاستيلاء على السلطة بصورة اسرع منها في البلدان الرأسمالية المتقدمة وهو يربط بين انتصار الثورة في روسيا واندلاعها في البلدان الرأسمالية، وبهذا رسم الخطوط الرئيسية لنظريته في "الثورة الدائمة" وطور لينين هذه الاطروحة التي تعود جذورها لماركس عام 1850 الذي اكد على عالمية ودوام الثورة الاشتراكية وارتباطها الجدلي بمهمة الانقضاض على الرأسمالية العالمية في كل ارجاء الكرة الأرضية.

بناء حزب من طراز جديد

ظهرت في داخل حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي مجموعة اتجاهات: الشعبوية التي تدعو الى اتحاد كومونات ومناطق مستقلة في اطار جمهورية ديمقراطية وكانت تريد التوفيق بين الاشتراكية والحرية، وركزت على الفلاحين رافضة فكرة الماركسية حول الدور القائد للبروليتاريا ودعت الى اتحاد الفلاحين والعمال والانتلجنيسيا ضد الكولاك، وشكلت مع المناشفة اكبر كتلة في مجلس السوفييتات عام 1917. الفوضوية التي كانت ترفض البرلمانية في المعارضة، وتطلب التأميم

الفوري للمصانع وتحقيق اشتراكية عامة وسريعة. وشن (لينين) هجوما كاسحا على أطروحة المناشفة بترك قيادة الثورة للبرجوازية. وكان يرى ان البروليتاريا وبدعم الفلاحين ستصبح العنصر المحرك للثورة الديمقراطية البرجوازية. ودعا الى بناء حزب يضم اقل عدد ممكن من الثوريين المحترفين، مستند الى الجماهير العمالية، هدفه الإطاحة بالقيصرية والرأسمالية المرتبطة به. حزب مستقل يراعي بدقة قواعد العمل السري من اختيار دقيق للأعضاء واعداد الثوريين المحترفين. وخرج لينين من مؤتمر براغ بحزب بلشفي مستقل سيكون نشاطه سريا وغير شرعي. ويملك جريدة "البرافدا" اليومية الممنوعة وذائعة الانتشار. حزب يستند الى نظرية طليعية ويكون القوة القائدة والمنظمة للحركة العمالية، يوحد الشغيلة ويكون قائدهم السياسي في النضال من اجل السلطة، متحرر من كل اشكال المهادنة والانتهازية ومن كل جمود، مبني على مبدا المركزية الديمقراطية وان يكون ذا نظام واحد ومركز واحد ونظام طاعة واحد قائم على خضوع الأقلية للاكثرية، وخضوع الهيئات الدنيا للهيئات العليا. ومستند الى وحدته التنظيمية والفكرية .

اكد (لينين) بان الغلطة الأساسية التي يقترفها الاتجاه الجديد في الاشتراكية الديمقراطية الروسية هي تقديس العفوية، هي عدم فهمه ان عفوية الجماهير تتطلب منا نحن الاشتراكيين الديمقراطيين قدرا كبيرا من الوعي. وكلما ارتفع نهوض الجماهير العفوي واتسعت الحركة، كلما ازدادت الحاجة الى قدر كبير من الوعي في عمل الاشتراكية الديمقراطية النظري والسياسي والتنظيمي.

لقد تعاظم نهوض الجماهير واتسع باستمرار واطراد. اما الثوريون فقد تاخروا عن هذا النهوض بنظرياتهم وبنشاطهم ولم يفلحوا في تشكيل منظمة دائمة، تعمل دون انقطاع وقادرة على قيادة الحركة بكاملها.

رحبت روزا لوكسمبورغ بحماس شديد بنشوب ثورة اكتوبر، مسدية أشدّ الإطراء لها. كما جمعتها مع لينين الكثير من النقاط المشتركة، منها الإخلاص اللامتناهي للماركسية، والنضال ضد المعادين للثورة الاشتراكية، والثقة بعمل الجماهير، وضرورة مكافحة الاشتراكية الديمقراطية لمساومتها مع البرجوازية.

لكنها اختلفت مع (لينين) حول بعض الأمور النظرية وتطبيقاتها العملية على الواقع ومنها اختلافها حول دور الحزب الشيوعي الذي اعتبره (لينين) الأداة في تحقيق ديكتاتورية البروليتاريا، بينما روزا عارضت ذلك وقالت: "أن الحزب سيصبح هو السلطة وسيكون السياسيون الحزبيون هم ديكتاتورية جديدة وسيهضمون حقوق العمال وسوف تختزل مطاليب العمال وجماهير الشعب الفقيرة بيد هؤلاء الحزبيين القياديين أي أصحاب القرار". ان روزا لم تعارض تأسيس حزب يمثل الطبقة العاملة، ولكنها اكدت على ضرورة بناء الحزب من الاسفل أي من قاعدته الجماهيرية وعلى أسس ديمقراطية، ووقفت ضد التمادي في سيطرة الحزب على السلطة التي تكتسب شرعيتها من الطبقة العاملة التي يفترض ان تكون هي قائدة التحولات وليس مجموعة محددة من قادة الحزب. وطرحت فكرة ان يمارس تأثير الحزب على البروليتاريا أساسا من خلال أفكاره وبرنامجه وشعاراته وليس من خلال

سلطة تنظيمية. وراودتها مخاوف بعد ثورة أكتوبر من قيام بيروقراطية محترفة جديدة في روسيا تشرع في اخضاع الجماهير باسم الثورة. كما كانت روزا قلقة من ميل البلاشفة لكبت حرية التعبير والصحافة والتجمع، وكانت عميقة القلق من أن ميل البلاشفة لكبت حرية التعبير والصحافة والتجمع يعرض للخطر الحركة ذاتها نحو مجتمع اشتراكي. واعتبرت الاشتراكية والديمقراطية امرين متلازمين. وفي تأكيدها الحاجة الى حرية الفكر والتعبير العفوي بعد الاطاحة بالنظام القديم طرحت لوكسمبورغ واحدة من أهم وأصعب المسائل التي واجهت الحركة الماركسية: ما الذي يحدث بعد الثورة؟ ما العمل لضمان أن طبقة جديدة أو بيروقراطية لا تستولي على السلطة لاحقاً؟

كان (تروتسكي) يعيب على (لينين) فرط مركزيته في مجال التنظيم، وتبنى النضال السياسي من اجل الديمقراطية داخل الحزب خصوصا بعد سيطرة (ستالين) على مقاليد الحزب والدولة، ورفض التصور اللينيني لطليعة البروليتاريا الذي يرى فيه ان مجموعة صغيرة من المثقفين المحترفين للعمل السياسي تحل محل حركة الجماهير في صناعة الوعي، ورغم ان (تروتسكي) لا ينكر ضرورة تشكيل حزب ثوري الا انه لا يعتقد بفكرة جلب الوعي الثوري من الخارج الى الجماهير وفي رايه ان الوعي يولد في سياق التجربة الثورية من خلال الاضراب او الانتفاضة، وهنا يبرز دور الحزب في بلورة هذه العلاقة بين الوعي والعمل الجماهيري، وهو السبب الذي جعل (تروتسكي) متحمسا للسوفيتات، لانها كما كان يعتقد الأفضل في رفع وترسيخ الوعي عند الطبقة العاملة.

بعد التطورات العاصفة التي جرت في عالمنا بعد الحرب العالمية الثانية والتحولات النوعية التي تعرض لها النظام الدولي وخصوصا بعد انهيار تجربة الاشتراكية الفعلية في الاتحاد السوفييتي السابق وبلدان أوروبا الشرقية، ورسوخ الاتجاهات التي تميل الى اعتماد الديمقراطية كآلية وأداة لإدارة شؤون الدول والمؤسسات والمنظمات في عالمنا المعاصر، لم تعد اغلب القواعد اللينينية لبناء الحزب الشيوعي قادرة على تزكية استمرارها، وتبرز الحاجة بشكل موضوعي الى اعتماد قواعد جديدة في بناء تلك الأحزاب، وقد خطت الكثير من الأحزاب الشيوعية الى تغيير الكثير من تلك القواعد عبر مؤتمراتها الدورية وإعادة صياغة نظمها الداخلية، باتجاه تعزيز الديمقراطية الداخلية، وترسيخ مبدأ الشفافية والقيادة الجماعية. ونجحت الكثير من الاحزاب اليسارية في عدد من دول العالم توسيع مديات تأثيرها سواء في إعادة بناء أنظمتها الداخلية او توسيع اشكال تحالفاتها، ما انعكس إيجابيا على نتائجها الانتخابية وتأثيرها المباشر في الحياة السياسية في تلك البلدان.

اللينينية

"لم يستعمل هذا المفهوم الا من جانب خصوم لينين عام 1903 بمعنى تهكمي"، واول تعريف إيجابي لها جاء من قبل (ستالين) عام 1924 اذ قال "اللينينية هي ماركسية عصر الامبريالية والثورة البروليتارية وبعبارة ادق: اللينينية هي نظرية وتكتيك الثورة البروليتارية بصفة عامة ونظرية وتاكتيك دكتاتورية البروليتارية بصفة

خاصة". وكانت غاية (ستالين) التأكيد على طابعها الالزامي لكل البلدان دون استثناء. لقد فعل (ستالين) باللينينية ما لم يكن يريده لينين ان يفعله بالماركسية، فجعلها مخططا مبسطا لفلسفة التاريخ ملزما للجميع.

ان جميع اعمال (لينين) استندت الى مقولته المعروفة "نحن لا نعد مذهب ماركس على الاطلاق شيئا كاملا ومقدسا لا يمس، اننا مقتنعون على العكس بان ماركس لم يقم الا بوضع الحجر الأساس للعلم الذي ينبغي ان يطوره الاشتراكيون في جميع الاتجاهات اذا كانوا لا يريدون ان يتخلفوا عن ركب الحياة".

ان في ارث (لينين) ما يشكل تطويرا خلاقا للماركسية سواء في الحقل الفلسفي التحليلي للظواهر الجديدة في مرحلة تحول راسمالية المنافسة الحرة الى الامبريالية ام في حقل معاركه وصراعه مع مختلف التيارات داخل وخارج الحركة الاشتراكية الديمقراطية ام في حقل نقل النظرية الى الممارسة في اول تجربة لبناء دولة العمال الاشتراكية. وقد جمع (لينين) بين شخصية المخطط ذي الذهنية الستراتيجية التي تستشرف المستقبل وبين عقلية القائد ذي القدرة على اختيار التكتيك والشعار للظرف الملموس في الوقت المناسب. لكن هذا لا يمنع ان يكون في ارث (لينين) ما ترك اثارا سلبية كحل الجمعية التاسيسية في عام 1918، والقمع الوحشي لانتفاضة كروشنات، وحظر التكتلات داخل الحزب، وإقامة الحزب الواحد، وخنق النقابات وتقييد حرية الصحافة وحرية التعبير وفقدان السوفييتات طابعها الديمقراطي، اذ لم تعد شكلا للتنظيم الذاتي للعمال والفلاحين والعجز عن تطبيق المركزية الديمقراطية.

المصادر

1 - جيرار بن سوسان – جورج لابيكا، معجم الماركسية النقدي (بيروت: دار الفارابي، 2003).

2 - لينين، المختارات، المجلد 3 (موسكو: دار التقدم، 1967).

3 - لينين، المختارات، الجزء الاول (موسكو: دار التقدم، 1968).

4 - فرحان قاسم، لمَ الماركسية؟ (بغداد: دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع، 2019)

5 - مقالات متفرقة من الانترنيت.

6 - ماركس وانجلز، "البيان الشيوعي". ترجمة خالد بكداش (بيروت: دار الفارابي، 1957).

7 - هؤلاء عرفوا لينين، ترجمة زكي مراد (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، 1968).

8 - ايفان برونين، القواعد اللينينية لحياة الحزب الداخلية. ترجمة ندى الشمالي (بيروت: دار الفارابي).

9 - لينين، ما العمل؟ المسائل الملحة لحركتنا (موسكو: دار التقدم، 1968).

10 - لينين، ملاحظات انتقادية حول المسالة القومية (موسكو: دار التقدم، 1977).

11 - ارنست فيشرو فرانز ماريك، لينين الحقيقي (بيروت: دار الطليعة 1974).

12 - زوتوف، التعاليم اللينينية حول ثورات التحرر الوطني (موسكو: دار التقدم، 1983).

13 - فيدورف، النظرية السياسية وتراث لينين. ترجمة هشام العاقل (حلب: دار الفجر).

ستراتيجي التاريخ*

جيلبر توفييرا
الامين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي الكولومبي

ان النصيب التاريخي الذي ساهم به (لينين) في الدفاع عن مبادئ الماركسية وتطويرها المبدع هو نصيب ضخم في جميع المجالات، أكان ذلك في الفلسفة ام الاقتصاد السياسي أم الاستراتيجية الثورية ام ايضا التاكتيك البروليتاري.

ان المفهوم اللينيني للستراتيجية الثورية تشكل اكبر المبادئ التي صاغها (ماركس) و(أنجلز)، هذه المبادئ التي طورها (لينين) تطويرا مبدعا وطبقها على عهد رأسمالية الدولة الاحتكارية، والحرب الامبريالية العالمية الاولى، وأول ثورة بروليتارية مظفرة. وتحققت صحة المفهوم اللينيني للستراتيجية وطبق بالوسائل التاكتيكية الاكثر اختلافا في الظروف الحسية التي عمل بها (لينين).

لنحاول للحظة، تصور مجمل المصاعب التي اصطدم بها (لينين) كي يؤسس، ثم كي يوطد الحزب الثوري الجديد الطراز في روسيا القديمة. وكان ينبغي دون توقف صد الاتجاهات الانتهازية "اليسارية" واليمينية. وفي البداية كان (لينين) لوحده، او تقريبا لوحده في النضال ضد النزعة الاصلاحية والروح القومية المتزمتة للقادة الاكثر نفوذا للاممية الثانية. وكان ينبغي السير ضد التيار دون وهن ومع الدفاع عن مبادئ الاممية البروليتارية في ذلك الجو من الشوفينية المتطرفة حيث قذف بالشعوب في مجزرة الحرب العالمية الاولى. وكان ينبغي رسم افق الثورة الاشتراكية في روسيا وطرد الاوهام الليبرالية الديمقراطية التي بعثتها الاطاحة بالقيصرية وارساء اسس الدول الاشتراكية، واعداد البناء الاشتراكي في الوقت الذي كانت فيه الحرب الاهلية محتدمة وفي الوقت الذي تدخلت فيه عسكريا، 14 دولة رأسمالية محاوِلة خنق الثورة البروليتارية في المهد. واذا توصلت الى رسم الملامح التقريبية لهذه المصاعب نستطيع ان نحكم على الوزن التاريخي للينين، مرشد الثورة، وان نقدر صلابته الفولاذية ونزعته الانسانية الحقيقية، ونشاطه الذي لا يكل. وبالنسبة للشيوعيين وبالنسبة لكل الثوريين فان الشيء الاساسي اليوم هو تعلم وفهم وتجسيد افكار (لينين) الخالدة.

وخلال العقد الاول من وجود الحكم السوفياتي تزاحم ايديولوجيو العالم الرأسمالي في سعيهم المحموم كي يصوروا (لينين) داعية للعنف، وتجاهلوا، بل واستبعدوا كل شيء اخر من النضال السياسي. ان هذا التشويه لشخصية (لينين) قد كان واسع الانتشار الى حد انه حتى ماركسي مرموق من البيرو، هو (جوزي كارلوس ماريا تيغي) مؤسس الحزب

الشيوعي في البيرو، قد اعتبر بان الآراء الفوضوية لجورج سوريل حول العنف "يمكن ان يكون لها تاثير على التكوين الفكري للينين" (هذا الراي اعرب عنه في سلسلة من النبذات لماريا تيغي وبصورة خاصة في عمله ذي الاهمية الاكيدة، "الدفاع عن الماركسية" الذي كتب من اجل مقاومة الافكار التحريضية للاشتراكي الديمقراطي البلجيكي هنري دومان).

ولدى الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد لينين العظيم فليس دون فائدة العودة الى هذه الفكرة. ونحن نفعل ذلك كي نصحح القول الخاطئ لجوزي كارلوس ماريا تيغي، ولكن ايضا وبالدرجة الاولى، لان اقوال جورج سوريل حول العنف لها اكثر من توافق مع دعاية بيكين المروجة في بلادنا ومع كتابات بعض الفلاسفة والصحفيين البرجوازيين المعاصرين. لقد اراد جورج سوريل ان يجعل من نفسه، منذ العقد الاول من عصرنا، نظري الفوضوية النقابية. وخلال سنوات عديدة وجدت آراؤه صدى معينا في فرنسا وفي اسبانيا لأنه كان يهاجم بصراحة الاصلاحية البرلمانية للقادة الاشتراكيين الديمقراطيين للأممية الثانية. وعلى العكس، فبصفته مدافعا ضاريا عن العنف جعل من العنف اسطورة، الدواء العجيب، والعصا السحرية القادرة على تحقيق الثورة. وفي اشهر كتاب له بعنوان "تأملات حول العنف" صوّر جورج اوريل التاريخ بمثابة كوارث متسلسلة تبرر مفهومه حول "الاشتراكية التي لا يمكن ان توجد الا في وضع يدعو للعنف". وقد كان العنف بالنسبة له شيئا "جميلا وبطوليا".

وينبغي القول بان (لينين) لم يلتفت الى ثرثرات سوريل بصدد العنف. واقصى ما يمكن العثور عليه ورود اسم سوريل مرتين في مؤلفات لينين باعتباره احد النقاد الفوضويين للماركسية. فمن جهة ففي الفصل المرجعي للمقال بعنوان كارل ماركس (لمحة سيرية قصيرة وعرض للماركسية) الذي نشر في 1915 في انسكلوبيديا غرانات، ومن جهة اخرى في المؤلف الفلسفي بعنوان "المادية والنقد التجريبي" وفي هذا المؤلف الاخير وصف لينين سوريل بأنه "مفسد خطير". صحيح انه ليس هناك شيء اغرب بالنسبة لافكار لينين العلمية من الدعوة الى العنف من قبل سوريل. ان (اوجين دوهرينغ) الذي دفعت نظرياته الحمقاء بفريدريك انجلس الى الشروع، في مؤلفه الموسوعي "ضد - دوهرينغ"، بالدفاع المنتظم عن المبادئ الماركسية، فقد كان الأب الروحي لسوريل.

واذا كان هناك من شيء اثّر، حسب تعبير ماريا تيفي، على التكوين الفكري للينين، فهو مجابهته الاولى مع "الشعبيين" والمعركة الايديولوجية التي خاضها ضد هذا التيار الثوري الروسي، والذي كانت نظرية انصاره وممارساتهم العملية تكتيك الارهاب الفردي ضد مضطهِدي الشعب.

وقد بيّن لسنين بوضوح مدهش في اعماله النظرية انه لا ينبغي ان ينصرف الثوريون الماركسيون الى تكتيك واحد، الى اسلوب واحد، الى طريقة واحدة في النضال.

ولدى تلاقي القرنين (التاسع عشر والعشرين – المحرر) ذكر لينين بان من الافضل ان تستولي الطبقي العاملة سلميا على الحكم. ولكن حيث ان الطبقة المسيطرة

لم تكن تعتزم الرضوخ طائعة، فلم يكن يوجد في روسيا من طريق آخر سوى طريق الثورة العنفية. وفي الواقع فقد قال (لينين) بوضوح شديد، وهو يرد في عام 1899 على اصلاحيي صحيفة "رابوشيا ميسل – الفكر العمالي" في مقالة بعنوان "حركة رجعية في الاشتراكية الديمقراطية الروسية": "صحيح ان الطبقة العاملة تفضل الاستيلاء على الحكم بالوسائل السلمية... لكن التخلي عن الاستيلاء على الحكم بالطريق الثوري سيكون جنونا من جانب البروليتاريا سواء من الناحية النظرية ام من الناحية السياسية والعملية. ومن شأنه ان يشكل، لا اكثر ولا اقل، تنازلا مؤذيا امام البرجوازية وكل الطبقات المالكة. ومن المحتمل جدا، بل وهذا الافتراض الاكثر احتمالا، ان البرجوازية لا تريد التواري سلميا امام البروليتاريا، ولكنها ستستخدم في اللحظة الحاسمة العنف من اجل الدفاع عن امتيازاتها. ولن تبقي من وسيلة عندئذ للطبقة العاملة من اجل بلوغ هدفها سوى الثورة"[1].

وفي المقال بعنوان "الاهداف الفورية لحركتنا" الذي كُتب في بداية تشرين الثاني (نوفمبر) 1900 قال لينين: "وأخيرا، ففي ما يتعلق بالتكتيك سنكتفي بما يلي: ان الاشتراكية الديمقراطية لا تقف مكتوفة الايدي ولا تقصر نشاطها على خطة جاهزة او على طريقة معدة سلفا للنضال السياسي؛ بل هي تقبل كل وسائل النضال، بشرط ان تتفق مع القوى المتوفرة للحزب وان تتيح احراز اقصى النتائج في الظروف المعينة"[2].

وهذه الخاصية للتاكتيك الثوري الذي طوره لينين، وبالتالي في كل تشعباته، هي احدى السمات الاكثر دلالة للينينية، امام التكتيك الاصلاحي لقادة الاممية الثانية الذين جعلوا من النشاط البرلماني للاشتراكية الديمقراطية الالمانية الطراز الوحيد، وبالتعارض ايضا مع الدعوة الى العنف المنظم من قبل دعاة الفوضوية.

***

وقد اكدت الثورة الروسية الاولى لعام 1905 تنبؤات (لينين). فالازمة الاجتماعية والسياسية العميقة للنظام القيصري التي زادتها تفاقما الهزائم العسكرية ضد اليابان، قد دفعت بالبروليتاريا الى شن اضرابات سياسية جماهيرية لم تلبث ان تحولت الى نشاط مسلح. وقد اتخذت نضالات الفلاحين ضد كبار الملاكين العقاريين طموحا جماهيريا. وهذه النشاطات المسلحة لم يكن يجمعها، أي جامع مع الارهاب الفردي للشعبيين. وفي مقال بعنوان "من الدفاع الى الهجوم" نُشر في 13 - 26 ايلول (سبتمبر) 1905 وصف لينين على النحو التالي هذه الاعمال الثورية: "الارهاب الفردي الذي هو ثمرة ضعف المثقفين قد بدأ يفقد رواجه... وابتدأ الكفاح بالاشتراك مع الشعب"[3].

وفي غمرة الثورة طرح لينين في مقالة بعنوان "حرب الانصار"، الصادر بتاريخ 30 أيلول (سبتمبر) 1906 موضوعته الاولى حول مختلف اشكال النضال:

"قبل كل شيء تختلف الماركسية عن كل الاشكال البدائية للاشتراكية في انها لا تربط الحركة بأي شكل وحيد ومحدد للكفاح، فهي تسلّم بأساليب النضال الاكثر تنوعا. وهي لا تخترعها، بل تكتفي بتصميمها

وتنظيمها وجعل الاشكال النضالية للطبقات الاجتماعية، التي تنبثق عضويا خلال الحركة ذاتها، اشكالا واعية. ان الماركسية المعادية بصورة مطلقة لكل الصيغ التجريدية، ولكل وصفات المذهبيين، تريد ان يُنظر بانتباه الى النضال الجماهيري الذي يجري، والذي تنبثق منه طرائق جديدة دائما، متنوعة اكثر فأكثر، للدفاع والهجوم كلما تطورت الحركة وتقدم وعي الجماهير واستفحلت الازمات الاقتصادية والسياسية. ولهذا السبب فان الماركسية لا ترفض بصورة مطلقة أي شكل نضالي. وهي لا تعتزم بأي حال من الاحوال ان تقتصر على الاشكال النضالية الممكنة والموجودة في لحظة معينة، وهي تعترف بان تغيرا للوضع الاجتماعي سيستتبع حتى ظهور اشكال نضالية جديدة، لا يعرفها مناضلو الفترة المعطية بعد. ومن هذه الناحية تتعلم الماركسية، اذا صح التعبير، من المدرسة العملية للجماهير، وهي أبعد من أن تدعي إعطاء الدروس للجماهير بعرضها عليها أشكالا نضالية تصورها صانعو الاجهزة في غرفة عملهم... وثانيا، فان الماركسية تطالب بصورة مطلقة ببحث مسألة الاشكال النضالية في جانبها التاريخي. فطرح هذه المسألة خارج إطار الظروف التاريخية الحسية، يعني جهل الف باء المادية الديالكتيكية. وفي لحظات مميزة من التطور الاقتصادي ووفقا لمختلف الظروف في الوضع السياسي وفي الثقافات الوطنية وفي ظروف الحياة الخ...، ترتفع مختلف اشكال النضال الى الصعيد الاول وتصبح الاشكال الرئيسية، وبالتالي تتغير بدورها الاشكال الثانوية الفرعية. ان محاولة الرد بنعم أو لا حين تطرح مسألة تقييم وسيلة معينة للنضال من دون أن تبحث بالتفصيل الظروف الحسية للحركة في درجة التطور التي بلغتها، يعني التخلي تماما عن الصعيد الماركسي... هذان هما المبدآن النظريان الاساسيان اللذان يجب ان يرشداننا"[4].

ان تطبيق هذه الموضوعات الاساسية يمكن تجسيده بموقف لينين تجاه الانتخابات والنشاط الثوري في البرلمان البرجوازي. وفي الوقت الذي كانت فيه الثورة الروسية الاولى في صعود عارم كلف القيصر وزيره (بوليغين) بوضع مشروع مجلس تمثيلي ذي حقوق ضيقة، مجلس "دوما استشاري". واقترح (لينين) عندئذ مقاطعة الانتخابات معتبرا بانها ليست سوى مناورة من اجل صرف الجماهير عن الاضرابات السياسية والنضال المسلح. وهذا هو سبب مقاطعة "دوما بوليغين". ولكن حين نظمت الحكومة القيصرية في 1907، في فترة تراجع الثورة الاولى، الى "دوما" الدولة الثاني، اعلن البلاشفة ان من الضروري الاشتراك الفعال في هذه الانتخابات من اجل استخدام منبر البرلمان، من اجل فضح جرائم القيصرية والسياسية التواطؤية للبرجوازية الليبرالية مع الرجعية. وقد اولى (لينين) اهمية كبرى الى عمل النواب البلاشفة الاول في "الدوما".

وخلافا لدعاة العنف المحمومين لم ينادِ (لينين) ابدا بالنضال المسلح مهما كانت الظروف.

ومن المعلوم انه بعد الاطاحة بالقيصر في 1917 اعتبر لينين انه من الممكن الجريان السلمي للثورة الروسية المؤدية الى الاشتراكية. وكان يوجد آنذاك في

روسيا وضع خاص جدا. وكان هناك في الواقع سلطتان. فالى جانب الحكومة البرجوازية المؤقتة شوهد في كل مكان ظهور سوفياتات نواب العمال والجنود والفلاحين. وحين اطلق لينين، لدى عودته من المنفى في سويسرا شعار "كل الحكم للسوفياتات!" لم يكن ذلك، في ظروف ذلك الوقت، دعوة للاطاحة الفورية بالحكومة المؤقتة أو الى شن انتفاضة مسلحة.

ومع ذلك فان الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك الذي كان لديهم الاكثرية في السوفياتات قد فضلوا، بدلا من ان يطالبوا بكل الحكم للسوفياتات، التفاهم مع الحكومة البرجوازية التي دعموها في نهاية الامر ضد الشعب.

وفي مقال بعنوان "بصدد الشعارات"، وهو مقال كتب في أواسط تموز (يوليو) 1917، ذكر (لينين) بان التطور السلمي في الثورة الروسية، ممكن، اعتبارا من 27 شباط (فبراير) وذلك حتى 4 تموز (يوليو)، أي حتى اللحظة التي منح فيها الاشتراكيون الثوريون والمنشفيك في السوفياتات تأييدهم فعلا الى الحكومة البرجوازية، التي اصدرت الامر بإطلاق النار على احدى المظاهرات. وقد قال لينين: "لا يستطيع أي شيء، ولا أية قوة، ما عدا قوة البروليتاريا الثورية، الاطاحة بالثورة المضادة - البرجوازية"[5].

وبعد شهرين من ذلك توصل لينين، الذي كان آنذاك مختبئا والذي كان يتابع بانتباه تطور الاحداث والحالة النفسية للجماهير، الى الاستنتاج بأنه توجد مجددا، ربما لعدة ايام، امكانية التطوير السلمي للثورة. وقد عالج هذه النقطة في مقال بعنوان "بصدد التسويات"، وهو مقال كُتب من 1 الى 3 (من 14 الى 16) أيلول (سبتمبر 1917) ذكّر فيه بمطالب ما قبل تموز (يوليو): "كل الحكم للسوفيات!"، الامر الذي كان يستلزم، بتعبير آخر، تشكيل حكومة من الاشتراكيين الثوريين والمنشفيك، حكومة مسؤولة امام السوفياتات. وقد قال لينين بان وضع هذا الشعار على جدول الاعمال، كان تسوية وقد كتب يقول:

"في هذه اللحظة، وفي هذه اللحظة فقط، وربما خلال بضعة ايام على الاكثر، او خلال اسبوع او اسبوعين، يمكن ان تتكون مثل هذه الحكومة، وان تترسخ بشكل سلمي تماما. ويمكن ان تؤمّن على الاغلب، التقدم السلمي للثورة الروسية، وفرصا كبيرة جدا للتقدم في الحركة العالمية، نحو السلم ونحو انتصار الاشتراكية"[6].

وكان (لينين) يرى بان التطور السلمي للثورة هو امكانية "نادرة الى اقصى حد، وثمينة الى اقصى حد"[7].

وقد قال بالتالي: "ولكن هل لم يعد ذلك ممكنا. ربما. وحتى لو لم تبق مع ذلك سوى فرصة من اصل مئة فان هذه الفرصة تستحق المحاولة".

وفي القسم الاخير من المقال الذي كتب في 3 أيلول (سبتمبر) استخلص (لينين) الاستنتاج التالي:

"ان الايام القليلة التي كان فيها التطور السلمي للاحداث لا يزال ممكنا، تعود هي ايضا دون شك الى الماضي، اجل شيء يثبت بان الامر هو كذلك"[8].

ومع ذلك ففي مقالة بعنوان "مهمات الثورة" الذي نُشر في 26 – 27 ايلول (سبتمبر) (10-9 تشرين الاول/ اكتوبر 1917) ذكر

لينين أيضا: "بعد ان اصبح الحكم بين أيدي السوفياتات نستطيع الآن ايضا، وهذه هي على الاغلب فرصتها الاخيرة، ان تؤمن التطور السلمي للثورة والانتخاب السلمي لنواب الشعب، والنضال السلمي للأحزاب داخل السوفياتات، واختبار برنامج مختلف الاحزاب بالممارسة العملية، الانتقال السلمي للحكم من حزب الى آخر"[9].

ولكن اغلبية السوفياتات التي كان يسيطر عليها الاشتراكيون الثوريون والمنشفيك قد رفضت آنذاك تسلم الحكم. وبدأت الثورة المضادة توطد مواقعها داخل الحكومة. وقذفت بالقوات الروسية المنهكة في عمليات هجوم جديدة ضد الجيش الالماني، منفذة على هذا النحو مطالب الامبرياليين الانغلو- فرنسيين.

وفي مثل هذه الظروف لم تكن توجد امكانية تطوير سلمي للثورة... وفي 8 (21 تشرين الاول/ اكتوبر) كتب (لينين) في "نصائح غائب": "ان نجاحات الثورة الروسية والثورة العالمية تتوقف على يومين او 3 ايام من النضال ويعني انتقال الحكم الى السوفياتات في الواقع اليوم، الانتفاضة المسلحة"[10].

وفي 10 تشرين الاول (اكتوبر) اعترفت اللجنة المركزية للحزب البلشفي، حين وافقت على القرار التاريخي الذي اقترحه (لينين)، بان الانتفاضة قد اصبحت ناضجة ومحتمة.

وفي 14 تشرين الاول (اكتوبر) أصرّ لينين في "رسالة الى اعضاء اللجنة المركزية" على ما يأتي: "... الآن فان تأخير الانتفاضة هو الموت .... ولن يغفر التاريخ التأجيل للثوريين الذين يستطيعون الانتصار اليوم، (والذين سينتصرون حتما)، وقد يفقدون الشيء الكثير غدا، وقد يفقدون كل شيء"[11].

وفي 24 تشرين الاول (اكتوبر) انتقل العمال والجنود، وفقا لإرشاد لينين، الى الهجوم الذي جعله انتزاع الحكم مظفرا. وفي 25 تشرين الاول (اكتوبر) في الساعة العاشرة صباحا صدر النداء الاكثر اختصارا والاكثر روعة، النداء الموجه "الى مواطني روسيا". وجاء في هذا النداء الذي حرره (لينين) بيده:

"ان القضية التي ناضل من اجلها الشعب: اقتراح سلم ديمقراطي فورا، والغاء حق الملكية على اراضي كبار الملاكين العقاريين، والمراقبة العمالية للانتاج، وانشاء حكومة للسوفياتات هي قضية مضمونة. عاشت ثورة العمال والجنود والفلاحين!"[12].

وهكذا يشهد التاريخ بان قبل اسابيع قليلة فقط من تسلم الحكم الثوري كان لينين لا يزال يفكر بإمكانية تطور سلمي للثورة. ولكن في الوقت ذاته حشد لينين والحزب دون كلل، القوى من اجل النضال المسلح. وحين شاهد لينين الثورة المضادة، تستقر في الحكم وتستعد لتصفية السوفياتات، طالب بحزم ان يكرس الحزب البلشفي كل قواه للإعداد للانتفاضة، وان يتولى قيادتها.

وبالنسبة للينين فان العنف الثوري تقرره بصورة عامة ضرورة رد الطبقات المضطهدة (بفتح الهاء) على هجمات وكل ارهاب الطبقات التي تضطهد. وفي الوقت ذاته ناضل لينين ضد الادعاءات الجنونية لأولئك الذين يضعون خططهم "الثورية" دون ان يأخذوا بعين الاعتبار

الجماهير الشعبية. ولم يكن للينين اذن اية صلة مشتركة مع هؤلاء "النظريين" الذين يجعلون من العنف الاسطورة التي يعثر عليها لدى سوريل.

وتستند الاستراتيجية والتاكتيك اللينينيين الى تنوع اشكال النضال الثوري، والى تشاركها، والى الابدال الملائم لشكل نضالي بشكل آخر. وفي الوقت ذاته فان هذه الستراتيجية وهذا التاكتيك يسترشدان بمبادئ متينة وثابتة.

ونحن نعتبر ان من المهم الاشارة الى بعض هذه المبادئ.

1. سياسة الجماهير: كان (لينين) يعتبر دائما ان كل تغيير ثوري لا يمكن ان يكون سوى نتاج نشاطات ونضال الجماهير الشعبية الواسعة وملايين الناس الذين يخوضون نضالا طبقيا ضاريا.

ولدى وصف الوضع الثوري وتحديد ظروفه الموضوعية اشار (لينين) الى العامل التالي: "التشديد البارز .... لنشاط الجماهير التي تسمح بهدوء ان تنهب في الفترات السلمية، ولكن التي تدفعها، في الفترة العاصفة، سواء الازمة بمجملها ام "الذروة" ذاتها نحو عمل تاريخي مستقل"[13].

واضاف (لينين) موضحا هذه الموضوعات: "... لا تنبثق الثورة من كل وضع ثوري بل فقط في الحالة التي يضاف فيها تغيير ذاتي الى كل التغيرات الموضوعية المشار اليها اعلاه. وهذا التغيير هو: القدرة فيما يتعلق بالطبقة الثورية على خوض نشاطات ثورية جماهيرية قوية بدرجة تطفي لتحطيم الحكومة القديمة (تحطيما تاما او جزئيا) هذه الحكومة التي لن تسقط ابدا حتى في عهد الازمات، اذا لم يجر اسقاطها"[14].

وتؤكد تجربة كل الثورات في عصرنا، دون جدال، هذه الموضوعة الاساسية للينين.

2. دور البروليتاريا: منذ بداية نضاله الايديولوجي ضد الشعبيين الذين كانوا يحلمون بامكانية ثورة اجتماعية فلاحية صرفة، ذكر لينين بان الطبقة العاملة مدعوة لان تتطور وان تتعاظم وان تصبح عاملا حاسما. وفي بطرسبورغ علّم لينين ـ نظريا وعملا ـ العمال الطليعيين، خوض المعركة في سبيل المطاليب الاقتصادية بربطها بالنضال السياسي ضد نظام الاضطهاد وبالتربية الثورية للعمال، انطلاقا من مبادئ الماركسية. وفي 1894 انما شرح لينين موضوعة التحالف العمالي والفلاحي، القوة الثورية الموضوعة تحت قيادة البروليتاريا.

وطوال نشاطه الثوري الذي لا يكل اعتبر (لينين) من الضروري دعم المنظمات العلنية وشبه العلنية للطبقة العاملة (النقابات والتعاونيات.. الخ)، وبالاستناد إليها، تعزيز نضال حزب البروليتاريا.

وقد اظهر (لينين) ضرورة تطوير الوعي الطبقي للبروليتاريا من اجل جعله العامل القيادي للعملية الثورية. وقد كتب بهذا الصدد: "ان الوعي السياسي الطبقي لا يمكن حمله الى العامل إلا من الخارج، أي من خارج النضال الاقتصادي، من خارج مجال العلاقات بين العمال وارباب العمل"[15].

وتنبثق من ذلك اعظم مهمة للطليعة الثورية للأحزاب الشيوعية في كل البلدان الراسمالية.

3. العامل الذاتي: اكد (لينين) بأن الظروف الموضوعية لا تكفي بحد ذاتها لتحقيق الثورة مهما كانت ملائمة (استحالة محافظة الطبقات الحاكمة على سيطرتها والتفاقم العنيف للبؤس وآلام الطبقات المضطهَدة) فوجود العامل الذاتي لا بد منه ايضا: تغيير موقف اكثرية طبقة البروليتاريين ووجود حركة جماهيرية عمالية وفلاحية ولا سيما طليعة شيوعية قوية.

ذكر المؤتمر العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية الذي انعقد في حزيران ـ يونيو ـ 1969 ما يلي:

"ان حركة العمال، ونشاطات الفلاحين، ونشاطات الطلاب وفئات اخرى في امريكا اللاتينية، تشهد ان الجماهير الواسعة للقارة كلها تعزز المقاومة ضد فرض مشيئة الولايات المتحدة وخططها العسكرية.

وفي بعض البلدان تلجأ القوى الثورية الى النضال المسلح ضد سيطرة الطغمة والامبريالية. ان المشاعر الوطنية للشعوب والمصاعب الاقتصادية يمكن ان تزعم بعض الحكومات، اتخاذ قرارات هامة ضد الامبريالية، وبهذا ايضا انما يتقرر الاتجاه الى اقامة او الى توسيع العلاقات مع البلدان الاشتراكية، بما فيها كوبا".

ان الاحزاب الشيوعية في امريكا اللاتينية، بما فيها الحزب الشيوعي الكولومبي، تعتبر كشيء ضروري النضال المسلح في سبل تحرير الشعوب من سيطرة الامبريالية الامريكية الشمالية والطغمات الخائنة. لكن الظروف الموجودة في البلدان الامريكية اللاتينية مختلفة جدا، الامر الذي يتيح مثلا للحزب الشيوعي الشيلي، البحث عن حل ثوري جديد باستخدام الانتخابات وحركة الوحدة الشعبية الواسعة التي تستند الى برنامج مشترك، وترشيح ممثل مشترك، لكل القوى المعادية للطغمة والمعادية للامبريالية، الى منصب رئيس الجمهورية.

ان النهج التاكتيكي للحزب الشيوعي الكولومبي، هو جمع لكل اشكال النضال. وهو يعتبر ايضا كل النشاطات المسلحة التي يخوضها الانصار بمثابة عامل الزامي للنضال ضد عنف الطبقات المسيطرة وضد التدخل العسكري لامبريالية الولايات المتحدة. ويرى حزبنا ان النضال الثوري في كولومبيا، يمر عبر كل اشكال واساليب النضال في اطار الظروف الحسية المحلية والوطنية. ويعتبر الحزب حرب الانصار بمثابة شكل من ارفع اشكال النضال الجماهيري. وهذا النضال يمكن باعتقادنا توطيده فقط هناك، حيث يستجيب لأماني الجماهير، وحيث تدعمه الجماهير.

وفي ايار (مايو) 1964 دخلت حرب الانصار في كولومبيا مرحلة جديدة بالرغم من ان الوضع في البلاد لم يكن وضعا ثوريا بعد. وكان ذلك نتيجة للهجمات التي نظمت في مناطق فلاحية واسعة من قبل القوات المسلحة للحكومة، تطبيقا لخطة الحرب "الوقائية" التي وضعتها البعثة العسكرية الامريكية الشمالية. ان الحركة الفلاحية، التي يقودها الحزب الشيوعي، لم تكن تستطيع ان تقف موقف اللامبالاة حين كانت منظماتها وقواعدها تتعرض للهجوم. ولهذا السبب فقد كان يتوجب عليها في بعض المناطق، ان تنظم المقاومة المسلحة، وان تنتقل الى حرب الانصار.

وفي كولومبيا لم تتوقف نشاطات الانصار. ولن تستطيع امبريالية الولايات

المتحدة القضاء عليها بالرغم من كل قوتها. ومع ذلك فان الحزب الشيوعي يرى بان هذه النشاطات ليست اليوم الشكل الرئيسي للنضال بالنسبة للشعب الكولومبي الذي يطور مختلف اشكال النشاطات الجماهيرية. ومع ذلك فان حرب الانصار يمكن ان تصبح الشكل الاساسي اذا استفحل في البلاد الوضع السياسي فجأة، واذا تسلمت الحكم حكومة استبدادية وارهابية، صراحة، وشنت هجوما عاما ضد الحريات الديمقراطية التي احرزها الشعب.

..... ويريد الحزب الشيوعي الكولومبي، على هذا النحو، ان يطبق بكل قواه وفي الظروف الحسية للبلاد ارشادات (لينين). ان الامبريالية الامريكية الشمالية والطغمة الحاكمة في كولومبيا تجمعان بين الديماغوجية، واعمال القمع، والنزعة الاصلاحية والارهاب الرجعي. ويتطلب ذلك من جانبنا تاكتيكا ثوريا ينص على الجمع الصحيح بين كل اشكال نضال البروليتاريا والجماهير الشعبية.

---

* "الوقت"، السنة الرابعة عشرة، العدد ١٩٧٠/٥٠، ص ١٤٠ – ١٥٢.

الهوامش

1 - لينين: المؤلفات، المجلد 4، صفحة 284، باريس – موسكو.
2 - نفس المرجع السابق، صفحة 286.
3 - نفس المرجع السابق، المجلد 9، صفحة 291.
4 - نفس المرجع السابق، المجلد 11، صفحة 215 - 216.
5- لينين: المؤلفات، المجلد 25، صفحة 204، باريس – موسكو.
6- نفس المرجع السابق، صفحة 334 - 335.
7- نفس المرجع السابق ونفس المكان.
8- نفس المرجع السابق، ص 339.
9- لينين: المؤلفات، المجلد 26، صفحة 63.
10- نفس المرجع السابق، المجلد 26، صفحة 182 - 184.
11- نفس المرجع السابق، صفحة 240 – 241.
12- نفس المرجع السابق ونفس المكان.
13- نفس المرجع السابق، المجلد 12، صفحة 217.
14- نفس المرجع السابق ونفس المكان.
15- نفس المرجع السابق، المجلد 5، صفحة 431.

لينين في ذكرى ميلاده الـ 150

بعيدا عن القوالب الجاهزة.. قريبا من نبض الحياة
دور لينين في عام الحريق الثوري الكبير في روسيا عام 1917

د.صالح ياسر

منعا لأي التباس تقتضي الضرورة هنا التأكيد على ان ما يهمنا في هذا المقام هو الاشارة الى ان مهمة هذا المقال ليس مدح أو هجاء الماضي ومحاكمته أو جلد الذات تخلصا من "ذنب ارتكبناه"!!، بل الخوض في عمق الاحداث الفعلية والكشف عن جذورها وأسبابها الحقيقة. وهذا لن يتحقق إلا بالاستناد الى المنهج المادي/ الجدلي/ التاريخي فهو وحده الذي يمكّن من انجاز المهمة وهي دراسة هذه التجربة/ الثورة بعد مرور 103 اعوام على اندلاعها، ودور قائدها (لينين) وحزب البلاشفة في اشعال الفتيل الثوري في روسيا القيصرية ليمتد الى بقاع اخرى في عالمنا المعاصر، وما تضمنته من قضايا صارت على ذمة التاريخ الذي لا يجوز التنكر له أبدا، بهدف استخلاص الدروس المطلوبة لصالح تحقيق بديلنا.

وهذا كله يطرح ملاحظة مهمة لا بد من التأكيد عليها ونعني بها ثورة اكتوبر 1917 والنظام الذي انبثق عنها ومآله، فرغم الاختلاف في تقييم المآل الذي آل إليه النظام المنبثق من ثورة أكتوبر، قلّ من لا يتفق في أن هذه الثورة، علة انها كانت احد اهم احداث القرن العشرين. فقد طبعت بصماتها على الاتجاهات الأساسية لتطور عالمنا خلال القرن العشرين الذي انقضى معظمه في ظل القطبية الثنائية للاشتراكية والرأسمالية. فالمؤرخ الماركسي الراحل أريك هوبزباوم Eric Hobsbawm ختم آخر أعماله بعنوان مثير: "عصر التطرفات"، راسماً صورة القرن العشرين بأنه قرن أكتوبر، القرن القصير الذي ابتدأ، برأيه، متأخراً في 1917، وانتهى مبكراً في 1991، سنة صعود (يلتسن)، مثلما ان القرن التاسع عشر كان قرن الثورة الفرنسية[1].

خلافاً لما يدعيه بعض المؤرخين، جاءت ثورة أكتوبر تعبيراً عن تفجّر تناقضات الرأسمالية في إحدى اضعف حلقاتها، روسيا، وهي لهذا كانت ثورة حقيقية انطلقت من أعماق المجتمع الروسي بمشاركة واسعة من جماهير الفلاحين المسحوقة في الريف والطبقة العاملة النشيطة في المدن وأقسام واسعة من الفئات الوسطى الحضرية.

وبعيدا عن العموميات، دعونا نتتبع مسار الأحداث التي سبقت الثورة للبرهنة على الملاحظة السابقة.

بداية، لا بد من الإشارة الى انه لا يمكن فهم التطورات اللاحقة في روسيا القيصرية بدون فهم الانعطاف الكبير الذي دشنته ثورة 1905 – 1907 بالرغم من عدم تمكنها من إنجاز الهدف الاستراتيجي الماثل آنذاك – الإطاحة بالنظام القيصري. لقد كانت تلك الثورة، الناجمة عن الظروف الملموسة لتطور روسيا التاريخي في مستهل القرن العشرين، ثورة فريدة ولا شك، بيّد أن تفردها لا يجردها من تلك الملامح التي تكررت مرارا في ما بعد. وليست خبرة هذه الثورة واستيعاب فحواها وقفا على تاريخ روسيا في بداية القرن العشرين. فالتوجه الى دراسة هذه التجربة يوفر الإمكانية لفهم العمليات التالية بمزيد من العمق وصياغة تكتيكات صائبة تساهم في بلورة حلول سليمة للمهمات الاجتماعية والسياسية الناضجة.

خلال هذه الفترة كتب لينين ثمانية مجلدات ضخمة منها: "خطتا الاشتراكية – الديمقراطية في الثورة الديمقراطية" و"البرنامج الزراعي للاشتراكية – الديمقراطية في الثورة الروسية الاولى 1905 - 1907"، وخطبه في المؤتمرات الثالث والرابع والخامس لحزب العمال الاشتراكي الروسي ومئات المقالات التي تشمل جميع نواحي النضال الثوري بلا استثناء.

نعود الى ثورة اكتوبر 1917، فقد سبق الانتصار الحاسم للثورة بقيادة حزب البلاشفة وعلى رأسه (لينين)، مجابهات وانتفاضات عنفية ولا عنفية ضد السلطة القيصرية الاستبدادية وضد طغيان الإقطاعيين وكبار الملاكين.

ففي خريف عام 1915 حدث نهوض ثوري في روسيا وراح يتنامى بسرعة، فبعد عام أضرب في العاصمة بيتروغراد 150 ألف عامل. واتخذت الاضرابات طابعا سياسيا شديد الوضوح، كما أن هذه الإضرابات جرت بقيادة المنظمات الحزبية البلشفية. وتطورت هذه الأحداث لتتخذ طابع الإضراب السياسي العام الذي اتخذ طابعا شعبيا عاما وشمل المزيد من الأنصار والمؤيدين في قطاعات عديدة.

ومن جهتها فقد اشتدت الحركة الفلاحية وتجذّر طابعها، الأمر الذي دفع الحكومة الى أن ترسل قواتها الى الريف عشرات المرات خلال عام 1916 فقط لتقوم بمداهمة القرى التي ثارت ضد نير الإقطاعيين والمصادرات الحربية.

وشملت تلك النشاطات الثورية

الريف والمدن الكبرى حيث المحتشدات العمالية، وانبثقت من رحمها مجالس العمال والفلاحين والجنود (السوفيتات) التي كانت تعبيراً مؤسسياً مبتكراً جسّد الديمقراطية المباشرة. واعتبرها (لينين) شكل ديكتاتورية البروليتاريا الخاص بروسيا.

والى جانب ذلك وبالتوازي معه، تركت الحرب الإمبريالية الأولى (1914 – 1918) بصماتها على الاوضاع في روسيا. فقد أدت مشاركة روسيا القيصرية في الحرب العالمية الأولى الى جملة من النتائج من بينها:

- مفاقمة التناقضات الاجتماعية – الاقتصادية والقومية والسياسية في البلاد؛

- تدهور الصناعة فتعطل في سنوات الحرب أربعة آلاف مصنع كبير من اصل حوالي عشرة آلاف، هذا اضافة الى حدوث أزمة عميقة في النقل والوقود؛

- وأدت الحرب الى المجاعة بسبب تفاقم الأزمة التي كانت تطول القطاع الزراعي والريف الذي لم يعد قادرا آنذاك على إطعام المدينة والجيش. علما بأن هذا الجيش الذي كان يقوده جنرالات غير أكفاء قد تكبد خسائر كبرى.

وانعكست هذه التطورات في المدينة والريف على الجيش والقوات المسلحة عموما. فقد اشتدّت النزعة الثورية لدى الجنود والبحارة بشكل عاصف وخصوصا في الجبهة الشمالية وأسطول البلطيق المرتبطين ببتروغراد.

كما ساهم النضال الوطني التحرري، الذي اتخذ أحيانا في آسيا الوسطى وكازاخستان شكل انتفاضات مسلحة، بقسط كبير في النهوض الثوري.

والخلاصة، لقد بيّنت الأزمة الاقتصادية – الاجتماعية العميقة والمتفاقمة باستمرار، وكذلك الوضع المزري الذي شهدته جبهات القتال والانحلال الذي شهدته قمة السلطة الحاكمة أن روسيا القيصرية تقترب من كارثة وطنية عظمى.

عام الحريق الثوري الكبير!

في بداية عام 1917، كان ما يقارب 16 مليون نسمة يخدمون في الجيش، مما أدى الى نقص الأيدي العاملة في الريف، فظلّ زهاء ثلث (1/3) أُسر الفلاحين بلا رجال، وتناقص محصول الحبوب الرئيسية بشكل كبير، مقارنة مع فترة ما قبل الحرب، كما تقلصت مساحة الأرض المزروعة. وبالمقابل تفاقمت المديونية الخارجية لروسيا، ما أدى الى زيادة تبعيتها المالية للدول الأجنبية.

وفي بداية عام 1917 بلغ التدهور الاقتصادي درجة لم تستطع معها الوسائل العادية لتنظيم الاقتصاد الموجودة في حوزة الدولة الرأسمالية، أن تنقذ البلاد من العلّة المزمنة التي أصيبت بها. ولم تكن هناك من وسيلة لإنقاذ روسيا من الكارثة الاقتصادية المحدقة سوى إجراءات ثورية حازمة، تناهض تسلط رأس المال والملكية الخاصة.

ولم يستطع أحد أن يقود الجماهير الرازحة تحت وطأة الاستغلال والتي هبت للإطاحة بحكم الملكية المطلقة، سوى البروليتاريا الروسية التي صقلتها المعارك الطبقية بقيادة حزبها البلشفي وقائده (لينين). لقد كانت الطبقة العاملة في روسيا من اكثر الطبقات ثورية في العالم حتى في احلك ظروف الحرب، فلم يكن هناك من يدانيها في الحركة العمالية من حيث ثراء الخبرة في النضال في مختلف الظروف السياسية. ولما كانت هي اكثر الطبقات مبدئية وثورية، فقد لعبت الدور القيادي بين كل القوى المناهضة للقيصرية والرأسمالية. وأكد (لينين) أن البروليتاريا بحكم دورها الاقتصادي في الإنتاج الضخم، هي الوحيدة القادرة لتكون زعيما لجميع جماهير الشغيلة والمستغَلين الذين تستغلهم البرجوازية وتظلمهم وتضغط عليهم في حالات كثيرة ضغطا ليس بأضعف بل هو اشد من ضغطها على البروليتاريين، ولكنهم غير مؤهلين للنضال المستقل في سبيل تحررهم.

في بداية هذا العام (1917) تنامى إذن هجوم القوى الثورية الديمقراطية بشكل واضح. ففي كانون الثاني/ يناير تجاوز عدد المضربين أعلى أرقام سنوات الحرب ليصل الى ما يقارب 300 ألف شخص. وفي 14 شباط كانت طوابير المتظاهرين تسير وسط العاصمة وهي تحمل شعارات: تسقط الحرب، عاشت الثورة الروسية الثانية!. وبعد عشرة أيام تجاوز عدد المضربين في بتروغراد وحدها 300 ألف شخص. وفي 25 شباط أصبح إضراب عمال العاصمة عامّا، وبدأت الاشتباكات مع قوات الشرطة القيصرية.

وقد كان أحد المصادر الرئيسية لقوة البروليتاريا في روسيا وجود حليف لها تمثل في فقراء الفلاحين. كما كانت الطبقة العاملة تمتلك دعامة جماهيرية واسعة بين صفوف الفئات الكادحة غير البروليتارية في المدن أيضا. فبحلول عام 1917 كان اكثر من 22 مليون شخص من سكان المدن، يشكل الحرفيون والتجار والموظفون الصغار نسبة كبيرة منها. وكان معظمهم يتعرض للاستغلال، ولم تكن حياتهم سهلة وهينة على أية حال.

الأزمة الثورية تنضج على "نار صاخبة"!
روسيا على طريق الثورة البرجوازية الديمقراطية !

كانت الأزمة الثورية تنضج بوتيرة سريعة وعمّت حركة الإضرابات أهم مناطق البلاد الصناعية. كما ظهرت بوادر التمرد الثوري في صفوف الجيش. هكذا كان الوضع السياسي في روسيا قبيل ثورة شباط 1917.

في شباط 1917 اندلعت في روسيا الثورة البرجوازية الديمقراطية، التي دخلت التاريخ كأول ثورة شعبية مظفرة في عهد الامبريالية، مؤججة عمليات الصراع الطبقي التي أدت لاحقا الى انتصار ثورة اكتوبر العظمى.

وفي اليوم التالي بدأ الإضراب السياسي العام يتحول الى انتفاضة مسلحة. وفي هذا اليوم أطلقت قوات الشرطة النار على المتظاهرين ما أسفر عن مصرع العشرات. ورغم تأكيد قوات الشرطة على عودة النظام والهدوء الى العاصمة فقد أدى هذا العمل الى إثارة مقاومة قسم من قوات حامية بتروغراد، وباتت وحداتها تنتقل الى جانب الثورة. وفي مساء 27 شباط انضم الى الجماهير الثائرة 60 ألف جندي. وفي مساء اليوم ذاته أصبحت العاصمة كلها عمليا في أيدي الثوار.

كان لدى الملكية في تلك الأيام قوى فعلية للصراع، تضم الجنرالات والضباط الرجعيون والبوليس والدرك. وحظي القيصر بتأييد الإقطاعيين وقمة البرجوازية التجارية الصناعية. غير أن تناسب القوى الطبقية لم يدع له فرصة للاحتفاظ بالسلطة، ولم يكن بإمكان الحكم الاستبدادي أن يخمد الثورة وأن يخفف مداها بأية إصلاحات.

وفي يوم 27 شباط/ فبراير، تشكلت من ممثلي الأحزاب والتكتلات البرجوازية لجنة مؤقتة لمجلس الدوما، استمرت في محاولاتها لإنقاذ الملكية. وعندما اتضح نهائيا أن على مجلس الدوما أما أن ينحاز الى الثورة وأما أن يقضي على نفسه بالهلاك مع الحكم الاستبدادي أعلن رئيسه قرار اللجنة المؤقتة القاضي بالاضطلاع بتشكيل الحكومة، خوفا من أن يعلن سوفيت بتروغراد نفسه سلطة جديدة.

من المعلوم أن حركة الجماهير كانت قوية الى حد أنها امتلكت بنية تنظيمية خاصة بها، تمثلت بمجالس (سوفيتات) مندوبي العمال والجنود والفلاحين يسندها حراس حُمر مدججون بالسلاح. وهكذا شهدت روسيا منذ شباط 1917 نظام ازدواجية سلطة فعلية. ففي وجه الحكومة المؤقتة التي تقف على رأس جهاز دولة برجوازية في حالة تفكك بطيء كان هناك شبكة من السوفيتات تبني سلطة دولة عمالية يوما بعد يوم.

ولكن عندما اندلعت ثورة شباط وتمت الإطاحة بالحكم القيصري وصعد تحالف الاشتراكيين الثوريين والمناشفة بقيادة الجنرال (كيرنسكي) إلى السلطة، فانه بدلا من أن تسعى تلك الحكومة إلى تحقيق السلام وتوفير الخبز لأبناء وبنات روسيا، سعت إلى الاستمرار بسياسة الحرب وبقيت تتمسك بالأحلاف العسكرية.

وهكذا خابت مجددا آمال الملايين من الجنود الروس الرابضين على جبهات القتال تحت رحمة المدافع وشبح الموت والمرض والجوع، وخاب أملهم في تحقيق الصُلح وذلك بذريعة الدفاع عن الوطن ومقدسات الأمة الروسية!

وفي الوقت الذي كان فيه الصراع على أشده بين الضواري الاستعمارية المتصارعة من أجل حصص البرجوازية في كل من البلدان المتحاربة، من المستعمرات لإعادة تقسيم العالم وفق المصالح العليا للقوى "الظافرة" في تلك الحرب المجنونة، وعندما كانت مختلف الحكومات البرجوازية المتحاربة مصمِمة

على مواصلة الحرب وإلحاق المزيد من الدمار والأذى بشعوبها وكل شعوب العالم الأخرى، قرر البلاشفة بقيادة (لينين) صد بربرية الأنظمة الرأسمالية وحربها الوحشية وإسقاط حكومة الحرب التي كان يقودها (كيرنسكي) لتحل محلها حكومة العمال والفلاحين الثورية. وعلى هذا الطريق قاموا بتجميع القوى ونظموا صفوف الجماهير من جديد، داعين الطبقات الثورية داخل المجتمع الروسي للالتفاف حول البرنامج الثوري للحزب البلشفي.

جدل التكتيك/ الاستراتيجية
تحشيد القوى وخوض المعارك لتحقيق الهدف الاستراتيجي

يساعد تحليل هذه التجربة والخبرة التي تراكمت على فهم جوهر التكتيكات المستخدمة آنذاك لتطوير الثورة وترقيتها والتغلب على الصعوبات العملية التي واجهتها أثناء تحشيد القوى وزجها في معارك متواصلة لتحقيق الهدف الاستراتيجي.

لنعاين كيف جرت التطورات.

في 25 شباط/ فبراير أصدرت لجنة بطرسبورغ لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا (البلاشفة) منشورا جاء فيه "إن أمامنا فترة من الكفاح، ولكن النصر المحقق لنا! على الجميع الانضواء تحت راية الثورة الحمراء... كل أراضي الملاكين العقاريين للشعب! تسقط الحرب! تحيا الاخوة بين عمال العالم اجمع!" وهكذا دوت كناقوس ضخم دعوة البلاشفة للنضال الحازم من اجل الإطاحة بالحكم المطلق. وراح إضراب عمال بتروغراد يتحول الى إضراب عام، ثم الى انتفاضة مسلحة ضد القيصرية.

وفي مساء 27 شباط 1917، انضم ما يزيد على ستين ألفا من جنود حامية بتروغراد الى جانب العمال. وعمّت الانتفاضة في هذا اليوم كل أنحاء بتروغراد تقريبا. وكان هذا اليوم هو يوم انتصار ثورة شباط البرجوازية الديمقراطية.

وهكذا، إذن، كان للتاريخ منطقه الخاص. ففي الأول من آذار/ مارس تحطمت سلطة الحكومة القيصرية نهائيا. وفي ليلة 8 آذار وضع آخر حاكم روسي مستبد توقيعه على وثيقة التنازل عن العرش (ليس بإرادته قطعا). وهكذا سقطت الملكية العاجزة عن مقاومة هجوم الثورة، تحت ضربات الجماهير الشعبية. وهكذا كانت معاول التغيير تدك قلاع النظام القيصري والى غير رجعة ليدخل مزابل التاريخ غير مأسوف عليه.

وفي حديثه عن تكتيك أيام ثورة شباط 1917 أشار (لينين) الى انه التكتيك الثوري الاشتراكي الوحيد الحقيقي. لقد سقطت الملكية المطلقة التي استعبدت روسيا قرونا عديدة. لكنها لم تسقط من تلقاء نفسها كما يؤكد بعض المؤرخين المعاصرين، بل كان من الضروري

إيجاد قوة تيسّر للجماهير إنجاز هذه المهمة وتحويل وعيها العفوي الى فعل منظم. وكانت البروليتاريا الروسية بقيادة حزبها البلشفي وعلى رأسه (لينين) هي هذه القوة التي حركت الجماهير العريضة نحو النضال حتى تحقيق الهدف ومن دون أي تردد ومهما بلغت الصعوبات والتضحيات. وهكذا انتصرت الثورة البرجوازية الديمقراطية في روسيا.

تقررت قضية السلطة في البلاد في الصراع بين معسكرات سياسية كبرى: الملكية القيصرية، البرجوازية الليبرالية والقوى الديمقراطية. ودخل في معسكر الحكم الاستبدادي، الذي كان في حالة أزمة بنيوية عميقة، الإقطاعيون النبلاء وكبار الموظفين البيروقراطيين والضباط.

- كان المعسكر الليبرالي الذي وقف على رأسه حزب الديمقراطيين الدستوريين (الكاديت) يسعى الى السلطة ليس لإنهاء القيصرية، بل كان له هدف آخر يتمثل في دعم النظام الإقطاعي الرأسمالي بملكية دستورية. فقد كان من الملائم تماما للبرجوازية الروسية حدوث انقلاب غير واسع في القصر. ويعني هذا أن المعسكر الليبرالي كان يأمل، عن طريق استبدال قيصر بآخر، تشكيل حكومة يشارك فيها ممثلوه لتحقيق ثلاثة اهداف مهمة:

• السعي للحصول على فرص واسعة لتوظيف رأس المال؛

• وترك الأراضي في حوزة الإقطاعيين؛

• والاستمرار بالحرب حتى تتحقق الأهداف الإمبريالية.

واستنادا الى الملاحظات السابقة يمكن القول بأن المصالح الطبقية للبرجوازية الروسية كانت تتناقض بعمق مع النضال الشعبي من اجل الديمقراطية وضد الحرب، حيث كان هؤلاء الليبراليون يخشون التحولات الديمقراطية مثل خشيتهم من الموت. واستنتج (لينين) من الطابع المعادي للثورة بوضوح، الذي اتخذه مسلك هذا المعسكر، استحالة إنجاز المهام المنتصبة عن طريق التحالف بين البرجوازية والبروليتاريا، ومن هنا أحل محل ذلك فكرة التحالف بين البروليتاريا والفلاحين.

ومن الضروري هنا الاشارة ـ منعا لاي التباس ـ الى ان البلاشفة، وهم يعدون للثورة الاشتراكية، كرسوا جهدهم الرئيسي لبناء تحالف العمال والفلاحين: الطبقتين المستغَلتين. بيد ان هذا لا يعني انهم كانوا غير مكترثين بالفئات والمجموعات الاخرى من المجتمع الروسي.

فمن المعروف ان البلاشفة كانوا دائما قد عبأوا الانتلجنسيا من اجل المساهمة النشيطة في الثورة لأن المصالح الاجتماعية لهذه الشريحة كانت تتشابك بصورة متزايدة مع مصالح الطبقة العاملة. فقام الحزب البلشفي بعمل واسع بين شغيلة الفكر، واستوعب زهرة الانتلجنسيا التقدمية الروسية في صفوفه.

وبالمقابل قام الحزب بالبحث عن حلفاء بين الفئات الدنيا من البرجوازية، واقام صلات سياسية مع جماهير البرجوازية الصغيرة في المدن والقسم الثوري من

البرجوازية. ان الطريق الى الثورة في نظر البلاشفة، كان يكمن في توحيد جميع القوى الثورية وتنشيطها حول برنامج عريض يجسد مصالح اغلبية الشعب.

ولهذا كان البلاشفة متأكدين من ان خطتهم في بناء تحالف شعبي عريض سوف تفضي الى الهدف النهائي. وهنا ينطرح السؤال: لماذا؟

أولا، لأن روسيا، على الرغم من انها كانت متخلفة اقتصاديا، لكنها دخلت مرحلة الامبريالية. وقد عنى هذا انه حدث استقطاب حتمي للقوى السياسية عندما اصطدمت مصالح الغالبية العظمى مع مصالح فئة صغيرة من الطبقات الحاكمة.

ثانيا، لأن المطالب الديمقراطية العامة للشعب لم تكن قد اشبعتها لا ثورة 1905 – 1907 ولا اسقاط القيصرية في شباط 1917. فقد ثارت المعركة حول قضيتين كبيرتين:

- القضية العامة المتعلقة بالارض والحرية والديمقراطية؛
- والقضية الطبقية للبروليتاريا المتعلقة باعادة بناء المجتمع اشتراكيا.

هكذا اذن في حقبة الامبريالية اصبح امتزاج الحركة الديمقراطية العامة بالكفاح الطبقي للبروليتاريا في تيار ثوري واحد، قانونا موضوعيا، اكدته، المرة تلو الاخرى، العديد من الوقائع المعاصرة.

كانت المهمة الحاسمة هي صياغة برنامج سياسي واضح لكي يمكن ضمان وحدة الغالبية الشعبية وانخراطها في الثورة. وكان من الواجب تقديم مقولات المادية التاريخية والاقتصاد السياسي والاشتراكية العلمية بلغة بسيطة ومفهومة في بلاد كانت شبه أمية. وقد نجح البلاشفة في ايجاد كلمات بسيطة مفهومة طرحوا من خلالها جوهر المطالب الاجتماعية والديمقراطية ومصالح الجماهير.

وكانت هذه الكلمات بالنسبة لروسيا ذلك العصر هي:

- السلم الذي تاقت له بلاد عذبتها الحرب؛
- والخبز الذي كان النقص فيه يؤدي الى مجاعة تطوّق عنق البلاد من اقصاها الى اقصاها؛
- والارض التي لم يكن الفلاحون ليستطيعوا ان يتصوروا العيش بدونها.

هذا درس هام من دروس ثورة اكتوبر. وقد تطلب هدفا واضحا، ينطوي على حلول لاكثر قضايا البلاد الاجتماعية حدّة، لتحقيق وحدة شعبية ثورية يعتمد عليها.

- أما المعسكر الديمقراطي فقد وضع أمامه مهمات مغايرة تماما. وقد كانت شعارات البلاشفة تدور حول: جمهورية ديمقراطية، يوم عمل من ثماني ساعات، مصادرة أراضى الإقطاعيين. ومن جهة أخرى فقد كان حزب البلاشفة بقيادة (لينين) هو الوحيد الذي وقف ضد الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918) منذ لحظة انطلاقها، وربط موقفه هذا بالإشارة الى أن المخرج الوحيد من هذه المجزرة هو توجيه كل القوى الديمقراطية والسلاح في كل بلد ضد المسؤولين عن الحرب، أي

الملكيّات والبرجوازية الإمبريالية. ودخل في المعسكر الديمقراطي البروليتاريا والفلاحون، أكثر الطبقات جماهيرية في البلاد، والفئات الوسطى في المدينة والمثقفون الديمقراطيون وبينهم الطلبة.

ازدواجية السلطة... ما العمل؟ مجددا... الحل عند البلاشفة بقيادة لينين

أحدثت ثورة شباط 2017 الديمقراطية ديناميكية سياسية جديدة واصطفافات جديدة وتناقضات جديدة تعبر، جميعها، عن ميزان القوى الجديد. هنا ظهر ازدواج السلطة في كل أنحاء روسيا نتيجة للإطاحة بالقيصرية.

جاء ازدواج السلطة ثمرة أسباب اقتصادية/ اجتماعية/ سياسية عميقة. ولم يكن هذا بحسب (لينين) "سوى مرحلة انتقالية من تطور الثورة، وعندما تعدّت هذه الثورة حد ثورة برجوازية ديمقراطية عادية ولكنها لم تصل بعد الى دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الخالصة" [2].

كانت ثورة شباط البرجوازية الديمقراطية انعطافا ثوريا كبيرا في تاريخ البلاد، حرّك كل فئات المجتمع، واستهوى العمل السياسي ملايين من البشر لم تكن السياسة في الماضي تخطر ببالهم. ولعل هذا يماثل الاوضاع في بلادنا بعد 1 تشرين الثاني/ اكتوبر 2019 وما لعبته الانتفاضة من دور في اجتذاب قطاع واسع من المجتمع فاق تصورات الكثيرين وربما فاجأهم! مؤكدة ما قاله لينين ذات مرّة: " قد تمرّ عقود لا يقع فيها شيء يذكر، وقد تأتي أسابيع تقع فيها عقود". والواقع أنه في خلال الاسابيع الاخيرة التي مضت وتحديدا منذ انطلاق شرارة الاحتجاجات بالاول من اكتوبر 2019 في بغداد، وامتد لهيبها الى محافظات الوسط والجنوب، انقلبت الاوضاع رأساً على عقب، وانفتح الفضاء السياسي مجددا على آفاق جديدة تشي بالكثير. فقد شهدت الحركة الاحتجاجية والحراك الواسع الجديد تحولا مهما ولحظة فريدة في تاريخ البلاد بعد 2003 لترتقي الى مستوى انتفاضة شعبية حقيقية، كما اتخذ هذا التحول والحراك المجتمعي مسارات متعرجة واشكالا مختلفة. وهكذا أعادت الجماهير المنتفضة المعاني إلى الحقل السياسي، محولة النشاطات الاحتجاجية إلى قوة كبيرة قادرة على هز النظام المحاصصي - الطوائفي وإجباره على الاقرار بأحقية مطالب الجماهير الغاضبة رغم مناوراته ومحاولاته في تشويه الحركة الاحتجاجية والتشويش عليها بدمغها بوجود "مندسين" فيها وذلك بهدف تبرير موجات القمع التي مورست ضد نشطائها والجماهير المحتجة عموما. ورغم كل القمع ومحاولات التشويه والضغوطات والملاحقات التي تعرض له نشطاؤها وناشطاتها، فان الاحتجاجات لم تتلعثم، بل امتلكت بلاغتها في التعبير عن غضبها وبلورت شعاراتها ومطالبها العادلة في: تفكيك النظام المحاصصي - الطوائفي ورحيل الحكومة ورئيسها

وتحسين الخدمات ومكافحة البطالة وتوفير مناصب عمل جديدة، والقضاء على الفساد واستعادة الاموال المنهوبة، وتحقيق العدالة الاجتماعية.. والكرامة ... الخ، التي انتهكها النظام المحاصصي/ الطوائفي/ الاثني.

نعود الى روسيا القيصرية. عندما اندلعت ثورة شباط كان (لينين) ما يزال في المهجر (في سويسرا). وقد تطلب الوضع السياسي الجديد من حزب البلاشفة، حل قضيتين مهمتين:

1. التقدير الدقيق للموقف في البلاد؛
2. تحديد استراتيجية وتكتيك البلاشفة في المرحلة الجديدة.

هنا انطرحت مسألة اختيار التكتيكات الملموسة للتعامل مع الوضع الملموس الجديد.

في أوائل نيسان/ 1917 عاد (لينين) الى الوطن. وفي " موضوعات نيسان" كتب قائلا "إن الشيء الأصيل في الوضع الراهن في روسيا، إنما هو الانتقال من المرحلة الأولى للثورة، التي أعطت الحكم للبرجوازية نتيجة لعدم كفاية الوعي والتنظيم لدى البروليتاريا، الى المرحلة الثانية للثورة، التي يجب أن تعطي الحكم للبروليتاريا، وللفئات الفقيرة من الفلاحين"[3].

وقد انطلق (لينين)، وهو يحدد طابع الثورة والقوى المحركة لها، من أن الثورة البرجوازية الديمقراطية في روسيا قد تحققت، وقد تحالفَ الفلاحون مع البروليتاريا لإنجاح الثورة. والآن تم طرح موضوع الثورة الاشتراكية على جدول الأعمال، تلك الثورة التي سيشترك فيها الفلاحون الفقراء فقط كحلفاء للبروليتاريا حيث انه يجب خوض النضال ليس فقط مع البرجوازية في المدينة بل وفي الريف أيضا.

وإذ عمّم (لينين) خبرة الحركة العمالية العالمية وإبداع الجماهير الثوري في روسيا فقد اكتشف شكلا للتنظيم السياسي للمجتمع في فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، الا وهو السوفيتات. وبحسب (لينين)، تعتبر جمهورية السوفيتات من أسمى أشكال الدولة الديمقراطية، بالمقارنة مع شكل الجمهورية البرلمانية العادية. وقد أوضح (لينين) أن جمهورية السوفيتات تخلق للجماهير الشعبية إمكانيات لا حد لها للاشتراك في إدارة الدولة وبناء حياة جديدة.

وقد وضع (لينين) في "موضوعات نيسان" أمام حزب البلاشفة ليس فقط المهام السياسية بل والاقتصادية التي تخدم الموضوع الرئيسي – السلطة، وتسعى الى إنقاذ البلاد من الكارثة الاقتصادية التي كانت قد اقتربت منها روسيا. وقد وضع في هذه الموضوعات خطة محددة على أساس علمي لاستيلاء البروليتاريا على السلطة في روسيا.

في 24 يوليو/ تموز انتهت مفاوضات الكاديت مع ممثلي الأحزاب الاشتراكية بتشكيل الحكومة الائتلافية الثانية. وعلى الفور قامت هذه الحكومة التي أطلق عليها "حكومة إنقاذ الوطن والثورة"

بتطبيق الإعدام في الجبهة، فقد أمر رئيس الوزراء (كيرنسكي) بمنع صدور ونشر الجرائد البلشفية بين الجنود، كما حضر على الجنود عقد الاجتماعات والمؤتمرات واللقاءات. وهكذا قُضي على ازدواجية السلطة لتتركز كلها، مؤقتا، في أيدي البرجوازية المعادية للثورة، وهنا انتهت الفترة السلمية للثورة. وشغل موضوع تكتيك البلاشفة في ظل الظروف الجديدة مكانا رئيسيا وذلك في أعمال المؤتمر السادس لحزب البلاشفة الذي عقد في الفترة 26 تموز حتى 3 آب من عام 1917 في بتروغراد.

الانتفاضة المسلحة على الأبواب
هبوا ضحايا الاضطهاد!

على أساس تحليل ملموس لتطور الأوضاع السريع والعاصف والمحفوف بالمخاطر والاحتمالات المفتوحة، قرر المؤتمر السادس لحزب البلاشفة التوجه الى الانتفاضة المسلحة للإطاحة بالبرجوازية، وأكد الحزب في أحد قراراته على التالي: "لقد اصبح مستحيلا في الوقت الحاضر أن يتم التطور السلمي، وان تنتقل السلطة الى السوفيتات دون صعوبات، حيث أن السلطة انتقلت في حقيقة الأمر الى البرجوازية المعادية للثورة. وليس هناك من شعار سليم يجب أن يطلق في الوقت الحاضر غير شعار القضاء التام على دكتاتورية البرجوازية المعادية للثورة".

حلّ ميعاد التصاعد الثوري الذي كان (لينين) قد تحدث، في وقت سابق عن حتمية حدوثه، أسرع مما كان متوقعا. كان هذا مرتبطا بمقاومة تمرد الجنرال كورنيلوف المعادي للثورة. فرغم اشتراك سبعة وزراء من حزب الكاديت في الحكومة الائتلافية الثانية، ولعبه لدور قيادي فيها، إلا أن البرجوازية الإمبريالية لم تكن راضية عن ذلك. وقررت الإجهاز بضربة واحدة على بقايا الديمقراطية التي اعتبرتها خطرا وبديلا عن سياستها. وقد كانت بحاجة الى دكتاتور، وجدته في شخص الجنرال (كورنيلوف) القائد العام الأعلى الذي اجتذب برجعيته الدوائر الحاكمة.

وقد استطاع البلاشفة وهم ينظمون الجماهير لسحق تمرد كورنيلوف، أن يحققوا تكتيكا فريدا في دعم وحدة العمل، كما استطاعوا القيام بتشكيل جيش سياسي للثورة الاشتراكية. وقد تمكن البلاشفة في عدة أيام من مقاومة طغمة كورنيلوف، أن يحققوا ما كان عسيرا أن يتحقق خلال شهور، لو مضى تطور الثورة في ظروف طبيعية.

في هذه اللحظات حدث انعطاف متميز من نوعه. فقد بدأ الفلاحون والجنود في الابتعاد عن "الاشتراكيين الثوريين" والتحول الى جانب البلاشفة. وأصبح واضحا انه ليس هناك من سلطة قادرة على تطوير الثورة وتعزيز مكتسباتها، غير سلطة العمال والفلاحين الفقراء.

وفي أواخر آب وأوائل أيلول 1917

وخلال مقاومة تمرد كورنيلوف، ساد البلاد وضع ذي خصوصية فريدة.

- فقد ظهر ضعف سلطة الحكومة المؤقتة في المدن والأقاليم، كما اتضح سوء سمعتها.

- وبالمقابل نشطت السوفيتات واللجان.

في هذه الاثناء ظهرت مرة أخرى إمكانية حقيقية لانتقال السلطة الى السوفيتات سلميا. وقرّر حزب البلاشفة أن يستفيد من هذه الإمكانية، حتى يتفادى ضحايا لا مبرر لها. وفي هذا الصدد كتب (لينين) قائلا: "... في سبيل هذا التطور السلمي للثورة، في سبيله فقط – أي في سبيل إمكانية نادرة الى أقصى حد في التاريخ وثمينة الى أقصى حد، إمكانية نادرة – في سبيلها فقط، برأيي، انه في مستطاع ومن واجب البلاشفة وأنصار الثورة العالمية وأنصار الطرائق الثورية، أن يقدموا على مساومة كهذه"[4].

غير أن إمكانية تطوير الثورة سلميا سرعان ما تلاشت، وعاد "المناشفة" و"الاشتراكيون – الثوريون" الذين كانوا على رأس السوفيتات الى التحالف مع البرجوازية.

واستنادا الى تحليل ماركسي عميق للأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة، أدرك (لينين) بوضوح أن روسيا تقترب اقترابا شديدا من الثورة الاشتراكية التي ستقوم بحل التناقضات المعقدة للمسائل الاجتماعية الملحة. وارتبط تعاظم الأزمة الثورية في البلاد بتصاعد ثوري جديد، وامتدت الأزمة الوطنية العامة الى كل أنحاء البلاد.

وكتب (لينين) هنا يقول: (قانون الثورة الأساسي....، يتلخص فيما يلي:

• لا يكفي من اجل الثورة أن تدرك الجماهير المستغَلة والمظلومة عدم إمكانية العيش على الطريقة القديمة، وان تطالب بتغييرها.

• إن من الضروري لأجل الثورة أن يغدو المستثمِرون غير قادرين على العيش والحكم بالطريقة القديمة.

• إن الثورة لا يمكن أن تنتصر إلا عندما تمزق "الطبقات الدنيا" عن القديم، وعندما تعجز "الطبقات العليا" عن السير وفق الطريقة القديمة... ونعني أن الثورة مستحيلة بدون أزمة وطنية عامة تشمل المستغَلين والمستغِلين معا)[5].

اثبت (لينين)، على أساس تحليل عميق للوضع وتطوراته الفعلية، أن الأزمة الوطنية في البلاد قد نضجت وان الظروف المناسبة قد ظهرت لتحويل شعار الإعداد السياسي العام للانتفاضة المسلحة الى شعار الممارسة العملية وذلك في رسالتيه التاريخيتين: "يجب على البلاشفة أن يأخذوا السلطة" و" الماركسية والانتفاضة"[6].

لقد أكد (لينين) جديّة هذا الشكل النضالي وخطورته، وحذّر من التلاعب به. وربط (لينين) نجاح الانتفاضة المسلحة، بالإعداد الجيد والشامل لها، حيث يجب لإنجاحها:

- حشد قوى تفوق قوى العدو بكثير؛

- في المكان الحاسم، واللحظة الحاسمة؛

- وإلا أباد العدو المنتفضين.

وهذه التشخيصات تتمتع براهنية حتى بالنسبة للانتفاضات الشعبية والحركات

الاحتجاجية المعاصرة، ومنها انتفاضة تشرين المجيدة 2019.

كان 25 أكتوبر، يوم انتصار الانتفاضة في بتروغراد، قد دخل التاريخ كبداية لثورة أكتوبر العظمى في البلاد التي فتحت صفحة جديدة في تاريخ البشرية. وتوج الانتصار النهائي في 7 نوفمبر 1917. ثمة ملاحظة ضرورية هنا: انتصرت الثورة في شهر نوفمبر عام 1917 حسب التقويم اليولياني - الميلادي المعروف والمستخدم حاليا - لكنها سجلت تاريخيا في شهر أكتوبر لأن التقويم القيصري - المعمول به في روسيا في ذلك الوقت - كان متأخرا ثلاثة عشر يوما عن التقويم اليولياني، واشتهرت بعد ذلك بـ "ثورة أكتوبر".

الهوامش

1 - أريك هوبزباوم، عصر التطرفات القرن العشرون الوجيز (1917 – 1991)، ترجمة فايز الصباغ، اصدار المنظمة العربية للترجمة ومؤسسة ترجمان، بيروت، الطبعة الاولى، 2011.

2 - لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 31، ص 155.

3 - لينين، موضوعات نيسان – مهمات البروليتاريا في الثورة الحالية. نشر أول مرة في جريدة "البرافدا" العدد 26 في 7 نيسان 1917. ترجمة الياس شاهين، 2004، ص 2.

4 - لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 34، ص 134 – 135.

5- لينين، المؤلفات الكاملة، المجلد 41، ص 69 – 70.

6- لينين، الماركسية والانتفاضة، المختارات في 10 مجلدات، دار التقدم، موسكو، 1977، ص 250 ولاحقا.

لينين حول الأدب والفن

رضا الظاهر

تأسس علم الجمال، كما هو معروف، باعتباره جناحاً من معمار الفلسفة على يد العبقرية الاغريقية أرسطو، واليه يعود الفضل في صياغة أبرز المفاهيم الجمالية في الأدب والفن.

وكان على تاريخ علم الجمال أن ينتظر بروز العقول الألمانية الموسوعية: كانط وفيخته وشيلنغ، ليوسع عمارته الفكرية. ولربما كان هؤلاء العمالقة بمثابة حلقة وسيطة تمهيدية للصياغة الشمولية التي وضعها هيغل في سفره الكبير: محاضرات في علم الجمال، والتي تقع في مجلدين ضخمين لم ينقل منها الى العربية سوى خلاصات بالغة الكثافة.

واستناداً الى هذا الارث، المتمَثّل نقدياً، سعى ماركس (وانجلز بالطبع أيضاً) الى تكريس جانب من نشاطه لقضايا الأدب والفن. ويذكر قراؤه الجادون ملاحظاته النافذة عن الأدب الاغريقي في المقدمة العامة للغروندريسه، فضلاً عن مراسلاته العديدة حول هذه القضايا، اضافة الى رغبته في كتابة بحث خاص عن بلزاك.

وقدم من جاءوا بعد ماركس، ومازالوا يقدمون، الكثير المضيء في ميدان جماليات الأدب والفن. ومن السليم القول إن الماركسية هي، اليوم، إحدى النظريات الجمالية الرئيسة، خصوصاً النظريات الأدبية، وإنه ليس من غير المبرر الاشارة الى أن النظرات الجمالية غيرت، على الدوام، أو على الأقل لفترة طويلة جداً، الطريقة التي تقدمت بها فلسفة الفن والنقد الفني. ولتلك الحقيقة المذهلة علاقة وطيدة بأهمية البعد الجمالي في عمل ماركس. وهي أهمية لا تقع كثيراً في الحدود التقليدية للنظرية الجمالية بقدر ما تقع في جوهر ادراك ماركس للعالم.

فـ (رأس المال) لماركس لا يعد فقط عملاً مزلزلاً في ما يتعلق بالتحليل الاقتصادي، إنما هو، أيضاً، تحفة أدبية غير مكتملة يمكن أن تقرأ عبر بنيتها متعددة الطبقات كعمل ابداعي كلاسيكي. وفي دعوة ماركس رفيقه انجلز الى قراءة قصة (التحفة المجهولة) لبلزاك الكثير من الدلالات. ولعلنا نتذكر، هنا، قول بول لافارج، زوج إبنة ماركس: "تركت رواية بلزاك أثراً هائلاً لدى ماركس، لأنها كانت، جزئياً، بمثابة تعبير عما كان يشعر به هو نفسه".

ويصف الكاتب الأميركي مارشال بريمان ماركس بأنه "واحد من أكثر عمالقة القرن التاسع عشر شعوراً بالألم، مثله مثل بيتهوفن، وغويا، وتولستوي، ودستويفسكي، وإبسن، ونيتشه، وفان غوخ – الذين أصابونا

بالجنون، مثلما أصابوا أنفسهم، لكن عذابهم فجّر كثيراً من رأس المال الروحي الذي مازلنا نعيش عليه حتى يومنا هذا".

ولابد، بالطبع، من ذكر لينين، في هذا السياق، رغم انشغالاته النظرية والعملية، التي لم تتح له تقديم مساهمات بالحجم الذي قدمه بليخانوف. ومع ذلك فان مقالاته عن تولستوي وملاحظاته عن الأدب والفن تنطوي على أهمية منهجية (وهو ما نسعى الى أضاءته في مقالنا هذا).

وبالمقابل يلمع اسم بليخانوف كأول وأبرز ماركسي يمهد لبناء معمار فلسفي في علم الجمال وتطبيقاته. وحسبنا إحالة القارئ الى المجلدين الأخيرين من مختاراته الفلسفية. وما من شك في أن لوكاتش هو المتمم الثري لجهود بليخانوف النظرية.

وقد تعرض الاثنان الى ما يشبه النسيان والاهمال. فالأول (بليخانوف) لم تظهر أعماله باللغات الأجنبية الا أوائل سبعينات القرن العشرين. أما الثاني فقد حوصر كهرطيق. إن مبحثه الموسوم (خصوصية العامل الجمالي) هو احدى القمم البارزة في النظرية الجمالية، المصاغة في إطار الفرضيات الماركسية، وإن كان مسودة أولية في إطار عمل أكبر هو أنطولوجيا الوجود الاجتماعي.

ثقافة لينين الأدبية وتأثيرها على ثورة أكتوبر

عاش فلاديمير إيليتش لينين في فترة تاريخية كان للأدب الروسي فيها دور كبير في نشر الثقافة السياسية بين الروس. فقد كان من الصعب نشر النصوص السياسية صراحة في ظل النظام القيصري. فعلى سبيل المثال كانت مؤلفات الشاعر بوشكين تخضع لرقابة مباشرة من القيصر نيقولا الأول، الذي كان يصر على قراءة العديد من قصائد بوشكين قبل أن ترسل الى المطبعة. ونتيجة لذلك، كان يمنع نشر قسم منها، أو تتأخر طباعة بعض منها، أما الأكثر جرأة بين النصوص فقد كان يمزقها الشاعر الخائف على حياته بنفسه، خوفاً من مداهمة منزله. ولذلك لم يعرف أحد أبداً مصير أبيات الشعر التي أحرقها من مسرحية يوجين أونيغين الشهيرة.

ومن بين الأحداث البارزة في تلك الظروف ذلك الصراع المرير الذي دار بين الناقد الديمقراطي الثوري فيساريون بيلينسكي والروائي نيكولاي غوغول.

وفي مثل هذا الجو من الصراع الفكري السائد في روسيا ولد لينين. وكان والده، رجلا رفيع الثقافة، يعمل في منصب كبير مفتشي المدارس في منطقته، ويحظى باحترام الكثيرين. وكان يجمع أبناءه ظهيرة كل يوم أحد، ليقرأ لهم أعمال شكسبير وغوته وبوشكين. لذلك كان من المستحيل لفرد من عائلة أوليانوف - "لينين" كان اسما مستعارا استخدمه ليخدع الشرطة السرية القيصرية – أن لا يكون قد قرأ أحد الأعمال الأدبية العظيمة تلك.

وأثناء دراسته الثانوية، وقع لينين في حب اللغة اللاتينية. وعقد عليه مدير مدرسته آمالا كبيرة في أنه قد يصبح أستاذا كبيرا وعالما في اللغة اللاتينية. لكن الرياح جرت بما لا تشتهي السَفن، وتدخلت مشيئة التاريخ لتحدد مسارات حياة لينين. غير أن شغف لينين باللاتينية، واستمتاعه بالأعمال الكلاسيكية، لم يفارقه أبدا. فقد قرأ أعمال فيرجيل وأوفيد

وهوراس وجوفينال بلغتها الأصلية. والتهم لينين مؤلفات غوته، وأعاد قراءة مؤلفه (فاوست) عدة مرات، وهو عمل غوته الذي يتعبر الأكثر شهرة في الأدب الألماني، ويضعه كثيرون ضمن أعظم الأعمال في تاريخ الأدب العالمي.

واستثمر لينين معرفته بأعمال الادب الكلاسيكي بشكل جيد أثناء تخطيطه لثورة أكتوبر عام 1917. وفي نيسان من ذلك العام قطع علاقته مع قادة الاشتراكية الديمقراطية في روسيا، ودعا في مجموعة من أطروحاته إلى قيام ثورة اشتراكية في روسيا. وعندما كان عدد من رفاقه المقربين ينتقدونه، كان لينين يرد عليهم مستشهدا بمقولة ميفيستوفيليس بطل رواية (فاوست) لغوته: "النظرية رمادية اللون، يا صاح، لكن شجرة الحياة خضراء !".

كان لينين يعرف جيدا أن معظم أعمال الأدب الروسي الكلاسيكي كانت مرتبطة دائما بالسياسة. وكانت رواية (أوبلوموف)، التي أبدعها إيفان غونشاروف، مثالا على ذلك. لقد أحب لينين هذا العمل الذي صور حياة النبلاء، ملاك الأراضي، الفارغة والتافهة. وجرى الاحتفاء بنجاح الكتاب من خلال إدخاله كلمة جديدة في المعجم الروسي (أوبلوموفية) وقد أصبحت تشير الى تفاهة الطبقة التي ساعدت الاستبداد على البقاء على قيد الحياة لفترة طويلة. وقال لينين في وقت لاحق إن هذا المرض لم يقتصر على الطبقات العليا وحدها، بل أصاب أجزاء كبيرة من البيروقراطية القيصرية وانتقل إلى الفئات الأدنى في المجتمع، حتى أنصار البلاشفة لم يكونوا في مأمن منه. وكانت المرآة التي صنعها غونشاروف تعكس بالفعل حقيقة المجتمع ككل. وفي نقاشاته غالبا ما كان لينين يهاجم خصومه عن طريق مقارنتهم بشخصيات غير محبوبة وأحيانا هامشية استمدها من أعمال الأدب الروسي.

وقد اختلف كتاب روسيا على الوسائل اللازمة للإطاحة بحكم القيصر. فقد دعم بوشكين انتفاضة الديسمبريين عام 1825 التي تحدّت تنصيب القيصر نيقولا الأول. وسخر غوغول من قمع الأقنان قبل أن يتراجع عن موقفه هذا. وكان تورغينيف ينتقد القيصرية لكنه كان يكره بشدة العدميين الذين كانوا يتبنون الإرهاب. وتحولت مغازلة دوستويفسكي مع الإرهاب الفوضوي إلى الاتجاه المعاكس بعد أحداث القتل الرهيبة التي حصلت في سانت بطرسبورغ. أما روايتا تولستوي: (الحرب والسلام) و(أنّا كارنينا)، وهما من أعظم انجازات الأدب الواقعي، فترسمان صورة واقعية للحياة الروسية في تلك الحقبة الزمنية

ما العمل ؟

وأما الكاتب الذي ربما كان له أكبر تأثير على لينين - وفي الواقع، على جيل كامل من المتطرفين والثوريين – فقد كان نيكولاي تشيرنيشيفسكي. كان تشيرنيشيفسكي ابن كاهن، فضلا عن كونه فيلسوفا ماديا واشتراكيا. وألّف روايته الطوباوية (ما العمل؟) في قلعة بيتر وبول في سانت بطرسبورغ، حيث كان قد سجن بسبب معتقداته السياسية. وأصبحت روايته هذه بمثابة الكتاب المقدس للجيل الجديد. ومنحته حقيقة أنه تم تهريبه من السجن هالة إضافية. هذا الكتاب هو الذي جعل لينين

يعتنق أفكارا متطرفة قبل ان يتعرف على أفكار ماركس (الذي كان تشيرنيشيفسكي قد تبادل معه الرسائل). وكنوع من الامتنان والاحترام لهذه الشخصية الجماهيرية والجريئة والشجاعة، فان أول عمل سياسي كتبه لينين ونشر في عام 1902، كان بعنوان (ما العمل؟).

النجاح الهائل لرواية تشيرنيشيفسكي أثار غضبا شديدا لدى الروائيين الكبار وخصوصا تورغينيف، الذي هاجم الكتاب بشراسة. كما شنت حملة هوجاء ضده من قبل نقاد معروفين آنذاك أمثال دوبروليوبوف وبيساريف. كان تورغينيف غاضبا. وحين التقى بتشرنيشيفسكي في أحد الامكنة العامة صاح بوجهه: "أنت ثعبان ودوبروليوبوف أفعى".

وبكل تأكيد كان هناك نوع من الغطرسة الطبقية في مواقف الكتاب المعاصرين نحو تشرنيشيفسكي لأنه شخص من عامة الناس"، وعلى وجه الخصوص، فأن "تولستوي وتورغينيف وصفوه مثل "عثة نتنة ملتصقة برجل نظيف "... وسخروا منه بشتى الوسائل".

وتعود سخريتهم في جزء منها الى شعورهم بالغيرة، لأن موقفهم المتعجرف نال شعبية كبيرة بين الشباب، وولّد أيضا، في حالة تورغينيف، نوعا من العداء السياسي العميق والمتجذر للكاتب الذي أراد أن تحدث ثورة تنتزع الأراضي من الملاكين وتوزعها على الفلاحين.

كان لينين لا يتفق مع آراء البلاشفة الشباب الذين كانوا يزورونه في المنفى، خلال السنوات الثورية بين عامي 1905 و 1917، حول الرواية. وقد غضب عندما أخبروه أن كتاب تشيرنيشيفسكي لا يستحق القراءة. ورد بشكل عنيف على ذلك بالقول إنهم أصغر من أن يقدروا عمق رؤيته. ويجب أن ينتظروا حتى يبلغوا 40 عاما. حتى يفهموا أن فلسفة تشيرنيشيفسكي كانت مبنية على حقيقة بسيطة: أن الحياة قصيرة، ومن هنا يتحتم تحقيق السعادة لكل فرد. لم يكن هذا ممكنا في عالم يهيمن عليه الجشع والكراهية والحرب والأنانية والصراع الطبقي. وهذا هو السبب في ضرورة وجود ثورة اجتماعية. وحينما كان البلاشفة الشباب يتسلقون الجبال السويسرية برفقة لينين كان قد بلغ عامه الاربعين، ومع ذلك، فإن الثورة قد وقعت بالفعل. وسوف يُقرأ تشيرنيشيفسكي الآن بشكل أعمق من قبل المؤرخين الذين يدرسون تطور فكر لينين..

كان الأدب الكلاسيكي المتجذر بعمق في داخل لينين بمثابة حصن يحميه من التطورات الجديدة والمثيرة في الفن والأدب التي سبقت ورافقت الثورة. ووجد لينين أنه من الصعب ادخال الحداثة الى روسيا أو حتى الى أي مكان آخر. وكانت أعمال الفنانين الطليعيين - مایاكوفسكي وفناني المدرسة البنائية الروسية – لا تلائم ذوقه.

وكان من الهراء بالنسبة له أن يخبره الشعراء والفنانون أنهم أحبوا أيضا بوشكين وليرمونتوف، لكنهم ليسوا ثوريين، وان تحدي الأشكال الفنية القديمة وإنتاج شيء مختلف جدا وجديد كان أكثر انسجاما مع البلشفية وزمن الثورة. ولكن لينين كان يرفض ذلك لأنه يعتقد أن هذه الاعمال وببساطة لن تنجح. وكان يتساءل عما اذا كان بامكانهم كتابة ورسم ما

يريدون، ولكن لماذا يجبرونه على تقدير أعمالهم تلك؟ كان العديد من زملاء لينين أكثر تعاطفا مع الحركات الفنية الجديدة. فبوخارين، ولوناشارسكي، وكروبسكايا، وكولونتاى، والى حد ما، تروتسكي أدركوا كيف أن شرارة الثورة فتحت آفاقا جديدة. كانت هناك صراعات وتناقضات داخل الحركة الطليعية أيضا، وكان أحد مؤيديهم في الحكومة هو أناتولي لوناشارسكي رئيس المفوضية الشعبية للتعليم، حيث كانت تعمل ناديجدا كروبسكايا زوجة لينين أيضا. وأدى النقص في الورق أثناء الحرب الأهلية إلى بروز جدالات عنيفة. هل يجب طبع منشورات دعائية أم قصيدة جديدة لمایاكوفسكي؟ وأصر لينين على الخيار الأول. وكان لوناشارسكي مقتنعا بأن قصيدة مایاكوفسكي ستكون أكثر فعالية بكثير، وفي هذه المرة، انتصر رأيه.

وكان لينين معاديا لأية فكرة عن "الأدب والفن البروليتاري"، وأصر على أن قمم الثقافة البرجوازية (وأسلافهم القدماء) لا يمكن تجاوزهم بالصيغ الميكانيكية والقديمة التي تطبق في بلد حيث مستوى الثقافة فيه كان منخفضا جدا الى حد كبير. وليس هناك حاجة الى استثناءات في هذا المجال، وهو ما ثبت بشكل قاطع مع "الواقعية الاشتراكية" الهراء الذي تم تبنيه في السنوات السيئة التي أعقبت وفاة لينين فقد تم خنق الإبداع. والقفزة من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية، حيث يسود المنطق والعقل طريقة عيش الناس، التي لم تتحقق أبدا لا في الاتحاد السوفييتي ولا في أي مكان آخر.

مواقف لينين وتقييمه للعمل الفني

في حركة سجالنا مع الآخرين علينا، كماركسيين، أن ندخل في جدل متطلب مع أنفسنا أيضاً، مع مفاهيمنا و"قناعاتنا"، مفترضين أنها لا يمكن أن تكون ثابتة، وإنما متجددة على الدوام، وإلا تحولت الى يقين، وبالتالي تعارضت مع منهجنا الماركسي، الذي يضع فكرنا موضع التساؤل، في إطار عملية تكونه وتجديده. وعلينا أن نمارس سجالاً نقدياً مع صياغات وتحولات النظرية التي وضعها نقاد ماركسيون في مراحل عدة من تكوّن هذه النظرية بتحولاتها وتعثراتها، معترفين بأن الجديد لا يبدأ من الصفر وإنما مما هو قائم.

ولعله من بليغ الدلالة أن نورد هنا رسالة لينين الى لوناتشارسكي عام 1908 وهي من بين أهم رسائله حول الأدب والفن. فقد جاء فيها:

"البارحة بعثت اليك برسالة صغيرة بخصوص برينغمان. والآن أسرع لأجيبك على رسالتك المؤرخة في 11/2.

لا أفهم تماما ما كدرك في رسالتي؟ أليس بسبب الفلسفة؟!

مشروعك بخصوص الباب الأدبي في البروليتاري والعهدة به الى الكسي مكسيموفتش (غوركي) رائع، و يسرني سرورا غير عادي. كان حلمي بالضبط أن أجعل باب النقد والأدب في (البروليتاري) بابا دائما، وأن أعهد به الى أ. م ـ. لكنني كنت أخاف، أخاف لدرجة فظيعة، عرض هذا الأمر عليه بصراحة. فأنا لا أعرف طبيعة عمله (وميوله). إذا كان الرجل مشغولا بعمل جدي كبير وكان توزيع جهده

على أشياء صغيرة كالصحيفة والأدب، سيضر بهذا العمل، فمن الغباء والجريمة أن نحوله عن هذا العمل ونعيقه عنه. إني أفهم هذا الأمر جيدا وأشعر به.

وأنت في موقعك أبصر بالأمر، ايها العزيز. حاول ترتيب الأمور، إذا كنت تعتقد أننا لن نلحق ضررا بعمل أ.م. فيما لو أشركناه في العمل الحزبي المنتظم (وسيفيد العمل الحزبي حتما من ذلككثيرا..)

... أشد على يدك بقوة، وأرجوك ان تخبرني ان كانت قضية مساهمة أ.م. في (البروليتاري) قد سويت. فليبدأ حالا دون انتظار (للمؤتمر) وللاتفاق، إذا كان جوابه إيجابيا".

وارتباطا بذلك ربما توجب علينا أن نستذكر هنا ما كتبه لوناتشارسكي عام 1928 في موضوعاته عن مشكلات النقد الماركسي. فقد جاء في هذه الموضوعات "إننا نؤكد، مرة أخرى، على المستلزمات الاستثنائية التي تتطلبها المرحلة من الناقد الماركسي. ليست لدينا رغبة في إكراه أحد على القبول بموضوعاتنا. يستطيع الناقد الماركسي الانطلاق من بداية متواضعة، وحتى من بداية تعتلج بالأخطاء. لكن عليه أن يتذكر أن أمامه سلّماً شاهقاً لابد أن يتسلقه قبل أن يصل الدور الأول. وحتى بعد ذلك عليه أن ينظر الى نفسه كمبتدئ لا غير..."

ويتساءل لوناتشارسكي: أمن مهمة الناقد، حقاً، أن يقول ما اذا كان هذا الكاتب أو ذاك مشبوهاً سياسياً أو أن لديه أخطاء سياسية ؟ علينا أن نرفض بشدة أمراً كهذا.

فالناقد الذي يستخدم هذا الأسلوب سعياً وراء أغراضه الشخصية، أو ليفتري، بسوء قصد، على شخص آخر هو شخص نذل. وستنكشف مثل هذه النذالة دوماً، عاجلاً أم آجلاً. إنه لناقد طائش وتافه من يقدم، دون تفكير ولا روية، على إلقاء مثل هذه الاتهامات جزافاً. لكن من يشوه جوهر النقد الماركسي بسبب خشيته من الاعلان، جهاراً، عن نتائج تحليله الاجتماعي الموضوعي، إن هو إلا ناقد يفتقر الى روح المسؤولية ويتصف بالسلبية السياسية، على حد تعبير لوناتشارسكي.

ويضيف لوناتشارسكي إنه "ليس على الناقد الماركسي أن يرفع عقيرته بالصياح: "كونوا على حذر !". فليس المراد هنا لفت انتباه الدولة بل القيام بتقييم موضوعي لأهمية هذا العمل أو ذاك في سياق البناء الذي نقوم به. ويبقى على الكاتب، بعدئذ، أن يستخلص النتائج لنفسه ويصحح موقفه. إننا في ميدان لصراع الأفكار هنا. وليس هناك من شيوعي شريف حي الضمير يستطيع أن يتنكر لطبيعة هذا الصراع في مسائل الأدب الراهن وتقييمه".

ويقول "لنتساءل أخيراً: هل السجالات الحادة والعنيفة أمر مرغوب فيه ؟ يمكن القول، عموماً، إن السجالات الحادة ذات فائدة لأنها تساعد على إثارة اهتمام القاريء. إن الروح الجريئة للناقد الماركسي تدفعه الى التعبير عن نفسه بحدّة، لكن من الضروري، في الوقت ذاته، الاشارة الى أن تمويه الناقد على تهافت حججه بالمساجلات البارعة يشكل واحدة من خطايا الناقد الكبرى. وعموماً، حين لا تتوفر حجج كافية، وإنما مجرد خليط من الملاحظات والمقارنات القاسية والهتافات الساخرة والتساؤلات الماكرة، فان النقد قد يترك تأثيراً مرحاً، ولكنه تأثير غير جاد على الاطلاق".

اضاءة في بعض قضايا الصراع

في ما يتعلق بموضوع العلاقة بين الفن والايديولوجيا سادت النظرة التقليدية التي تماثل بينهما عقوداً عديدة. وهي النظرة التي تعتبر الفن انعكاساً للأيديولوجيا. وأدى الموقف الجامد، الذي يقلص تفرد واستقلالية الابداع وفردية وشخصية الفنان، الى التباسات وتبسيطات في فهم جوهر الابداع وتجلياته، والى تخلٍ عن الجماليات الماركسية. وترك كل هذا، شأن التفسيرات الميكانيكية الأخرى، آثاره السلبية الخطيرة على الصلة مع الفنانين واستيعاب نتاجهم الابداعي.

وكان سؤال العلاقة بين الفن والايديولوجيا موضع نقاش واسع. ولكن إحدى الاجابات التي سادت كانت أن الفن مجرد تعبير عن الايديولوجيا المهيمنة. فالفنانون لا يستطيعون رؤية حقيقة مجتمعاتهم لأنهم مأخوذون بـ "الوعي الزائف" للأيديولوجيا.

غير أن فلاسفة ماركسيين نظروا الى العلاقة من منظار آخر بعيداً عن التبسيط. فالفن ليس مجرد تعبير عن الايديولوجيا. وقد أشارت رسالة انجلز الى مارغريت هاركنس الى أنه كان ينبغي على الروائيين الاجتماعيين أن يتجنبوا الانحياز السياسي، ويبدو أنه حتى كتاب الأدب الواقعي الرجعيون يتجاوزون التزاماتهم السياسية، كما لو أن الواقعية ذاتها تضمن لدى المؤلف انفصالا محدداً وقابلية على اختراق بنية مجتمعه وفهم حقيقتها. فبلزاك المؤيد لسلالة بوربون الحاكمة أُجبر، في أدبه، على المضي ضد التعاطف مع طبقته.

ويقبل ألتوسير مناقشة انجلز لكنه يحولها باسناد هذا التعالي الى الفن ذاته لا الى الفنان، رافضاً أن يعامل الفن العظيم باعتباره مجرد آيديولوجيا. ويتفق آخرون مع ألتوسير حول قابلية النصوص الأدبية على تجاوز التعبير المجرد عن الايديولوجيا، وبناء صورة محددة لما هو آيديولوجي، ولكنها صورة تتخذ شكلاً مختلفاً، وربما مخفياً. ويقول ألتوسير في هذا الشأن إن الفن، وهو يعني الفن الأصيل وليس الأعمال المتوسطة أو الرديئة، لا يقدم لنا معرفة بالمعنى الدقيق للكلمة، وبالتالي فهو ليس بديلاً للمعرفة بالمعنى الحديث. ولكن على الرغم من ذلك فان ما يقدمه لنا الفن هو علاقة خاصة بالمعرفة، وهذه العلاقة ليست علاقة تطابق وإنما علاقة اختلاف. ويعتقد ألتوسير أن خصوصية الفن هي التي تجعلنا نرى وندرك، وليس نعرف، شيئاً ما يلمِّح الى الواقع. فالشيء الذي يجعلنا الفن نراه، وبالتالي يقدمه لنا في شكل من الرؤية والادراك والشعور، وليس في شكل من التعرف، هو الايديولوجيا التي ولد منها والتي يستحم فيها والتي يفصل ذاته عنها بوصفه فناً والتي يلمِّح لها، على حد تعبير ألتوسير.

ويميل نقاد الفن الماركسيون الى استكشاف التناقضات في الأعمال الفنية. وهذا يتوافق مع منهجيتهم لأن الماركسية صيغت، أصلاً، لتحليل هذه التناقضات في المجتمع على وجه التحديد. وينظر النقاد الماركسيون الى الفن باعتباره مرتبطاً، على نحو وثيق، بالسلطة الاجتماعية، وبالتالي فان تحليلهم للفن مرتبط بالأسئلة الاجتماعية الأشمل. وبما أن الماركسية

نظام يمكن أن يستخدم لتحليل المجتمع على نحو تفصيلي فان النقد الفني الماركسي هو، في نهاية المطاف، جزء من مسعى أوسع للكشف عن العمليات الداخلية للمجتمع.

وعلى الرغم من أن النقاد الماركسيين فسروا نظريات ماركس بطرق عديدة مختلفة، فانهم، كماركسيين، يعودون، في النهاية، الى عدد من المفاهيم الأساسية: المفهوم الديالكتيكي للتاريخ، تحديد الوجود الاجتماعي للوعي الاجتماعي، العلاقة بين القاعدة والبناء الفوقي.

ومن بين سمات الفن وجود ذلك العنصر الحاسم المرتبط بحرية إرادة مبدعه. فالفنان يبدع اعتماداً على دافعه الخاص ومفهومه الخاص. وقبل أن تجد الأفكار والمواقف الاجتماعية تعبيرها في الفن فانها ينبغي أن تمر عبر مصفاة ذات الفنان، ولعل هذا هو أحد أسباب وهم الحرية المطلقة للفنان.

ونظراً لتعدد الظواهر الفكرية التي تحدد الفن وتعقيدات انعكاسها المتبادل في عملية الخلق فان النتائج الملموسة لا يمكن أن تفرض سلفاً. وتشكل دراسة هذه الحقيقة أمراً جوهرياً لمنع التدخل الاداري في عملية الكشف الفني.

وكان لينين حذراً من أي تماثل مبتذل بين الفن والآيديولوجيا، وعارض المساواة الميكانيكية أو سيادة الأغلبية على الأقلية في الأدب والفن. ولاحظ أنه "في هذا المجال ينبغي أن يُفسح مجال أوسع، دون شك، للمبادرة الشخصية، والاتجاه الفردي، والفكر والخيال، والشكل والمحتوى"، مظهراً زيف تجاهل الطبيعة الخاصة للفن.

وقد اهتمت الأحزاب الماركسية بالإبداع الأدبي والفني، لكن يبدو أن ذلك الاهتمام كان، في الغالب، في إطار تعبير عن الهم والهدف السياسي.

وفي سياق النظرة التبسيطية للابداع نجد تقييماً لمبدعي الأدب والفن ينطلق من التعصب السياسي أو الفكري. فهذا الكاتب جيد لأنه ماركسي، يساري، ثوري، أما ذلك الكاتب فرديء لأنه "برجوازي"، متناسين أن فلوبير، على سبيل المثال، كان أكثر من هاجم الطبقة العاملة وكومونة باريس، لكن ما من أحد يتجرأ على وصف فن مبدع (مدام بوفاري) بأنه رديء، كما أنه ما من أحد يتجرأ على اتهام نيرودا بأن فكره السياسي أعاق القيمة الفنية لعمله الابداعي.

وكان هناك احتكار للحقيقة، وكانت حقيقة السياسي واحدة. فجرى تفسير الواقعية الاشتراكية، مثلا، لكي تعني، في التطبيق العملي، واقعية "الدولة"، وعلى وجه التحديد، الدولة الاستبدادية. وكانت مهمتها أن تنسجم مع الحاجات اليومية والمتطلبات السياسية المباشرة. وصار تعريف الواقعية الاشتراكية "الجدانوفية" أداة للتدخل الفج والعاجز في الفن. ونتيجة لذلك عومل باسترناك باعتباره "كلبا نابحاً"، واتهم شوستاكوفيتش بتأليف "التشوش بدل الموسيقى"، ولعنت أخماتوفا باعتبارها "ممثلة المستنقع الأدبي الرجعي المحرم آيديولوجياً". وكان كافكا وبروست وجويس غرباء، فيما كان العشرات من كبار المبدعين مجرد "برجوازيين".

وعلى أن الواقعية الاشتراكية أصبحت، كمنهج، جزءاً من تاريخ الثقافة الابداعية، غير أن إلقاء أضواء على مصائرها يقدم لنا صورة عن الالتباسات المرتبطة بالموقف التبسيطي من حرية الابداع واستقلاليته النسبية والخلل في فهم وظيفة الفن.

فقد رأى البعض أنه اذا جاز للمرء أن يتحدث عن "واقعية اشتراكية"، فربما جاز له، أيضاً، أن يتحدث عن "واقعية رأسمالية".

والحق أن الواقعية الاشتراكية، حسب ما نرى، ليست مصطلحاً جمالياً أو أخلاقياً، وإنما مصطلح آيديولوجي وسياسي، سعى البعض الى قسره ليشكل جوهر الفن، في حين أن هذا الجوهر لا يمكن إلا أن يكون أكثر اصالة وغنى وأهمية وأعمق روحياً، ناهيكم عن أنه من الصعب تصور أن منهجاً ابداعياً معيناً يمكن أن يشكل جوهر الفن.

واذا كانت الواقعية الاشتراكية بالنسبة لبعض الماركسيين واحداً من مناهج عديدة في الفن، فانها كانت المنهج الوحيد بالنسبة للماركسية السوفييتية، أو أن هذه كانت النظرة الرسمية في الأقل. وكان هذا أحد تجليات احتكار الدولة لا للاقتصاد والعلم حسب، وإنما للثقافة الابداعية أيضاً.

وهكذا فانه في الماضي غير البعيد كان مؤلف كتاب لا ينتمي الى الواقعية الاشتراكية مؤلفاً منبوذاً، لأنه لا يحمل الماركة التجارية التي كانت، وحدها، جواز مرور للدخول الى عالم الفن. وهذا، في الواقع، جزء من منهجية المصطلحات التي تتحول الى معايير جامدة يقاس بموجبها كل شيء.

ولعله من الطريف أن نتذكر هنا شخصية ماديا روف في رواية فاسيلي غروسمان (الحياة والمصير) الذي يقول: الواقعية تشبه مرآة سحرية في الحكاية الأسطورية الشهيرة حين تسأل من قبل الحزب والحكومة "أيتها المرآة، أيتها المرآة التي على الجدار، من هو الأفضل بيننا جميعاً ؟ فتجيب: "أنت أيها الحزب، وأنت أيتها الحكومة الأفضل بيننا جميعاً".

وهكذا تحولت نظرية وممارسة الواقعية الاشتراكية الى تفسير للواقع مفعم بالاستسلام للعبودية، والى علم مستقبل وردي يتعين عليه أن يكتشف موقع الجنة في يوم قريب.

إن إقحام أي إنسان في إطار تعريف معين مسألة تنفي الفكر الحي. ولعل أحد مثالب تعريف الواقعية الاشتراكية أنه يضع الفكرة فوق الصورة. والحق إن علينا أن ننطلق من طبيعة الفن في تحديد حالة الأمور، ونستوعب النتاج الابداعي ضمن الاتجاه السائد للفن الأصيل. فالفنان الصادق هو دائماً مع التقدم، ومع المثال التقدمي بالمعنى الواسع للكلمة. ولا يمكن لفن لا مزية جمالية له أن يكون فناً تقدمياً، كما أن عملاً فنياً أصيلاً لا يمكن أن يكون مناهضاً للتقدم.

ولعل من المفيد أن نسوق هنا حادثتين بليغتين.

فقد نَقَل رئيس لقسم الأدب والفن في صحيفة (برافدا) السوفييتية معلومة بشأن خشية ستالين من غوركي قائلاً: أخبرني منضد حروف قديم أنهم نشروا عام 1936 تقارير حول شباك صيد السرطان بدلاً من المعلومات عن اعتقال "أعداء الشعب" في نسخة من (برافدا) طبعت خصيصاً لغوركي، الذي لم يُخدَع بهذا النوع من التمويه طويلاً.

أما الحادثة الثانية فهي الحوار الذي جرى بين القاضي فيشنسكي والمتهم بوخارين أثناء محاكمات موسكو الشهيرة عام 1937:

"فيشنسكي: لا أستجوبك عن محادثاتك بشكل عام، بل عن هذه المحادثة.

بوخارين: إن منطق هيغل يعتبر "هذه" من المسائل الأكثر صعوبة.

فيشنسكي: أرجو من المحكمة أن تشرح للمتهم بوخارين أنه ليس هنا بصفة فيلسوف، بل بصفة مجرم، وأنه من الأفضل له أن يمتنع عن الحديث عن الفلسفة الهيغلية".

هكذا تحول بوخارين من "محبوب الحزب" و"المثقف اللامع" و"المنظر الموهوب" الى "حرس أبيض جاسوس، مخرب، عميل، خائن".

لقد كانت الحرية، منذ ولادتها كمشكلة فنية، موضع خلاف بين قوى التقدم والتخلف في ميدان السياسة والفن، وفي الصراع الحاد بين الموقف الديالكتيكي والموقف الميتافيزيقي في الجماليات.

وأخيرا يتعين علينا القول إن الجماليات الماركسية تنبع من اعتقاد الماركسيين بأن فهماً حقيقياً للفن ممكن عبر فهم شامل للنظرية الماركسية. ووفقا للمُنظِّر الماركسي الفرنسي لويس ألتوسير فان "السبيل الوحيد الذي يجعلنا نأمل أن نصل الى معرفة حقيقية للفن، وأن نتعمق في خصوصية العمل الفني، وأن نعرف الآليات التي تخلق "التأثير الجمالي"، هو، على وجه التحديد، أن نقضي وقتاً طويلاً، وأن نولي الاهتمام الأعظم بالمبادئ الأساسية للماركسية".

ويمكن للمقاربة الماركسية في تعميق تقييم وفهم العمل الفني، الكشف عن السياق التاريخي لانتاجه، وعلاقة العمل الفني أو الفنان بالمجتمع. والفن، شأنه شأن أي نشاط انساني آخر، يخلق، دائماً، في سياق تاريخي اجتماعي محدد، وهو ما يترك أثره على العمل الفني نفسه. وهذا هو السبب الذي يجعل الماركسيين يجادلون بأن المرء يمكنه أن يبدأ بتقييم وفهم العمل الفني عبر معرفة علاقته بظروف الخلق.

املؤوا فراغ لينين *

بقلم: ميمو بوركارو**
ترجمة: رشيد غويلب

تطور اليسار الخفي

من الصعب إنكار أن معظم الاستراتيجيات المناهضة للرأسمالية في القرن العشرين تقريبا كانت تتميز بتطورية Evolutio-ist قوية خفية. بغض النظر عما إذا كانت مرتبطة بسلطة الطبقة العاملة المضادة، أو الديمقراطية الجذرية (التشاركية في ما بعد) او الاقتصاد الاجتماعي - فهي تفترض، بطريقتها الخاصة رأسمالية ماثلة للموت، موت بسبب سم الازمة التاريخية البطيء أو بسبب العلاقات والعوامل الجديدة التي يخلقها تطورها. ومن المثير للدهشة أن هناك أوجه تشابه إستراتيجية بين الستالينية المعتدلة في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، وديمقراطية "الكثرة": في كلتا الحالتين - هنا من خلال العلم والمركزية، وهناك من خلال التواصل والتنسيق، يبدو أن الرأسمالية، وارتباطا بالانتاج الاجتماعي العالي، أصبحت غلافا شكليا.

والآن يمكن للمرء، في قمة هذه التنشئة الاجتماعية، ان يخدع نفسه، بامكانية التصالح مع الرأسمالية، مفترضا نشوء علاقات شيوعية بداخلها، ان جاز التعبير، وانه بالاستطاعة العمل على اثبات تدريجي لما هو قائم. أدرك (توليياتي) من موقعه كزعيم للحزب الشيوعي الإيطالي، أن هذا

ميمو بوركارو

التطور يجب أن يكون مصحوبًا بإنشاء مؤسسات سياسية وثقافية وجماعية تختلف اختلافًا جوهريا عن تلك التي أنشأها الرأسمال: الحزب الجماهيري، ومنظمات المجتمع المدني والبلديات الحمراء، في إيطاليا. لقد عشنا على هذا الإرث وهياكله لفترة طويلة، وان انتقدنا أصوله ونتائجه على النحو المطلوب.

منظرو الكثرة Multitude مثل مايكل هارت وأنتونيو نيغري، يعتقدون أن هذه المؤسسات تحقق بالفعل التنسيق الشيوعي: فبالنسبة لهما، إن المؤسسات التي تنتج فيها وتعيش الكثرة (الجمهور) كافية تماما. ونحتاج إلى دخل أساسي غير مشروط فقط، لنتمكن من الاستغناء عن الرأسمالية. وبالتالي لا ثورة، ولا حتى تطور تلقائي: الكشف فقط عن حقيقة أن المجتمع المنتج قد أحتوى

بالفعل على قوى رأس المال. لكن المؤسف في هذه النظرية، أن رأس المال قد اخضع تماما، وبأقصى الحدود، جميع أساسيات الإنتاج واعادة الإنتاج. في النهاية اصبح التطور في حركة نقد العولمة المعروفة بالفرنسية Altermondialisme (العدالة العالمية) واقعيا. وعلى مدى السنوات العشر الماضية، ميز هذا النهج بشكل صريح أو ضمني العديد من المبادرات السياسية في أوروبا. ويفترض هذا النهج أن الرأسمالية تعبد الطريق بشكل أساسي لخصومها، لأنها تتجاوز الحواجز الإقليمية والمؤسسية للدولة القومية، وبالتالي تجعل تحول عالمي واجتماعي ممكنا. وعلى الرغم من المشكلات الأولية التي تواجهها العوامل الثانوية، فإن تجاوز الدول القومية، وفقا لمنظري "العدالة العالمية" هو فعل تقدمي. إن التحرر من الأشكال السياسية المقيدة والاستبداديّة لاشتراكية الدولة يصبح ممكنا، ويمكن تحقيق بديل جديد اجتماعي وعالمي مباشر وفوري ومُنظم بشكل ذاتي للرأسمالية. وتفترض النظرية أن المجتمع ينتج تلقائيا قوى لتنظيم الحياة بشكل مستقل عن رأس المال والدولة. وبدلاً من الاستيلاء على السلطة السياسية، يجب، وفقا لذلك، تعزيز وتوسيع الإمكانات الداخلية للمجتمع. وبناء على ذلك، فان الهدف هو افراغ سلطة الرأسمال والدولة. وكل هذا يؤدي الى استنتاج مفاده عدم وجود حاجة لتغيير علاقات ملكية وسائل الانتاج المركزية أو ارساء قيادة جديدة للدولة: يتم استبدال الرأسمالية تدريجياً باقتصاد اجتماعي، وتستبدل دولتها بديمقراطية ذاتية متنامية. وليس من الضروري وجود نظرية واعية أو مشروع عضوي لمجتمع بديل. وحتى تجميع القوى الاجتماعية من حين لآخر ليس ضروريا لتحقيق أهداف معينة على المدى المتوسط. فالهدف الاساسي هو نمو الحركة نفسها. وهذه النظرية يمكن أن تؤشر بعض المزايا. ولكن من مفارقات هذه النظرية رفض طرح مسألة الدولة ونموذج عضوي للإنتاج في المستقبل، والاعتماد على استراتيجيات رأس المال الحالي ودولة اليوم، وبالتالي فهي حبيسة ممارسات الحكم الراهنة. ان الأزمة الحالية جعلت هذه الرؤية التطورية للتغلب على الرأسمالية بالية.

ساعة لينين

لقد دقت الازمة مرة اخرى ساعة (لينين). ورسمت عمليا خطا فاصلا. يعيدنا اندلاع الأزمة إلى (ماركس)، و"حلها" الآني، يعيدنا إلى (لينين). وهذا يعني، إنه يقودنا إلى مسألة الطبقات ونضالاتها، وكذلك يضع الدولة في مركز التحليل. وتصور البديل، لا ينحصر في كونه مجرد ترميم لما هو قائم، بل إعلان القطيعة معه. وبدون الامتناع عن اقتراح نموذج جديد متماسك للإنتاج. لا يكفي أن نتحدث عن العولمة والأزمات دون ان نحدد بوضوح ـ في الوقت نفسه (كما فعل الشاب لينين في تحليله الرأسمالية الروسية) ـ الطبقة التي تنظم هذه العملية بدقة، وأي طبقة تقاوم شكل التنظيم هذا، واي نظام اجتماعي بديل يجب تحقيقه، لجعل المقاومة فاعلة. ومع بقاء الطبقات المسؤولة عن الأزمة في السلطة، فإن الاجابات على الأزمة تكون رجعية. ولأن هذه الطبقات ما تزال مسيطرة على الدولة، فإن مثل هذه الإجابات واردة.

وإن مصادرة هذه الطبقات، والسيطرة على الدولة، وكذلك عملية تحويلها، يجعل بداية جديدة ممكنة. بهذه الطريقة فقط، يمكن بناء سياسة اقتصادية بديلة ونظام اجتماعي مختلف. إن إصلاح الأسواق المالية، وإعادة تعريف هيكلية الشركات، وسياسات الموازنة المتسعة الواسعة، والسياسات الصناعية التقدمية، والتحويل الاجتماعي والإيكولوجي للإنتاج، لن تكون مثل هذه المقترحات، والمقترحات المعقولة الأخرى، ولن تكون أكثر من مجرد آراء جيدة أو تبريرات كسولة، إذا لم تكن مصحوبة بتسمية تلك الطبقات، التي تجعلها مستحيلة، وتلك التي تجعلها ممكنة، ويجب تحديد الخطوات اللازمة للهيمنة على الدولة وتأسيس أشكالها الجديدة.

ان للسياسة الثانوية (الفرعية) من الان فصاعدا هدفا مزدوجا. فمن ناحية، يجب تطوير المؤسسات الشعبية وأشكال التنظيم الذاتي والديمقراطية المباشرة أو التشاركية. من ناحية أخرى، يجب أن يكون هناك عمل منسق، يهدف إلى الاستيلاء وإعادة تعريف سلطة الدولة بخطوات ومراحل ملموسة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى وقت متواصل وتراكمي للنمو المطرد للتنظيم الذاتي للمواضيع الشعبية؛ ووقت متقطع ومتغير للتدخلات في الاقتصاد السياسي. هنا الفعل التعاوني، وهناك الفعل الاستراتيجي. ولا وجود للأول دون الآخر. فبدون الأول، لا يمكن معرفة تطور توازن القوى، الذي يجعل الاستيلاء على الدولة والانتاج وتحويلهما ممكنا؛ ولا تنشأ مؤسسات أساسية مستقلة يمكنها التأثير عليه وتغييره على مسافة من الدولة دون اختزال السياسة الاشتراكية بالدولانية (مركزية الدولة). وبدون الثاني، لا توجد موارد سياسية وقانونية واقتصادية، تمكن هذه المؤسسات الشعبية من إقامة نظام اجتماعي جديد، وقبل ذلك، عبور الأزمة.

وبدون التحليل الطبقي والصراع الطبقي وبدون الدولة، لا يمكن التقدم. ويظهر سلوك الطبقات السائدة جيدا، كيف ان الطبقة العاملة تختلف كثيرا عن سابقاتها، وهي مجزأة أيضا، لكنها في الأزمة قادرة على تشكيل كتلة والتركيز بدقة على الدولة باعتبارها الضامن الأخير لبقائها. تذكرنا هذه الأسئلة بأن الرأسمالية لا يتم التغلب عليها عن طريق التطور التلقائي، ولكن عن طريق التكسر - أو بالأحرى سلسلة كاملة من التكسرات، بما في ذلك، تلك التي تؤثر على سلطة الدولة وشكلها. إنه يذكرنا بأن هذا التغلب لا يحدث عن طريق تطوير إمكانات حالة قائمة، بل عن طريق خلق حالة جديدة غير قائمة من قبل.

العودة الى لينين وليس الى اللينينية

ما ينبغي أن يثير اهتمامنا هنا بشأن لينين هو أسلوب التفكير والتعامل الذي يمكن تلخيصه باعتباره تغييرا مستمرا وثابتا بالنسبة للوضع القائم. الاسلوب اللينيني يعني إعادة دراسة مستمرة لوضع معين استنادًا إلى ديناميات الصراعات الطبقية والمسافات التي تفتحها أو تغلقها من وقت لآخر لنشاط الحركات الثانوية. ومن هنا فان اللينينية حركة مستمرة من التصدعات وفي داخلها في مقابل تلك القناعات، التوجهات السياسية واشكال التنظيم، التي نضجت في التشكيل السابق، والمثقلة بتكرار مشاكلها

وحلولها، وبالتالي تبقى حبيسة العلاقات الطبقية القديمة. وهذا هو جوهر مفهوم الحزب عند لينين. الفكرة الأساسية التي تعمل باستمرار على تطوير ردود الفعل البسيطة والمباشرة للحركات والحزب نفسه بطريقة، بحيث يكون من الممكن فهم العلاقات المتبادلة بين جميع الطبقات والدولة، وبالتالي أيضا فهم التغيير المستمر في هذه العلاقات، في النهاية، لتحقيق هدف شيوعي يكون باستمرار مادة لعملية إعادة تعريف مستمرة.

ان تغييرا مهما في المجتمعات الرأسمالية الغربية يكمن في التحول من "الرأسمالية الشاملة"، التي يعاد فيها توزيع فتات الأرباح، إلى "رأسمالية صفرية"، يكون فيها ربح أحدهم خسارة للآخرين. ويجري تأمين الأرباح، اما من خلال المزيد من خفض الأجور أو (بشكل متزايد) بواسطة نهب الموارد التي سبق أن اعادت دولة الرفاه توزيعها على العمال. وأهمية هذا التغيير لا يمكن المبالغة فيها. ولا يمكن الكف عن تأشير اهمية هذا التحول. لقد غيّر بالكامل السيناريو، الذي نشأ في ظله النشطاء السياسيون المعاصرون وشكل قناعاتهم ومصالحهم وقيمهم. حتى وان كان هذا التغيير تدريجيا، مترددا وبطيئا (في الواقع غالبا ما يحدث بطريقة فضة وواضحة)، وبهذا يقوض بشكل متزايد كفاءة نظام تحكم، تجاوز نشر وتفصيل وتطوير جميع الاتفاقات المهتزة بين الأحزاب والنقابات والدولة. مشهد السلع الجذاب وغير المنقطع الذي نشهده منذ عقود. ان إغراء فوبيا الاستهلاك يتوافق مع الثراء الخادع، ولكن ليس مع الإفقار الحقيقية. ويصبح غير فعال عندما يجد الذين اعتادوا على الرغبة في كل شيء، أنفسهم في حالة لم يعد بإمكانهم الحصول على أي شيء. ان اساس الإجماع الجماهيري في المجتمعات الغربية يصبح في جوهره هشاً. إن الفصل بين المستهلكين والبضائع سيزيد من تفاقم وتيرة انفصال الجماهير عن الأحزاب وبالتالي عن الدولة - وهذا هو الشيء الحقيقي الجديد في الوقت الحاضر. ومع ذلك، يسهل هذا أيضا المشاركة في سياسة جديدة.

عودة الاسلحة الثقيلة

لم يمض وقت طويل على استراتيجية (غرامشي) في المجتمعات الغربية المعروفة بهيمنة الأقوياء "نظام القلاع والحصون"، التي ربط فيها بين الدولة والمجتمع المدني خارجها: المدارس، جهاز دولة الرفاه والإنتاج الثقافي، وكذلك المصانع ومجمعات العمال السكنية، التي تم في السبعينيات (من القرن العشرين – المحرر) اختراقها، وأحيانا غزوها. لقد تم تفكيكها وتقطيعها عن طريق الخصخصة ورفع القيود واللامركزية وتحويل الإنتاج الثقافي إلى شركات رأسمالية. ومنذ السبعينيات، لم تعد الرقابة تمارس من قبل مؤسسات متينة، بل من خلال تدفقات مالية، سلع على هيئة صور واتصالات تبدو غير قابلة للتحكم. وفي الواقع هذه شبكة يتم فيها احتواء أجزاء كبيرة من الذكاء الاجتماعي اليوم، وبالقدر الذي يتصورون فيه أن العلاقات الحرة والمتساوية في بعض الأحيان على شبكة الإنترنت (والتي يتم ربطها فعليا من خلال شركات التواصل) ستعوض عن

نمو التفاوتات الحقيقية. ولكي نفهم هذا التغيير في الاستراتيجية، يتعين علينا فهم نموذجين للثورة كانا منتشرين في إيطاليا؛ النموذج الأول، يأتي من تفسير تدريجي لملاحظة (غرامشي) بأن إدارة "المؤسسات الوسيطة"، والتي تختلف عن الدولة ولكنها مرتبطة مباشرة بها، لها أهمية كبيرة بالنسبة للرأسمالية: المدارس، والجهاز الثقافي والديني، وهياكل اعادة الانتاج الاجتماعي، وكذلك المصانع كأماكن للتربية الاجتماعية. يجب الهيمنة على هذه المؤسسات الوسيطة في "حرب مواقع" طويلة قبل أن يستسلم "مقر القيادة" أي سلطة الدولة والسلطة السياسية العامة للدولة. وفي التفسيرات التدريجية، تحل الهيمنة على مؤسسات المجتمع المدني، محل الهيمنة على السلطة السياسية بواسطة الدولة. النموذج الثاني، هو ما بعد الفوردية ويستند إلى فكرة "المجتمع السائل" (غير المستقر) الذي أصبحت فيه جميع العلاقات الاجتماعية متحركة وغير منتظمة (غير واضحة) على حد سواء دون سيادة احداها، بحيث يختفي "مقر القيادة" بالكامل. ونتيجة لذلك، لم تعد مشكلة كيفية الهيمنة عليها قائمة. وفي رأيي يتم اليوم استبدال "حرب المواقع" بـ"حرب الحركة". مع تعميق الأزمة، لم تعد التدفقات كافية للحفاظ على السيطرة، وتعود الطبقات الحاكمة إلى الأدوات القديمة للإكراه الاقتصادي والقرارات الاستبدادية، التي لم يتم التخلي عنها بالكامل. ان كل من ظن أن ظهور التدفقات المالية كان بداية تفكك السلطة كان مخطئا تماما. لان الاخيرة يتم ترتيبها من قبل مؤسسات مخيفة ومستقرة تفكر وتعمل استراتيجيا: جهاز الدولة العمودي والشركات الكبيرة. وحتى إذا كانت الحكومات والوكالات والشركات فوق القومية لا تزال تستخدم "القوة الناعمة" للتدفقات، فهي تعود الآن وبدون قيود الى "القوة الصلبة"، الاسلحة الثقيلة للابتزاز الاقتصادي والعنف السياسي، لانها تفضل اشكال نشاط الطبقات المهيمنة في زمن الأزمة.

اللحظة اللينينية

وفي النهاية، ليست قلاع المجتمع المدني هي التي يجب احتلالها، ولا يتعين علينا أن ندعي امكانية التزحلق على امواج الرأسمالية حتى ينتهي الأمر بالشيوعية. وبدلا من ذلك يجب الاستيلاء على المقرات القيادية للرأسمال الرئيسة. والوصول الى هناك يشترط العديد من المراحل والخطوات، تتخللها فواصل، وعمليات توحيد، واقتراحات للمستقبل. ان "ساعة لينين" لا تعني عودة لينين لنا، ولا عودتنا إليه. هي بالأحرى عودة الى "لحظة لينين"، تشبها بلحظة مينسكي (اقتصادي امريكي 1919 - 1996 عاد الاهتمام به خلال ازمة 2008 - المترجم) لقد عاد حضوره في وقت لا تتوفر فيه الكثير من الظروف، التي كانت قائمة في زمن قائد البلاشفة. يمكن القول إن كل الإجابات المنفردة التي أعطاها لينين على اسئلة الإمبريالية - الطبقة، ديكتاتورية البروليتاريا، الشيوعية - لم تعد كافية. لكن كل أسئلته لا مفر منها. لذلك تعود مسالة الحزب ثانية الى الواجهة. كان مطلب لينين الأساسي دائما هو التمييز بين

طريقين للنضال: الأول يبقى ضمن منطق إعادة إنتاج رأس المال، والثاني هو تطوير الظروف التنظيمية والثقافية والسياسية للتغلب عليها. ويطرح ايضا السؤال بشان الموضوعات الاجتماعية التي يمكن ان تتولى "الوظيفة اللينينية". ان مجموعات القيادة النشطة الحالية نشأت في وقت التطور، أي وقت التكيف، والخطابة الشعرية والممارسة الميكانيكية، والسذاجة والتخبط خلال فترة التعددية، التي لم تُفهم على أنها وسيلة لتطوير الأفكار المحددة، ولكن كمجموعة غير محددة من التأكيدات المتناقضة. نحتاج اليوم إلى مجموعات قيادية متماسكة نسبيا، قد تنتكس أحيانا الى الأوليغارشية أو شبه الاستبدادية، ولكن يجب أن تتعاون وتتنافس مع بعضها البعض من أجل الهدف المشترك للاشتراكية التعددية. إن ممثلي الوظيفة اللينينية هم أولئك الذين يحلون دائما الأشكال السياسية بهدف خلق ظروف أفضل للتحرر، وبهذا المعنى فإنهم أفضل منتقدي السياسة لأنهم يضعون كل شيء تحت معيار التحرر.

*** نشرت في عدد نيسان ٢٠١٣ من مجلة روزا لوكسمبورغ الصادرة عن مؤسسة روزا لوكسمبورغ الالمانية.**

**** ميمو بوركارو: (١٩٥٣ ـ) كان منظر حزب اعادة التأسيس الشيوعي الايطالي. وكمثقف عضوي، اكتسب لعقود خبرة في أجهزة الدولة والحركات الحزبية في إيطاليا. يركز عمله على مشاكل الشكل السياسي للحركات الطبقية والحركات التحررية.**

المراجع

Candeias, Mario, 2010: Passive Revolution vs. sozialistische Transformation, Berlin, www.rosalux.de/fileadmin/rls_uploads/pdfs/rls_papers/rls-paper-Candeias_2010.pd

Gramsci, Antonio, 1991–2002: Gefängnishefte, 10 Bde., hgg. v. K. Bochmann, Wolfgang Fritz Haug und Peter Jehle, Berlin-Hamburg

Grasberger, Lukas, 2012: Bewaffnet mit Würsten, in: ver.di Publik 5/2012, publik.verdi.de/2012/ausgabe-05/spezial/jugend/seiten-20-21/A0

Juberías, Luis, Edgar Manjarín, Quim Cornelles, Ayoze Alfageme und Celestino Sánchez, 2012: Zwei Jahre Mobilisierungen. Perspektiven eines demokratischen Bruchs in Spanien, in: LuXemburg 3/2012, 126–31

Porcaro, Mimmo, 2011: Linke Parteien in der fragmentierten Gesellschaft, in: LuXemburg 4/2011, 28–34

Rehmann, Jan, 2012: Occupy Wall Street – eine gramscianische Analyse, in: Das Argument 300, 54. Jg., 897–909

Wainwright, Hilary, 2012: Griechenland: Syriza weckt Hoffnungen, in: LuXemburg 3/2012, 118–25

لينين في قرن

سيرج حليمي**
ترجمة: طه رشيد

الاتحاد السوفيتي

ان اسم اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، لا يشير في البداية إلى الأرض بل إلى فكرة "الثورة العالمية"، التي ستكون حدودها حدود الانتفاضة التي انتصرت في روسيا، ولها حدود في أماكن أخرى. في الزاوية العلوية اليسرى من العلم الأحمر الضخم، يرمز المنجل والمطرقة إلى الدولة الجديدة، التي سيكون أول نشيد وطني لها، نشيدا امميا.

مؤسس الاتحاد السوفيتي

مؤسس الاتحاد السوفيتي هو بلا شك لينين الذي عاش جزءا كبيراً من حياته في المنفى باعتباره ثورياً محترفاً (ميونيخ ولندن وجنيف وباريس وكراكوف وزيوريخ وهلسينسكي ...). وشارك، تقريبا، في جميع المناقشات الكبرى للحركة العمالية. عندما عاد إلى روسيا في أبريل 1917، حيث اندلعت الثورة للتو وتنازل القيصر، كان قطاره يعبر الأراضي الألمانية في ذروة الحرب العظمى، كنا نسمع حينها أغنية La Marseillaise (الاغنية الفرنسية المارسييز اتخذت، منذ ذلك الحين، كنشيد وطني لفرنسا.. المترجم)، التي تجسد لرفاقه معالم الثورة الفرنسية.

من نواح كثيرة، هذه الإشارة أكثر حضوراً من تاريخ روسيا القيصرية في نصوص لينين. ولكي يفعل ما يفعله اليعاقبة (حركة اليعاقبة (Jacobitism) نسبة إلى جيمس (بالعربية: يعقوب) كانت حركة سياسية في بريطانيا العظمى وايرلندا تهدف إلى إرجاع الملك الكاثوليكي المخلوع جيمس الثاني من أسرة ستيوارت وورثته إلى عرش إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا، تمرد أتباعه ضد الحكومة البريطانية في عدة مناسبات بين 1688 و1746 .. المترجم)، "أفضل مثال للثورة الديمقراطية ومقاومة تحالف الملوك[1]"، الذي دام لفترة أطول من كومونة باريس، سيكون هذا هاجسه. القومية ليس لها مكان فيها. سوف يتذكرها الزعيم البلشفي بوقت لاحق، في عام 1914، على عكس جميع الاشتراكيين والنقابيين الأوروبيين الذين سمحوا لأنفسهم بالتجنيد في "اتحاد مقدس" ضد العدو الأجنبي، وحزبه "لم يكن خائفا من الدعوة إلى هزيمة النظام الملكي القيصري ووصم الحرب بين اثنين

من الطيور الجارحة الإمبريالية". وبمجرد وصول البلاشفة إلى السلطة ، اقترحوا مباشرة السلام لجميع الشعوب، وقاموا بكل ما هو إنساني ممكن للتعجيل بالثورة في ألمانيا وفي البلدان الأخرى"[2].

الأممية مرة أخرى

المفارقة الكبرى، التي ستكون محفوفة بالعواقب: حزب مكرس لديكتاتورية البروليتاريا يستفيد من الانهيار المفاجئ لسلالة رومانوف (نيكولاس رومانوف، سليل عائلة رومانوف التي حكمت روسيا القيصرية زهاء ثلاثمائة عام. في عام 1904 نظم بعض عمال المصانع احتجاجات عند قصر القيصر، قوبلت تلك الاحتجاجات بالرصاص الحي والاعتداء من قوات القمع الموالية للقيصر. بعدها بسنوات حدثت أزمة الحرب العالمية الأولى عام 1914 وتحولت حياة الروس الى مأساة حقيقية. حدث تمرد واسع في العام 1917 من قبل البلاشفة الثائرين على الحكم، أجبر القيصر على التنازل عن العرش، وألقي القبض عليه هو وأسرته.. المترجم)، وغياب مرشحين آخرين جادين بالتعامل مع السلطة [3] للاستيلاء على جهاز الدولة في بلد يمثل الطبقة العاملة بالكاد 3 ٪ من السكان. لكن، في الأساس، لا يهم في البداية ان ياتي الخلاص والتواصل والمساعدات من الخارج، من البلدان الأكثر تقدماً، من البروليتاريا الأكثر قوة، الأكثر تعليماً سياسياً. إنها مسألة أسابيع، وربما أشهر. ففي ألمانيا وفرنسا وإيطاليا والمملكة المتحدة، يتصاعد الغضب، ويزداد التمرد. في أكتوبر 1917، نفد صبر لينين، لان الانتفاضة الروسية لم تعد قادرة على الانتظار حتى تظهر "الأعراض التي لا لبس فيها لنقطة تحول كبيرة، عشية ثورة على نطاق عالمي". الأمر متروك للبلاشفة لإطلاق الرصاصة الأولى.

في انتظار الجيل القادم

في برلين، ميونيخ، بودابست، تم سحق الجيل القادم! وعندما عرضت سلطة اكتوبر الجديدة على "جميع الشعوب المتحاربة السلام الفوري دون ضم أو تعويض"، واصلت الإمبراطورية الالمانية أعمال القتال، لكي تدفع الجنود الروس لليأس ولإقناعهم بانهم سيكونون ضحية لمجزرة قادمة. تخلت الدولة الفتية عن جزء من أراضيها لإنقاذ نفسها، من خلال التوقيع على معاهدة "بريست ـ ليتوفسك"، إذ لم تكن الظروف في صالحها، فهي تأمل دائماِ في حدوث ثورة في أوروبا.. لكن الثورة المضادة هي التي تم تنشيطها، بدلاً من "السلام العمالي الذي تم إحرازه ضد كل الرأسماليين"، ذلك السلام الذي طالب به لينين. تحركت عشرة فيالق مشاة (الولايات المتحدة، كندا، فرنسا، المملكة المتحدة، صربيا، فنلندا، رومانيا، تركيا، اليونان، اليابان) لمساعدة الجيوش "البيضاء" لاستعادة النظام القديم.

هنا، الآن، في مكان اخر

برزت روسيا الثورية منتصرة من هذه الحرب الجديدة في عام 1921، لكنها دُمرت، ووضعت على القائمة السوداء من قبل القوى التي ستكون أكثر عدائية لها. وهذه القوى لم تخف أبدا نيتها للإطاحة بها. ولكن بعد أكتوبر، فقد رأس المال السلطة على أكبر مساحة على المعمورة. وكما لو أن هذه الصاعقة لم تكن كافية، فإن الشيوعي، الذي يصفونه أشعث ومهددا وعالميا ويهوديا واضعا السكين بين أسنانه (اقرأ ما كتب ألبرت لندن في عام 1920) – فهو لا يمثل خصوصية وطنية روسية فقط، ولكنه أيضاِ العدو الداخلي ويمثل التهديد المؤلم للثورة الاجتماعية.

تهديد؟

هناك أمل أيضاَ، على الرغم من تجمعات الدم التي ستحدد مساراتها. دانت الفيلسوفة والناشطة سيمون فايل (سيمون أدولفين فايل "سيمون ڤـايل Simone Weil" ولدت في باريس 3 شباط 1909 - أشفورد 24 آب 1943 فيلسوفة ومتصوفة وناشطة سياسية فرنسية وُلِدَتْ في عائلة يهودية غير متدينة. تُعتبَر سيمون فايل من أهم فلاسفة القرن العشرين.. المترجم) في عام 1934 "الاحتقار الذي لحق بذكرى ماركس من قبل عبادة الظالمين في روسيا الحديثة". ومع ذلك، بعد ثلاث سنوات، في ذروة عمليات التطهير الستالينية في نهاية المطاف، تم إطلاق الرصاص على 70 ٪ من قادة البلاشفة. "اقرأ خطاب شهادة نيكولاي بوخارين"، "إلى جيل المستقبل" (نيكولاي بوخارين 9 أكتوبر 1888 - 15 مارس 1938) كان ماركسيا بلشفيا وسياسيا سوفيتيا، نشط في الثورة البلشفية ثم في الحكومة السوفيتية حتى أصبح أحد قادتها وشغل العديد من المناصب لعل اهمها عضوا في المكتب السياسي بين1924 - 1929 وعضو اللجنة المركزية 1917 - 1937 والأمين العام للجنة التنفيذية للأممية الشيوعية (الكومنترن(ورئيس تحرير جريدة برافدا (1918 - 1929) ، بعد وفاة لينين . تحالف مع ستالين ضد خصومه من المعارضة المتحدة حتى تفوق عليهم، الا انه سرعان ما اختلف مع ستالين وعارض سياسته إلى ان أزيح من المكتب السياسي عام 1929. كان أحد أهم الضحايا للتصفيات الجسدية التي حدثت في الثلاثينيات .. المترجم)، وكتبت فايل: "أسطورة روسيا السوفيتية، تخريبية بقدر ما يمكنها أن تمنح مناورة لمصنع شيوعي اغلقه مديره. ورغم ذلك فان روسيا الفتية تحتفي بفخرها، اذ يقف خلفها الجيش الأحمر وماغنيتوغورسك. تلعب أسطورة الثورة التي لا مفر منها تاريخيا الدور نفسه، على الرغم من أنه أكثر تجريدا. إنه شيء كبير، عندما يكون المرء بائسا ووحيدا ويمتلك التاريخ لنفسه[4]".

وتبقى هذه الحقيقة

على الرغم من إخفاقاته، حتى في أكثر أشكاله منحرفة، فإن النظام الاجتماعي الذي حكم ثلث الكوكب، وهو أهم حركة سياسية في القرن الماضي كانت تعني في كل مكان تقريبا إلغاء الملكية الرأسمالية، وتطوير التعليم، والصحة المجانية، وتحرير المرأة، والدعم - الدبلوماسي، والعسكري، والمالي، والتقني، وجذبت اغلبية المكافحين ضد الاستعمار وشكلت دعما إلى الدول المستقلة التي أسسوها. دون أن ننسى "مؤسسة غير مسبوقة للترويج السياسي للطبقات الشعبية" والتي ستدفع "العمال والفلاحين للتحلي بالقوة التي كانت مخصصة سابقا فقط لممثلي البرجوازية"[5].

لأن الروابط الأممية بين المناضلين الشيوعيين، تخطت في نهاية المطاف اللغات والأديان والأعراق والحدود بقدر ما تفعل الشبكات الاجتماعية اليوم، فان شحنة الأمل التي كانت تحفز عامل المصنع، عندما يفكر في Magn-togorsk (مدينة صناعية أنشأت فيها السلطة السوفيتية أوائل ثلاثينات القرن الماضي، معامل حديثة لصناعة الفولاذ، تضاهي نظيراتها في الولايات المتحدة - المترجم). كما ذكرت سيمون ڤيل في فرنسا الثلاثينات الراديكالية والعلمانية، كنا نجدها ايضا في ألمانيا البروتستانتية، والصين الكونفوشيوسية، واندونيسيا المسلمة، وبين جامعي التبغ الكوبيين وكذلك بين جزّاء الأغنام الأستراليين.

يروي لويس سيبولفيدا واحدا من أفعاله التضامنية مع الفيتناميين، في ديسمبر/كانون الاول 1965، أثناء الحرب الأمريكية في قصته القصيرة Le Soldat Tchapaïev في سانتياغو التشيلية. في الطريق، يكتشف القارئ أن الكاتب كان السكرتير السياسي للخلية "موريس توريز" من الحزب الشيوعي التشيلي، وان رفيقا له قاد الخلية "نجوين فان تروا" وناقشا فيما بينهما الثورة الدائمة لليون تروتسكي، والدولة والثورة للينين، وتذكرا ذلك، "في دوما سانت بطرسبرغ، ناقش البلاشفة والمناشفة اثنتين وسبعين ساعة قبل دعوة الجماهير الروسية إلى التمرد" ، "لقد دعوا الفتيات إلى قراءة "نحن سقينا الفولاذ"، تاليف نيكولاي أوستروفسكي، والذهاب لمشاهدة الأفلام السوفيتية ... كانت هناك في الحقيقة الاف، او ملايين القصص من هذا النوع في العالم.

بعد موسكو ، دافوس؟

أدى إفلاس النموذج السوفيتي إلى انتصار عالمية أخرى، ولكن في الاتجاه المعاكس، انتصار الطبقات الغنية. كان الانقلاب ساحقا لدرجة أنه في عام 2000 لاحظ المؤرخ بيري أندرسون، في مقالة ملحوظة "لأول مرة منذ الإصلاح، لم تعد هناك أي معارضة مناسبة - وهذا يعني النظرة المتنافسة للعالم - في عالم الفكر الغربي؛ ولا شيء تقريبا على النطاق العالمي، إذا استثنينا العقائد الدينية، والآثار غير الفعالة (...). الليبرالية

الجديدة، كمجموعة من المبادئ، تسود على العالم"[7].

مع هذه النتيجة المدهشة والعاجزة، ووفقاً لبرانكو ميلانوفيتش، الخبير الاقتصادي في البنك الدولي، منذ عام 1988، تتسبب الزيادة في الثروة العالمية في زيادة عدم المساواة، في حين أن العكس كان بعد عام 1914. ومع ذلك، فهو لا يرى في التطوعية الاجتماعية القديمة أثر الصدفة: "ضغوط الثورة الروسية، ضغط الحركة الاشتراكية والنقابية، معززة بخيبة الأمل من الطبقات الشعبية تجاه الطبقات الغنية، والتي تعتبر مسؤولة عن الصراع، وأكدت ظاهرة إعادة التوزيع"[8]. فرض ضرائب تدريجية، وقانون العمل، لمدة ثماني ساعات في اليوم، والضمان الاجتماعي، والإحجام عن إسناد زمام الدولة للأثرياء. كل هذا لم يكن ذا صلة بأسطورة أكتوبر بالنسبة للبعض، والخوف من الثورة من قبل البعض الاخر. بمجرد أن يتم تجنب ذلك، تضاعف السلبيون التعساء اصحاب "العولمة السعيدة": التموين الاجتماعي، ليطالبوا بـ"حق التدخل" الغربي، لخصخصة الخدمات العامة، من خلال ترويج فكرة عدم أهلية أي مشروع ثوري - شيوعي، فوضوي، او يعتمد على الادارة الذاتية.

توقعا لتفتيت الاتحاد السوفيتي ببضعة أسابيع، قام محامي فرنسي اكاديمي - من يسار الوسط - في أغسطس/ آب 1991 بإلقاء لمسة حزينة على التصريحات المبهرة حول "نهاية التاريخ". كتب "جان دينيس بريدين" بعد ذلك: "هل من الممكن أن تتقدم؟ فالاشتراكية، عندنا، لم تكن الا راديكالية إذا لم يكن للشيوعية دور لمراقبتها، ولمتابعتها، ومستعدة دائما لتحل محلها، الشيوعية التي يمكن لها ان تمنع تجربتنا من الانجراف بسرعة كبيرة، وان تكون قوية جدا؟ (...) هل يمكن أن نقترح رغم كل هذا العناد، بان هؤلاء الطائفيين، هؤلاء المضربين الذين لا يكلّون، هؤلاء الغزاة في مصانعنا وشوارعنا الذين ينشرون الفوضى، هؤلاء الأشخاص العنيدون الذين استمروا في المطالبة بالإصلاحات ويحلمون بالثورة، هؤلاء الماركسيون، ضد ثقل التاريخ ، الذين منعوا الرأسمالية من النوم جيدا، نحن مدينون لهم كثيرا[9]؟".

إن "نهاية الشيوعية" قد حسمت الجدال الكبير الذي عارض التيارين الرئيسيين لليسار الدولي بعد الثورة الروسية، هزيمة أحد الأنصار يشير إلى انتصار الآخر، هذا يعني انتقام الاشتراكية الديمقراطية من الأخ الأصغر الأكثر اضطرابا. لكن هذا الانتصار لم يدم طويلا. تصادف الذكرى المئوية للاستيلاء على قصر الشتاء مع موجة الانتكاسات التي مرت بها الحركة الإصلاحية. سلالة كلينتون جرفت. السادة: أنتوني بلير وفيليب غونزاليس وجيرهارد شرودر يقومون بأعمال تجارية؛ اما بالنسبة للسيد فرانسوا هولاند فانه يشكل في نفس الوقت، شكلا من أشكال نفاد الصبر، الذي يولد من

جديد في معظم هذه البلدان - وفي أماكن أخرى ايضا.

قبل فترة وجيزة من الاحتفال بأجواء طرد الأرواح الشريرة للذكرى المئوية الثانية لثورة 1789 في فرنسا، قدر عضو الحزب الاشتراكي الفرنسي ميشيل روكار "أن الثورة خطيرة وأننا إذا لم ننقذها، فلن يكون الأمر اكثر سوءا[10]".

مرت ثلاثون سنة، سادت العولمة، وعادت الأشباح، وما زالت مومياء الثورة تتحرك.

*** سيرج حليمي: من مواليد ٢ أغسطس ١٩٥٥، كاتب وصحفي فرنسي. حاصل على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة كاليفورنيا في بيركلي. كان أستاذاً مشاركاً في جامعة باريس بين عام ١٩٩٤ و٢٠٠٠. نشر معظم المقالات في وسائل الإعلام، واقام العديد من الندوات السياسية الناجحة. عضو في هيئة تحرير «لوموند ديبلوماتيك» منذ عام ١٩٩٢، وشغل منصب مدير لها منذ آذار ٢٠٠٨.**

المراجع

(1) Lénine, 24 juin 1917. Cité par Victor Serge, Lénine, 1917 (1924).

(2) Lénine, La Maladie infantile du communisme (le « gauchisme ») (1920).

(3) Cf. sur ce point Moshe Lewin, Le Siècle soviétique, Fayard - Le Monde diplomatique, Paris, 2003, et Eric Hobsbawm, Marx et l'histoire, Demopolis, Paris, 2008.

(4) Simone Weil, «Méditations sur l'obéissance et la liberté», dans Œuvres complètes, tome II, Écrits historiques et politiques, Gallimard, Paris, 1991.

(5) Julian Mischi, Le Communisme désarmé. Le PCF et les classes populaires depuis les années 1970, Agone, Marseille, 2014.

(6) Cf. Eric Hobsbawm, L'Âge des extrêmes, Complexe - Le Monde diplomatique, Bruxelles-Paris, 1999.

(7) Perry Anderson, «Renewals», New Left Review, no 1, Londres, janvier-février 2000.

(8) Le Monde, 21 juillet 2016.

(9) Jean-Denis Bredin, «Est-il permis?», Le Monde, 31 août 1991.

(10) Cité par Eric Hobsbawm, Aux armes, historiens. Deux siècles d'histoire de la Révolution française, La Découverte, Paris, 2007

تواصل (الثقافة الجديدة) رصد انتفاضة تشرين 2019، ومتابعة تحولاتها والقوى المنخرطة فيها ومساراتها. وننشر في هذا العدد خمس مساهمات جديدة تقارب الانتفاضة من زوايا مختلفة، وسيبقى ملف الانتفاضة مفتوحا لمساهمات جديدة في الاعداد المقبلة.

الانفلات من الهيمنة واختراق الفضاء العام
تحليل لجانب من مشاركة النساء
في احتجاجات تشرين

د. أسماء جميل رشيد

عبّر التواجد الكثيف للنساء في ساحات الاحتجاجات عن تحرر المرأة من سلطة المنع وهيمنة القيم التي فرضت عليها، ملازمة المجال الخاص، وهو ما يثير اسئلة مهمة حول الكيفية التي تمكنت فيها النساء في العراق من اختراق الفضاءات الذكورية التي كانت ممنوعة منها، ومحرومة من الوصول اليها.

كشفَ تحليل وجهات نظر المشاركات في الاحتجاجات اللواتي تمت مقابلتهن، وملاحظات الباحثة عن عاملين متداخلين، ساعدا في اتساع مشاركة النساء في الفضاء الاحتجاجي.

العامل الاول هو تنامي الفردية بمعنى قدرة الفرد على اختيار طريقة حياته ونمط سلوكه وممارسة ما يعتقده بعيدا عن الجماعة التي ينتمي اليها ايا كانت. ومن أهم مؤشراتها والعلامات الدالة عليها اتخاذ النساء والشابات منهن على وجه التحديد لقرار مشاركتهن في الاحتجاجات بطريقة مستقلة عن املاءات العائلة، وحريتهن في اتخاذ المواقف، بعيدا عن الامتثالية الاجتماعية.

والعامل الثاني هو التطور الهائل في وسائل الاتصال الحديثة التي سهلت في تعزيز كل من النزعة الفردية عند النساء وحررتهن من هويتهن الاجتماعية مع كل مايفرض عليهن من قيود، من ناحية. وساهمت بشكل كبير في خلق الفضاء العام البديل أو الفضاء الافتراضي الذي وسع مفهوم الفضاء العام، بحيث لم يعد مقتصراً على جمهور مثقف يتقن الخطابات، من ناحية اخرى.

تنامي النزعة الفردية

لم تسمح مسارات التحول التي مر بها المجتمع العراقي وظروفه الاجتماعية والسياسية للافراد بأن يكونوا افرادا[1]. ومن الصعب جدا رصد أو تتبع تشكل الفردية كبناء اجتماعي يومي، في ظل النظام الشمولي وسياسات الحزب الواحد التي عملت على صب الافراد في قالب الدولة والحزب، وحرصت على منع تبلور اي كتلة متميزة واية نزعة للتفرد، في الوقت الذي تفترض الفردية لكي تتشكل وتنمو وجود دولة تعددية بنظام حديث واعية لحقوق الناس وحياتهم، وترى في افرادها مجموعة

مواطنين ترعاهم وليس رعايا[2] وهو شرط لابد من توافره لانبثاق الفردانية.

يشير حوار ام محمد (موظفة في دائرة الكهرباء) الى الدور الذي لعبته الانظمة القمعية في زرع الخوف عند النساء من الاجيال التي عاشت تحت حكم النظام الدكتاتوري. وهذا الارتياب من السلطة والذي لم تخبره الاجيال الجديدة التي ولدت ونشأت بعد سقوط نظام حزب البعث، من وجهة نظر ام محمد، هو الذي اسبغ على مشاركتها طابع الخجل وضعف المبادرة خلافا لما تميزت به الشابات، غير ان هذا الخوف يعكس ايضاً عدم قدرة الجيل الاكبر سنا من الوصول الى حيز من الاستقلالية التي تسمح لهن باختيار طريقة حياتهن وممارسة ما يعتقدن به، ليصبحن فاعلات في المجتمع.

تقول ام محمد:

"جيل الشابات اشجع منا لقد زرعت الانظمة القمعية في داخلنا الخوف وهذا الخوف لا تعرفه الشابات اللاتي ولدْن ونشأن بعد سقوط النظام السابق".

وتتلاقى اجابة ام محمد في مضامينها مع ماقالته ام سارة حين ربطت بين النظام الشمولي وبين الانظمة الابوية التي حكمت حياة المرأة طوال سنوات حكم الدكتاتورية.

"لقد عشنا 35 عاما تحت هيمنة النظام الشمولي والسلطة كنا اذا ما ذهبنا الى المدرسة وشاركنا في فعالياته نفعل ذلك بسرية (بالختلة) دون ان نعلنها، لكي لا نُغضب ذكور العائلة، وهو ما منعنا من المشاركة في الشان العام. اما الآن فقد انتهت هذه الهيمنة".

ترافق مع هيمنة الحزب الواحد الذي اسس لمجتمع طيع، يدار عبر آلة القمع، فشل مشروع الحداثة في العراق، بعد تحول النظام الحاكم، اثر هزيمة حرب الخليج وماتبعها من عقوبات اقتصادية في العام 1991 من نظام علماني الى الاسلم، واعتماده على العشيرة لدعم نظامه المتهالك ومواجهة معارضيه. ومع احياء هاتين المنظومتين التقليديتين (الدينية والقبائلية) اصبح من الصعب جدا للفردانية التي تمثل قرينة الحداثة وثمرة المجتمع الحديث[3] ان تنمو أو تتحقق.

برزت الجماعات التقليدية بعقائدها الاجتماعية كقوة تتحكم في حياة الأفراد، واصبحت تمثل المرجعية الاساسية لهم. وجهدت في سبيل جعل الاشخاص والنساء على وجه التحديد صورة طبق الاصل ونسخة مكررة عن القبيلة والجماعة، التي تنتمي اليها بافكارها ونمط حياتها وافضلية مصلحة الكل على مصلحتها[4].

ولا تعترف مثل هذه الجماعات بالتعبير الفردي، ووقفت عائقا امام كل نزعة للتمايز والاستقلالية وحرصت على تقييد النساء ونزع قدرتهن على ادارة شؤونهن بحرية، بما فيها حقهن في التأثير بالشأن العام من خلال قولبة شخصياتهن باعرافها ونواميسها لتعدها للدور والمكانة والهوية المنتظرة منها.

مع انهيار النظام الشمولي في العراق عام 2003 برزت الجماعات الاسلامية بكل ماتحمله من معاداة لقيم الحداثة لتهيمن على المجتمع وتعيد توجيهه، واجهت الجماعات المتأسلمة كل نزعة للتفرد وتصدت لكل من يظهر اختلافاً وخروجاً على قيم المألوف، مستخدمةً القتل والتصفية

في بعض الأحيان. ومن بين أهم الشواهد على ذلك التصفية التي تعرض لها الشباب المقلدون لظاهرة الايمو، التي انتشرت في مناطق نفوذ الجماعات الإسلامية، وجرائم القتل التي طالت شباب وشابات لمع نجمهم على مواقع التواصل الاجتماعي بوصفهم (موديلز) وايضاً المثليين.

ومع ذلك كان الافراد وبشكل خاص جيل الشباب يتحررون من نفوذ التقليدية، حتى في اكثر المناطق تقليدية في العراق واصبحوا واعين لذواتهم وهم المسؤولين عن اختياراتهم متصدين للبنى والتراكيب الاجتماعية التي تحاول اختزالهم بالجماعة واخضاعهم لها.

كانت احدى المظاهر الدالة على نمو الفردانية خلال العقد الاخير زيادة حالات الانتحار بين الشباب. التي تعكس ضعفاً في ارتباط الفرد بالجماعة وانسلاخا عن الانتماءات التقليدية التي توفر شكلا من التضامن الاجتماعي الضروري لحماية الفرد من الانتحار[5].

رغم التطبيق المشوه ساعد التحول الديمقراطي، في توفير الظروف المهيئة لنمو الفردانية ببطء وبشكل غير محسوس؛ فحرية التعبير وظهور خطابات وحركات مدنية تعتمد مباديء حقوق الإنسان كمرجعيات لها، ادّيا الى انفلات جمهور واسع، تبنى هذه المفاهيم من القناعات الكلانية التي تنتجها الجماعات التقليدية.

من ناحية أخرى، ادت الضغوط الاجتماعية والاقتصادية التي رافقت التحولات التي مر بها المجتمع العراقي الى ان اصبح الفاعلون الاجتماعيون اكثر اعتمادية على انفسهم في تحقيق حاجاتهم، وفي تعهدهم بحياتهم الخاصة.. هذا ما اضعف الروابط العائلية، وقلل من تاثير الجماعات القرابية على الفرد، ومنح الأفراد، وبشكل خاص النساء والشابات منهن على وجه التحديد القدرة في اعادة صياغة هويتهن بمعزل عن الضغوط والقيود التي جهزت لهن هويتهن. تبين اجابة (أم سارة) إن الحروب والعقوبات الاقتصادية والنزاعات الطائفية التي مر بها العراق، فرضت قيام المرأة بدور المعيلة ومدبرة لشؤون الأسرة وحامية لأفرادها، دون مساعدة من احد. وهذا ما وسع حدود طاقتها وتمكينها، ما هيأ إلى تحرر النساء من قيود الجماعة والتزاماتها المفروضة، اذ أصبحت المرأة مسؤولة عن قراراته، وغير خاضعة لاملاءات العائلة والجماعة القرابية التي تنتمي اليها، وبالتالي لم تعد ملزمة بمراعاة ما يرسمونه لها خوفا على انفراط عقد الروابط العائلية.. كل هذه تمثل مؤشرات على تنامي الفردانية مقابل تراجع تاثير القناعات الكلانية التي كانت بمثابة قضايا كبرى ومقدسة في الماضي، تتمثلها النساء وتحافظ على استمرارها.

تقول ام سارة "الاحداث الكبيرة التي مر بها العراق، تركت تغييرا كبيرا في العلاقات، لم يعد لرضا اخوتي واهلي واقاربي على اية اهمية. انا الآن على خلاف مع اخوتي بسبب مشاركتي انا وابنتي بالتظاهرات، ولكن ذلك لم يعد مهما بالنسبة لي".

وكان عمل الفتيات بمن فيهن طالبات الجامعة في مهن جديدة، مثل بائعات في مولات تحت ضغط الظروف المعيشية والاقتصادية، او مروجات بضاعة عبر الانترنيت، مؤشرا على الاعتمادية على

الذات وبداية الاستقلالية عن العائلة، ودالة أخرى على نمو الفردانية خاصة في المدن الكبيرة في العراق، ومنها العاصمة بغداد.

تعتقد سناريا (طالبة جامعية)، إحدى المشاركات في الاحتجاجات، بان عملها هو الذي مكنها من اتخاذ قرار المشاركة في الاحتجاجات، وكسر حاجز الخوف عندها، وخفف من حجم الوصاية المفروضة عليها.

"وفر لي العمل، رغم انني مازلت طالبة حالة من الاعتماد على الذات والاستقلالية، ومكنني من الخروج لوحدي دون رفقة او وصي او محرم او حارس من الأهل، كما جعلني قادرة على ان استقل سيارة اجرة واذهب الى اي مكان اريد. هذا لم يكن متاحا في السابق قبل ان اعمل".

الفردانية التي تشكلت ببطء لتشمل النساء، وفي غفلة عن اية عملية رصد سوسيولوجي لمراحل وعوامل تشكلها، سمحت بتحرير ارادتهن، وهو ما ادى الى تدفق طاقاته "لما تلقيه الحرية من مسؤولية الاستجابة لمتطلباتها كالمبادرة الذاتية واتخاذ القرارات الفردية والتفكير غير النمطي"[6].

الاستعمال الواسع لوسائل التواصل الاجتماعي كان له دور مهم وحاسم في توليد الفردانية عند النساء؛ اذ شكلت هذه الوسائل حواضن بديلة لنمو وتشكيل شخصية الأفراد، بعيداً عن الامتثالية الاجتماعية والأطر التقليدية، غير أن التأثير الأهم يرتبط بالدرجة الأساس بالتغيرات الاجتماعية التي احدثتها على بنية السلطة داخل العائلة. وتوضح الباحثة (نهاوند القادري عيسى) كيف ادى استعمال وسائل التواصل الاجتماعي، الى تفكيك النموذج العائلي البطريركي، القائم على سلطة الاب لصالح عائلة أكثر مساواة، اذ استطاعت ان تنشئ وتشيّد الحدود داخل المنازل وان تخلق نوعا من التمايز الذي يساهم في تبلور هوية كل فرد. هذا أدى إلى تراجع قدرة الأسرة كمؤسسة على فرض نموذج على أعضائه، وصب شخصياتهم في قوالب جاهزة. وكان من نتائج ذلك اعادة تعريف الأدوار الاجتماعية وبناء الهوية الجندرية[7]. كما نتج عن الاستخدام الكبير لوسائل التواصل أن أصبحت حاجة الفرد إلى الاستقلالية موازية اذ لم تكن اكبر من حاجته للانتماء إلى مجموعة اجتماعية.

وبفضل الانترنيت اصبح بإمكان المرأة ان تتجاوز الهوية المجهزة لها اجتماعيا ودينيا من خلال استعارة اسماء وهمية او انتحال هوية غير هويتها، ما سمح لها بالخروج من انتمائها الاجتماعي، والتحرر من الممنوعات والمحرمات الاجتماعية وتقديم نفسها داخل مواقع الانترنيت بحرية[8].

وفرت شبكات الانترنيت المساحة الآمنة للنساء، لان يعبّرن عن ذواتهن ويعدن تعريفها كما يرينها ويردنها لا كما يريدها الآخرون. وهذا جوهر الفردية ومعناها، كما أتاحت الفرصة للمرأة المهمشة المستبعدة عن الشأن العام وغير القادرة على البوح، لان تظهر وتعبر عن رأيها. ولم يكن صعبا بعد ذلك انتقالها من الفضاء الافتراضي (شبكات التواصل) إلى الفضاء الاحتجاجي (ساحات التظاهر).

وتوضح تجربة (صفا) التدريسية الشابة في الجامعة التكنولوجية هذا التحول من الفضاء الافتراضي إلى الفضاء الاحتجاجي.

"لا اعرف كيف تغيرت. قبل سنة فقط كنت أشارك في النقاشات على صفحات التواصل الاجتماعي، وأعبر عن غضبي من خلال هذه الشبكة. ولكن لم تكن لدي الجرأة للنزول والمشاركة في ميدان التظاهرات".

الفضاء الافتراضي ودور النساء في هذا الفضاء

ساهم التطور التقني لوسائل الاتصال في اعادة تشكيل مفهوم الفضاء العام[9] من خلال خلق فضاء ثالث بديل هو الفضاء الافتراضي ليصبح مجالا مهما لممارسة السياسة ويؤسس لحياة عامة غير رسمية خارج جدران البيت والعمل والاماكن العامة[10].

يتميز الفضاء الافتراضي العام بانه مشترك ومفتوح للجميع، يتيح لكل فرد فرصة الوصول إليه والمشاركة والتفاعل مع الاخرين[11]. وبذلك لم يعد مفهوم الفضاء العام مقتصرا على مشاركة النخبة او الجمهور المثقف الذي يجيد استعمال العقل واللغة الخطابية كما ذهب هابرماس. وانما امتد ليشمل افراد مهمشين ومستبعدين يقدمون خطابات مفتوحة، ويعرضون قضايا عامة، الامر الذي اتاح فرصا متساوية للنساء في التعبير عن آرائهن بحرية، بعد ان كان غالبية قادة الرأي من الذكور[12].

كما ان هذا الفضاء يتعامل مع السياسة على انها مجموعة احداث متفرقة لا تستند بالضرورة إلى الحجج المنطقية والعقلانية، بل استوعب أشكال التعبير المستندة إلى التجارب الحياتية[13]. من خلال هذا الفضاء العام تمكنت النساء المهمشات من التعبير عن آرائهن في القضايا المختلفة ببساطة من خلال خبراتهن وتجاربهن دون الحاجة الى قدرات نقدية ومهارات خطابية.

كانت النساء ابرز الفاعلين داخل هذا الفضاء وجزءا مهما من جمهوره، اذ فاقت مشاركاتهن في مواقع التواصل الاجتماعي مشاركة الرجال بـ30% من ناحية الاستخدام والفترة الزمنية التي تقضيها داخل هذا العالم الافتراضي[14]. وقد اتاحت لهن هذه الوسائل فرصة للتعرف الى ما يحدث في الفضاء العام، دون الحاجة للخروج من المنزل، وأصبحن مشاركات في الفضاء العام من داخل منازلهن، ودون الحاجة لأخذ الأذن من احد. صرن يعبرن عن آرائهن من خلال انشاء صفحات خاصة ومدونات او من خلال التفاعل مع الصفحات المختلفة. واعطت الاسماء والهويات المستعارة فرصة اكبر للتأثير والتفاعل بلا قيود او رقابة.

لم تكن المرأة العراقية بعيدة عن هذا الواقع، اذ نشطت على مواقع التواصل الاجتماعي ووصلت نسبة اللواتي يستعملن هذه الوسائل وبشكل يومي 67% و45% منهن، يقضين ما بين 3 الى اكثر من 5 ساعات يومياً[15]. استعانت العديد منهن بهذه المواقع لتجاوز عزلتهن عن الفضاء العام وأصبحت بالنسبة لهن مجالا مفتوحا للتعبير عن ارائهن ومواقفهن ولممارسة السياسة والتعاطي مع الشأن العام وتقديم أنفسهن وإسماع أصواتهن بشكل بسيط وطريقة سهلة. مثال على ذلك الناشطة (رنا الصميدعي) التي ابتكرت طرقاً للتعبير، خاصة بها، من خلالها ظهورها في فيديوات تنتقد فيها احد الزعماء الدينيين.

وبلغة بسيطة ولاذعة بعيدة عن التحليلات السياسية، تحاول ان تحاكم الطبقة السياسية مستندة إلى تجربتها الشخصية بدون قيود، وهو ما يتيحه لها الفضاء الافتراضي ويسمح به .

انخراط النساء في الفضاء الافتراضي جهزهن للمشاركة الفعلية في الفضاء الاحتجاجي، من خلال تأثيره على زيادة وتعزيز ادراكهن للقضايا السياسية التي يشهدها العراق وفتح المجال امامهن لتشكيل حكم ذاتي جديد. وهذا الوعي السياسي الذي تشكل نتيجة تفاعلهن مع القضايا المختلفة، لا بد ان ينعكس على مشاركتهن السياسية، لما يحدثه هذا التفاعل من تأثير عاطفي ومعرفي سرعان ما يتحول الى سلوك[16]. من ناحية أخرى اكسبتهن وسائل التواصل الاجتماعي بدائل وأدوات جديدة للمشاركة في الشأن السياسي والتعاطي مع الاحتجاجات باتخاذها كمنصات للحوار، ولتشكيل الرأي العام السياسي عبر مدونات وصفحات ومواقع منها صفحة (بنات التحرير) و(لبوات العراق) وصفحة الناشطة الحقوقية والإعلامية (شذى الدليمي) ومدونة (أصيل العزاوي) التي تعكس صورة واضحة للتحولات في مفهوم الفضاء العام إلى الفضاء الافتراضي، الذي يجتمع فيه فاعلون يتجاوز عددهم احيانا الـ 25 مشاركا ومحاورا، لمناقشة قضية تخص الصالح العام، تقدمها أصيل وتثير الحوار حولها، في بث حي وعبر الاتصال المباشر، ويستمر لثلاث ساعات في بعض الأيام.

تعطي تجربة اصيل العزاوي نموذجا للطريقة التي استطاعت فيها النساء، الانتقال وبسهولة من الفضاء الخاص إلى الفضاء العام، اللذين اصبحا متشابكين ومتداخلين ضمن شبكة التواصل الاجتماعي . فبحكم عملها في مركز تجميل بدأت أصيل من خلال مدونتها، تقديم نصائح وإرشادات للنساء للعناية بجمالهن، وهي اهتمامات تقع ضمن المجال الخاص. لكن مع انطلاق الهبة الأولى من احتجاجات تشرين في 2019/10/1 قررت ان تدعوا متابعيها عن طريق بث مباشر للدعاء للمتظاهرين بتحقيق أهدافه، وكان هذا اول بث حي تسميه (لايف سياسي)، تتناول فيه قضايا الشأن العام، التي عادة ما تدار في الفضاء العام.

تقول اصيل العزاوي:

"لم اكن افقه شيئا في السياسة ولا افهم كثيرا في هذا المجال، لكن بعد فترة من اثارة القضايا التي تخص البلد والمرتبطة بالاحتجاجات اصبحت امتلك وعيا سياسيا كبيرا. الآن لم يعد بإمكاني العودة الى اهتماماتي القديمة، وصرت اخجل من تقديم قضايا ونصائح تخص التجميل والعناية بالجسد والانوثة"[17].

نجحت المدونات والاعلاميات والناشطات على مواقع التواصل الاجتماعي في اثارة الكثير من القضايا التي كان تناولها والتعاطي معها محصورا وحكرا للرجل. تناول هذه القضايا أكسب النساء ثقة بالنفس وشهرة. توسعت علاقاتهن الاجتماعية وأصبحن يشعرن بالمسؤولية تجاه قضايا الشأن العام في مجتمعاتهن وهو ما هيأهن وبسهولة للانتقال من الفضاء الافتراضي إلى ميدان الاحتجاجات.

وفي السياق ذاته عملت مشاركة النساء الواسعة في مواقع التواصل الاجتماعي على التحشيد، وفي نقل معاناة المحتجين

والانتهاكات التي تعرضوا لها. وكان لمساهمتهن دور مهم في التعبئة الجماعية وبشكل خاص تعبئة النساء وحثهن وتحفيزهن على المشاركة.

تشير سناريا وهي تصف من شجعها على المشاركة في الاحتجاجات:

"هناك نساء نشطن على الانستغرام وينشرن بشكل واسع ومكثف ويحفزن النساء على المشاركة. بعضهن طبيبات شابات. وبعضهن مديرات مدارس وقد شجعت طريقة وسرعة نشرهن، بعض النساء على المشاركة".

وتجدر الاشارة هنا الى الدور الذي لعبته مقاطع الفيديو التي تعكس مشاهد القتل والقمع التي تعرض لها المتظاهرون في الهبة الاولى التي انطلقت في الأول من تشرين، في اثارة التعاطف والغضب الكبير لدى النساء والذي مثل الدافع الاول لانخراط وتوجه القسم الاكبر منهن الى ساحات التظاهر في الهبة الثانية التي انطلقت في 25/ تشرين، فلولا التداول الواسع لهذه المقاطع عبر مواقع التواصل لم يكن لمشاركة النساء ان تحقق هذا الزخم العالي.

كانت النساء الاكثر استعمالاً لمواقع التواصل الاجتماعي والأكثر تأثرا بقتل المتظاهرين، في مقدمة المروجين والناشرين لهذه الاحداث .

كما نشطت النساء في الترويج للإعلان عن التظاهرات ومواعيد انطلاقه، وهو ما سهل على الكثيرات المشاركة الفعلية وأكسبهن القدرة على التنسيق للخروج إلى الساحات.

تقول صفا التدريسية الشابة في الجامعة التكنلوجية "سمعت بوجود التظاهرات من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، انضممت إلى عدد من النساء الشابات في مقهى ثقافي في الكرادة، لم اكن اعرفهن مسبقا، لكنني قرأت منشورهن على منصات الفيس بوك، فتوجهت إلى المكان الذي حددوه للتجمع".

اشكال المقاومة اليومية التي انتهجتها النساء للتخلص من سلطة المنع/ الممارسات والتكتيكات واساليب المواجهة

رافق اقصاء النساء عن الفضاء العام، فرض قيود وضوابط مورست عليهن بأشكال وذرائع مختلفة لتقييد حركتهن والحد من حضورهن في الاماكن العامة. وهو ما جعل النساء في سياق احتجاجات تشرين، تقاوم نوعين من السلطة، تتمثل الاولى في النظام السياسي واجهزته القمعية. فيما تتمثل الثانية بسلطة المجتمع الذكوري وجهاز ضبطه المخصص لتقييد حركتهن.

طورت العديد من النساء مجموعة من التكتيكات لمقاومة سلطة المنع الذكورية[18]. من بينها التواطؤ والمناورة والمساومة والمفاوضة وايضا المواجهة.

التواطؤ/ قيم ثقافية جديدة ترحب بمشاركة النساء

تحايلت النساء على ما حدده النظام الاجتماعي، حول ما يجب، ولا يجب للمراة ان تفعله، وقاومت بطرق متعددة، لانتزاع حقها في المشاركة، من بين اهم الطرق التي اعتمدتها، والتي أمكن رصدها التواطؤ.

انخرطت صفاء الشابة العشرينية في الاحتجاجات بتاريخ 25 /10 /2019 دون اخبار احد من اهلها، وبدون علمهم، واستمرت بالحضور يومياً، الى ان صادفت اخاها بين المصابين الذين كانت تسعفهم، تقول صفاء:

"اكتشفت انه اخي بعد ان رفع الكمامة عن وجهه لم يعترض على مشاركتي ولم يسالني عن الطريقة التي اتيت فيها، ضحك والتقط معي صورة وذهب، ومنذ ذلك الحين والعائلة كلها تشارك في الاحتجاجات ".

استطاعت العديد من النساء، التوجه الى ساحات التظاهر بتواطؤ من اصحاب السلطة التقليديين: الاب الاخ الزوج والأم، ضد الهيمنة الذكورية التي تمنع النساء من التواجد في تجمعات ذكورية وتوافقهم (الضمني) على كسر الحدود المرسومة للاناث، والسماح لها بالمشاركة.

اتخذت عملية التواطؤ اشكالا متعددة منها الاتفاق بين الزوج وزوجته على التوجه لساحات التظاهر.

تقول زهراء البالغة من العمر 30 سنة ولديها خمسة اطفال:

"اتفقت مع زوجي على ان نخرج للتظاهر يوم 25 تشرين الاول، تركت اطفالي تحت رعاية اختي الكبيرة، كان يجب ان اخرج مع الشعب لطرد الفاسدين".

ومن اشكال التواطؤ، تشجيع الازواج المشاركين في الاحتجاجات لزوجاتهم على المشاركة في هذه الاحتجاجات "زوجي شجعني على الحضور الى ساحة التحرير".

ويتواطأ افراد العائلة دون اتفاقات او اعلان مسبق عن مشاركتهم ويتوجهون الى ساحة التظاهر ليكتشفوا بالصدفة، ان بقية افراد العائلة قد سبقتهم الى هناك.

"أعدت تقى وجبة السندوشات لتوزعها على المتظاهرين، واتصلت بصديقة لها من المتواجدات في ساحة التحرير، لكي تصحبها الى الساحة، وادعت انها ستذهب الى صديقاتها، وفي ساحة التحرير صادفت والدتها وهي تحمل ادعية توزعها على المتظاهرين، كما تفاجأت بأخيها الذي كان قد اخبر والدته انه ذاهب مع اصدقائه للعب كرة القدم"[19].

شكل اخر من التواطؤ، عبرت عنه طالبة اعدادية تشارك في التظاهرات بزيها المدرسي، بعد ان تقنع احد اركان السلطة داخل المنزل (الام عادة)، وتخولها التفاوض مع سلطة الاب، بينما تتواطأ معها الام باختراع اعذار وحجج للتستر على غياب البنت.

"كل مرة اخرج فيها للتظاهر بدون علم ابي، احيانا اقوم باخبار والدتي التي تحاول التستر على خروجي وتساعدني بعد توسلاتي واقناعي لها بأننا سنكون برفقة فتيات اكبر سنا منا".

تؤكد الشهادات السابقة ان الفعل الثوري الذي شهد مشاركة واسعة للنساء هو تعبير عن تواطؤ الطرف المهيمن مع الطرف الخاضع، ضد هيمنة القيم التقليدية، التي وضعت حدودا ما بين الجنسين، وقسمت الفضاءات الى فضاءات ذكورية، لا تدخلها النساء وفضاءات خاصة بالمرأة.

غير ان هذا التواطؤ مؤشر على ظهور تصورات جديدة تدفع باتجاه اعادة النظر بالقيم السائدة حول المراة وشكلها ودورها في المجتمع العراقي.

تقول صفاء:

"لم يعارض الذكور في العائلة على مشاركتي؛ فثورة تشرين كسرت الحواجز والموانع وسلطة الضبط التي عادة ما يمارسها الذكور في العائلة على الاناث وغيرت الافكار النمطية التي تحصر عمل التغيير على الرجال".

ويعتقد المتظاهرون من الشباب والشابات، ان انتفاضة تشرين احدثت ثورة في بنية الثقافة الابوية، بعد ان سمحت الاسر لبناتها بالخروج الى التظاهرات في مجتمع تؤكد قيمه وثقافته الشعبية على منع المرأة من الخروج (المراة اذا طلعت كثرت افعالها)[20].

يقول احمد المتظاهر الشاب عند سؤاله عن تفسيره لمشاركة النساء:

"لدينا تقاليد راسخة تقتضي بعدم خروج المراة ومن المعيب مشاركتها في تجمعات شبابية ورجالية، وما حدث هو كسر لكل هذه التقاليد".

المفاوضة/ الخدمات مقابل السماح بالمشاركة

استطاعت العديد من النساء ان يتموضعن داخل ساحات الاحتجاجات من خلال مفاوضة السلطة الذكورية على الخدمات التي يمكن ان يقدمنها لادامة الاحتجاجات. مثل الطبخ واعداد الخبز وغسل الملابس والتنظيف وغيرها من الاعمال. هذا التكتيك عادة ما تتبعه النساء الاكبر عمرا من جيل الامهات سواء كان ذلك بقصد او من دونه.

كما ان عملية التفاوض غير معلنة، وانما متضمنة في مشاركة النساء والخدمات التي تقدمها، وترحيب الابناء المتظاهرين بهذه المشاركة لحاجتهم لمثل هذه الخدمات التي لم يتعودوا او ينشأوا على ادائها، خاصة بعد ان تحولت التظاهرات الى اعتصامات مفتوحة يرابط فيها الالاف من الشباب، وتحول ميدان الاعتصام الى مجتمع تكافلي يعمل على ادامة وظيفته الاحتجاجية ذاتيا وعلى مدار الساعة من خلال التبرعات وحملات التنظيف وتوفير وجبات الطعام للمتواجدين في الساحة[21].

وتعبر شهادة ام علي التي تولت مع جارتها ام سلوان غسل ملابس المتظاهرين من خلال نصب ماكنة الغسيل وحباله في ساحة الاحتجاجات، عن عملية التفاوض التي لم تجر عبر لغة او خطاب، وانما من خلال الفعل. لم تجد ام علي في غسل ملابس المتظاهرين التي كان يحملها اليها ابنها عند عودته ليلا، فكرة عملية، فقد كانت الملابس ثقيلة كما وصفتها، فاتفقت مع جارتها ام سلوان التي يشارك اثنان من ابنائها في الاحتجاجات على حمل غسالتيهما، والتوجه الى ساحة التحرير، لتبدأ عملية غسل الملابس من الساعة الثامنة صباحا الى الثانية عشر ليلاً.

تقول ام علي "عندما اخبرت ابني اني سأحمل غسالتي واعيد نصبها في ساحة التحرير، اخذ بالضحك، دليل على موافقته وعدم اعتراضه".

لقد ضمنت ام علي والعديد من النساء مثلها، التواجد في الفضاء الاحتجاجي، والبقاء قريبات من ابنائهن المتظاهرين مقابل الخدمات المختلفة.

المساومة والمواجهة / اما ان أشارك في التظاهرات او لا اكون زوجة لك.

اعتمدت نساء اخريات من المتزوجات الشابات خاصة اساليب وطرائق مباشرة لمقاومة المنع من خلال تحدي السلطة الذكورية ومواجهتها وفرض ارادتها عليها. اختارت ميديا الشابة المتزوجة المساومة على دورها كزوجة من اجل اجبار زوجها على الخروج للتظاهر، وقايضت حياتها العائلية وعلاقتها بزوجها مقابل السماح لها بالمشاركة.

"خرج زوجي الى الاحتجاج بعد خلاف كبير دار بيننا انتهى بتهديدي له بتركه. قلت له خلص لو انت تطلع للتظاهر لو اني اترك البيت".

اما النساء اللاتي يتعرضن الى قوة منع اكبر فقد اضطررن الى الدخول في مواجهة مباشرة مع الطرف الاخر وعلى الرغم من ان حالات قليلة اجبرت على هذا الخيار لكنها موجودة.

بعض النساء حسمن المواجهة مع الطرف المهيمن قبل اندلاع الاحتجاجات، واصبحن مستقلات في قراراتهن واكثر حرية في التحرك، واكثر قدرة على النزول الى الفضاء الاحتجاجي، لكن ذلك تطلب منهن خوض صراعات طويلة مع الرفض والعوائق لكي يصلن الى هذا القدر من القوة.

صفا التدريسية الشابة في الجامعة التكنولوجية، التي رفض زوجها ان يكون مشاركا في التظاهرات، ولكنه فقد الحق في منعها من المشاركة، ولم تعد موافقته او عدمها، لها تأثير على خياراتها.

"تعرضت للمنع طويلا من قبل الذكور في العائلة. لم يكن التخلص من هيمنتهم سهلا لكنني وقفت ضدهم اصرخ احيانا في وجوههم واحيانا اهددهم بتقديم شكوى ضدهم الى ان اصبحت هكذا مستقلة في قراري".

ولم تقتصر هذه المواجهات على النساء ذات التوجهات اللبرالية اذا جاز التعبير، وانما شمل ايضا النساء المنتميات الى التيار الصدري.

تقول احدى النساء التابعات لهذا التيار: "المرأة سباعية، هناك نساء يمنعها رجال العائلة من الخروج ، ورغم ذلك يخرجن رغما عنهم، بعضهن يتركن منزل الزوجية (يزعلن) ويطلعن".

وعلى الرغم من ان الايديولوجيا الاسلامية التي تدين بها هذه النسوة تؤكد على طاعة الزوج، وتجعلها بمثابة طاعة الله غير ان تمردهن وتحديهن لسلطة الزوج تجد ما يدعمه ويبرره في الموروث الديني الشيعي، عندما رافقت زينب اخت الامام الحسين اخاها في معركة الطف (الشهيرة). لذلك لا تلام مثل هذه النساء على تمردهن (فلهن اسوة بزينب).

المناورة: براعة في الاحتيال على السلطة

إزاء الموقف الرافض لخروج النساء وانخراطهن في الفعل الاحتجاجي، وسلطة المنع التي تمارسها العائلة بذرائع الخوف على سلامة بناتها، او لمنع فرصة اختلاطهن بالذكور، تضطر نسبة كبيرة من المشاركات في الاحتجاجات الى التحايل

على السلطة وايهامها بالخضوع والامتثال لشروطها، كشكل من اشكال المقاومة، يمكن ان تمكنهن من الافلات من السلطة، والتوجه الى ساحات الاحتجاج.

كانت الطالبات سواء في مرحلة الجامعة أم الاعدادية هن النموذج الابرز للنساء اللواتي طورت هذه الاستراجية، ربما لانهن وخلافا لربات البيوت والشابات خارج مقاعد الدراسة، يمتلكن ذريعة وحجج غيابهن عن البيت من خلال الدراسة.

تؤكد اكثر من مشاركة، تمت مقابلتها، ان نسبة كبيرة من الشابات في ساحة التحرير يشاركن دون علم اهاليهن. وعند سؤالهن عن الطريقة التي استطعن خلالها ان يضمن وجودهن اليومي داخل ساحات الاحتجاج تجيب قمر:

"كذبة بسيطة، فقط اخبرهم اني ذاهبة الى الجامعة بينما انا اتوجه في الحقيقة الى ساحة التحرير، ليس لدي طريقة اخرى اتبعها ازاء ممانعتهم".

لم تعتمد الطالبات لوحدهن هذه الاستراتيجية، فداخل الخيم التي تقدم دعما لوجستيا للمحتجين يمكن العثور على نساء، قدمن من محافظات بعيدة للمشاركة ومن بينهن نسرين المرأة الثلاثينية العزباء التي تسكن مع عائلة اخيها في محافظة، تبعد الثلاث ساعات عن بغداد، ولم تحاول ان تقنع اخاها صاحب الوصاية عليها بالخروج للمشاركة في الاحتجاجات ليقينها بمعارضته، ولكنها كانت تتسلل الى ساحة التحرير في بغداد باختراع حجج ومبررات بمراجعات لدوائر الدولة واتمام معاملات، لتبقى اياما متتالية في خيم الاعتصام.

استعانت النساء بالكذب والادعاء، لكي يتمكن من التخلص من الوصاية المفروضة عليهن.

تقول نورهان الطالبة الجامعية والمسعفة في الساحة:

"كانت هذه اول مرة اكذب فيها على اهلي قلت لهم انني ذاهبة الى بيت صديقتي".

لم تخبر نورهان اهلها ولم تطلب منهم الاذن، كما لم تتفق مع صديقاتها لقناعتها ان قرارها لن يلقى التأييد من احد خوفا عليها، فالانخراط في الاحتجاجات وطبقا لاحداث الهبة الاولى التي انطلقت في 1 تشرين، تعني الذهاب الى ساحة حرب. جهزت حقيبة فيها لوازم اسعافات ورمتها من سطح المنزل لكي لا تراها والدتها، وتنكرت بزي شاب، خوفا من التحرش. استمرت نورهان في الادعاء انها ذاهبة الى احدى صديقاتها لمدة شهرين وعندما اكتشف اهلها ذلك، منعوها من المعاودة.

لم تتوقف نورهان عن التحايل لتتمكن من الخروج وكانت تطور مناوراتها بحسب السياقات، واصبح الكذب بالنسبة لها فنا تجيده وتتقنه.

"كنت اقضي الليل في قراءة مناهج السنة السابقة لاوهم والدتي ان لدي امتحانات فعلا حتى اني حفظت جميع مقررات السنة الماضية على ظهر قلبي".

لم تكشف الحوارات مع النساء المناورات عن الشعور بالذنب ازاء (التحايل) الذي يوظفنه وبشكل يومي كما لا يرين انفسهن خطاءات بخرقهن للقيم والتقاليد واستغفال السلطة، ولا يمثل الكذب بالنسبة لهن عملا لا اخلاقي وانما مبرر ومحمود ومصدر فخر فجميع هذه الافعال والمناورات تكتسب مشروعيتها من سمو الجهة التي يتوجهن إليها، وعلية الغايات التي يناورن ويقاومن السلطة من اجلها.

الهوامش:

1 - تشير الفردية في احدى دلالاتها الى استقلالية الفرد وقدرته على التصرف بمنتهى الحرية، وهي ليست مفهوما بقدر ماهي نموذج فكري (براديم) نظري يحيل الى دلالات متعددة منها ما يتعلق بكرامة الشخص وقداسته، واستقلالية الفرد وقدرته على التصرف بحرية، تقدير ما هو حميمي وخاص، تنمية الذات. نقلا عن عادل بلحاج رحومة: في تشكيل الفرد والفردانية في المجتمع التونسي. مجلة عمران العدد 8/ 2 ربيع 2014 ص127/ 128 .

2 - المصدر السابق ص128.

3 - المصدر السابق ص132.

4 - علاء جواد كاظم وايناس رزاق مطيع: الفردانية ومستقبل الجماعات التقليدية/ دراسة انثروبولوجية ميدانية في مدينة الديوانية. مجلة القادسية للعلوم الانسانية مقبول للنشر في 16/ 7/ 2017.

5 - اسماء جميل رشيد: الانتحار في العراق قراءة سوسيولوجية. ورقة غير منشورة مقدمة في سمنار عقده مركز دراسات المراة في ايار 2019.

6 - فاطمة المرنيسي: الخوف من الحداثة. ترجمة محمد دبيات. (دمشق: دار الجندي.1994)، ص13.

7 - نهاوند القادري عيسى: النساء في الفضاءات العامة/ هوامش مضاءة. كتاب باحثات. الكتاب الخامس عشر (جداول لنشر والترجمة. بيروت -2011 ص 161/ 162.

8 - المصدر السابق.

9 - يمثل الفضاء العام مكانا عاما للحوار والمناقشة حول قضايا عامة تؤثر في الأفراد، سياسية كانت ام مجتمعية. وهو بمثابة حيز من الحياة الاجتماعية ينشأ عبر تفاعل الافراد وحواراتهم الحرة والعقلانية مع بعضهم البعض، في مسائل تخص مصالحهم. ويعرفه هابرماس بانه تجمع للأشخاص من النخبة يجتمعون للجدال والنقاش حول مصلحة مشتركة، مؤكدا على ضرورة تشكيل هذا الفضاء لتجاوز الدولة وليكون نواة اساسية لنقد ادائها الوظيفي والسياسي. ينظر: عبد الهادي العجلة: مواقع التواصل الاجتماعي فضاء عام ام خاص. موقع جدلية مارس 2014.

10 - المصدر السابق.

11 - مركز هيردو لدعم التغيير الرقمي: فيس بوك بلا سياسة/ التحول الهيكلي في المجال العام الافتراضي القاهرة 2018.

12 - المصدر السابق.

13 - نهاوند القادري عيسى: مصدر سابق. ص 289.

14 - سمر محمد الدريملي: أثر مواقع التواصل الاجتماعي على المشاركة السياسية للمرأة في فلسطين. رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب جامعة الازهر – غزة 2013 ، ص 67.

15 - جهاد العكيلي. استعمال المراة العراقية لوسائل التواصل الاجتماعي.

16 - سمر محمد الدريملي: المصدر السابق، ص 119.

17 - مقابلة مع المدونة اصيل العزاوي اجرتها الباحثة عبر السكايب في 1/4/2020.

18 - يستعين التحليل بمفهوم (المقاومة) للوصول الى فهم اكثر عمقا للطرائق التي وظفتها النساء للتخلص من سلطة المنع في سياق الاحتجاجات. المقاومة هنا تعني وكما عبر عنها جايمز سكوت اشكال السلوك العادي الذي تعبر من خلاله الفئة الخاضعة عن رفضها للسلطة ولكن بطريقة غير معلنة وخفية ولا تعتمد على مبدأ المواجهة. ينظر: مجموعة باحثات، المقاومة الجندرية .المجلس العربي للعلوم الاجتماعية . بيروت 2019. ص 7.

19 - نقلا عن تقرير نشرته (ناس نيوز) في 23/ 11 / 2019.

20 - مثل عراقي

21 - فارس كمال نظمي، في كتاب الاحتجاجات التشرينية، مؤسسة المدى، بغداد 2020.

الطلبة والنقابات في انتفاضة تشرين لسنة 2019

د .علي مهدي

استطاعت الحركة الاحتجاجية الشعبية السلمية أن تهز اركان السلطة وتجبر رئيس مجلس الوزراء على تقديم استقالته رغم تشبثه بالبقاء. كما أحدثت الحركة حالة من الإرباك والزعزعة في صفوف القوى المهيمنة. استقالة الوزارة مثلت سابقة لم يعهدها النظام السياسي ما بعد عام 2003 ، لتؤكد وبوضوح ان بإمكان الحركة الجماهيرية السلمية ان تفرض اجندتها على القوى السياسية اذا احسنت استعداداتها من ناحية توفير مقومات العامل الذاتي والمتجسد بالإطار السياسي والتعبوي لتنظيم الطبقات والشرائح الاجتماعية المتضررة من نهج المحاصصة والفساد.

لقد كان لمشاركة الطلبة والنقابات في انتفاضة تشرين بثقلهما التنظيمي والجماهيري العنوان الأبرز للحركة الاحتجاجية، حيث يحتلان أهمية كبيرة في توفير مستلزمات العامل الذاتي للانتفاضة، وهذا ما ستتطرق له هذه المادة التي ستتضمن: المقدمات السياسية، مساهمة الشباب والطلبة، مشاركة النقابات والاتحادات.

ونأمل في المستقبل ان نُكرس جهدا لدور الاحزاب، القوات المسلحة، القطاعات الانتاجية والخدمية في نجاح الانتفاضة وانحسارها.

المقدمات السياسية

تتحمل القوى السياسية المهيمنة مسؤولية الفشل في تحقيق التنمية المطلوبة حتى اصبح العراق رمزا للدولة الفاشلة، رغم الموارد الهائلة التي كانت بحوزته. وقد أخفقت هذه القوى، التي سيطرت على مقدرات البلاد طوال سبعة عشر عاما، في تحقيق خطوات ملموسة باتجاه تحسين مستوى عيش المواطنين مقارنة بالموارد التي صُرفت. كل المؤشرات تؤكد، ان العراق ما زال في المواقع المتخلفة من التطور والنمو ومكافحة الفساد، وفي ايجاد بيئة مناسبة للعيش بأمن وسلام.

قد برعت القوى المهيمنة في تصعيد وتيرة الخطاب الطائفي والقومي على حساب مبدأ المواطنة العراقية، لإشغال الشعب بالصراع الطائفي وصرف أنظاره عن الواقع المعيشي الصعب الذي يمر به. وقد سار ذلك بالتزامن مع ظهور طبقات وشرائح اجتماعية تنمو وتسمن وتتزايد مداخيلها بشكل متسارع وتوظف أموالها خارج العراق، مستغلة حالة الفوضى والسلاح الخارج عن نطاق الدولة، لتتقوى به على حساب تطبيق القانون والتجاوز على الدستور.

تنظم الدول الديمقراطية في العالم، المنافسة والصراع في المجتمع، من خلال الانتخابات. ومن خلال الانتخابات يبدي الشعب موقفه بإبقاء الهيئة الحاكمة، اذا حققت تقدما حقيقيا في مستوى حياته، أو يستبدلها عندما لا تحقق البرامج التي وعدت بتطبيقها. وعلى الاخيرة ان تجلس في مقاعد المعارضة، لتقييم نفسها وتتحضر للانتخابات القادمة، بعد ان تقوم بالتغييرات المناسبة من ناحية البرنامج وقياداتها، لعلها تحظى بفرصة أخرى للوصول إلى الحكم.

ما يجري في العراق هو التعكز على الديمقراطية التوافقية التي تتيح لجميع المكونات المشاركة في الحكم، بدل اللجوء الى نظام الأكثرية والأقلية. هناك مبرر لذلك لدورة انتخابية او دورتين، لمواجهة تحديات الانتقال من نظام ديكتاتوري شمولي إلى نظام ديمقراطي. لكن القوى السياسية العراقية المهيمنة وجدت في مشاركة الجميع في الحكم وتقاسم السلطة والثروة، طريقة مناسبة للبقاء إلى امد غير منظور، على حساب الديمقراطية الحقة. إن بقاء الجميع مشاركين في الحكم هو وأد ومقتل للديمقراطية، على حساب التنافس والصراع من اجل الشعب وخيراته. الديمقراطية التوافقية ومشاركة الجميع في الوزارة صارت المجال المناسب للتستر ما بين القوى الحاكمة في ما بينها ووسيلة لغض النظر عن الأخطاء والتجاوزات والسرقات التي يقوم بها أعضاء الطبقة الحاكمة، وهي التي تشرع القوانين التي تؤبد بقاءها. أصبحت الانتخابات في العراق اشبه بالمسرحية المعدة نتائجها سلفا، فلا قانون انتخابي عادل، ولا مفوضية للانتخابات حرة ونزيهة، ولا تفعيل لقانون الأحزاب الذي ينظم عمل القوى السياسية ويتيح للدولة وأجهزتها التدقيق على حسابات الأحزاب المالية ومعرفة مصادرها، وآلية انتخاب قياداتها واتخاذ قراراتها بما ينسجم مع المبادئ الديمقراطية. كما يمنع ان يكون للأحزاب اجنحة عسكرية تستقوي بها على الأطراف السياسية الاخرى غير المسلحة، وعلى المجتمع ايضا. إن اقل ما يقال عن الانتخابات في العراق هو انها عديمة التكافؤ للقوى المشاركة فيها.

هذه الأوضاع احدثت حالة من الاغتراب والانفصام بين القوى السياسية المهيمنة، وبين قطاعات كبيرة من الشعب، وولدت شعورا بالإقصاء والتهميش وخاصة بين العمال والكسبة والشباب والطلبة وشرائح من المثقفين. تجلى ذلك في ظاهرة العزوف والمقاطعة التدريجية المتزايدة عن المشاركة في الانتخابات وبالأخص الأخيرة التي جرت في سنة 2018. حيث كانت نسب المشاركة متدنية جدا، ولولا مشاركة القوات المسلحة بصنوفها وتشكيلاتها المتعددة والعديدة والتزوير، لكانت الأرقام مخيفة. هذا الوضع شكل حالة انفصال وابتعاد واضح ما بين القوى السياسية المشاركة في العملية السياسية وعامة الشعب. فقد وصلت قطاعات كبيرة من الشعب إلى قناعة أن لا جدوى من الخوض في الصراع السياسي عبر الانتخابات، ما دامت تلك القوى مصرة على مواقفها في التلاعب بنتائجها، عبر تشريع قوانين مجحفة ومنافية لمضامين الدستور او من خلال التلاعب في نتائجها.

كثيرون كانوا يؤملون ان تفضي الانتخابات الأخيرة لسنة 2018 الى وجود

رابح سوف يحكم وخاسر سيجلس على كراسي المعارضة. وستكون هذه فرصة لتصحيح مسار العملية السياسية. ومن الجدير بالذكر، أن الحملة الانتخابية شهدت وجود شعارات بتبني حكم الأغلبية الوطنية، والأكثرية السياسية وتجاوز التوافقية، لكن عند اعلان نتيجة الانتخابات والإشكاليات التي دارت أثناءها، وتعطيل عمل المفوضية وقرار إعادة الفرز والصراع الذي دار حول الكتلة الأكثر عددا، وعدم رغبة اي طرف في ان يكون في المعارضة، ويفسح المجال للطرف الآخر في ان يأخذ مسؤولية تشكيل الوزارة، وعدم التقيد بتفسير المحكمة الاتحادية للنص الدستوري للمادة (76). كل ذلك ادى للعودة غير الموفقة للتوافقية السيئة الصيت، اي بقاء نظام المحاصصة، وكأن الانتخابات لم تجر. كل الأطراف أوحت بان السلم الأهلي سيتعرض للخطر اذا لم يشارك في الحكم. وبالتالي أغلقت أبواب الإصلاح والتغيير عمليا، عبر الانتخابات.

على هذه الارضية السياسية اندلعت شرارة الانتفاضة التشرينية الباسلة بعد مجموعة حركات ووقفات احتجاجية في مناطق متفرقة من العراق. انضم اليها خريجون وشباب عاطلون عن العمل وكسبة وطلبة ومثقفون من الرجال والنساء، خرجوا باحتجاجات ومظاهرات واعتصامات ليبحثوا عن وطن سلبته أقلية حاكمة.

المشاركة الواسعة للشباب والطلبة:

في كل الانتفاضات في العالم، شكل الشباب وعلى مرّ التاريخ وقودها المتوهج. مع ظهور المجتمع ما بعد الصناعي واتساع مجالات الثورة العلمية والتكنولوجية وزيادة عدد المدارس والجامعات، اصبح الطلبة الشريحة الأكثر عددا وتنظيما في الحركات الشبابية.

ما يميز انتفاضه تشرين عن غيرها من الاحتجاجات السابقة ما بعد الاحتلال وتغيير النظام عام 2003 هو المشاركة الواسعة للشباب والطلبة، حيث يشكل الشباب 60 % من سكان العراق. وما يدعو إلى التوقف والتأمل في هذه الانتفاضة، هو الحضور الطلابي؛ فقد بدل تواجدهم باعداد كبيرة طبيعة هذه الحركة الاحتجاجية، بعد ان ساد شعور لدى الكثيرين من الباحثين والعاملين في الشأن السياسي بأن القسم الأعظم من الطلبة غير معنيين بالشأن العام، ويسودهم شعور من اللامبالاة لما يدور في الوطن. لكن هذه المشاركة الواسعة بددت هذا الوهم ومشاعر اليأس والإحباط وأعادت الأمل لمجد الحركة الطلابية العراقية والتي كانت دائما في الصفوف الأولى في كل المواجهات التي قام بها شعبنا ضد الاستعمار واذنابه منذ تشكيل الدولة العراقية. وهذه اول مرة تنبثق فيها حركة طلابية بهذا العدد والاتساع والتنظيم والحماس والإقدام المنقطع النظير، رافعةً الشعارات الوطنية العابرة للطوائف والقوميات والأديان. وكان حضورهم كثيفا في ساحات الاعتصام والاحتجاج في بغداد والمحافظات عبر مسيرات راجلة ينطلق قسم منها من مواقع الدراسة وبشكل منظم بملابسهم المميزة. هذا الحضور كان له أثر كبير في الهيبة والمكانة الرفيعة التي احتلتها الانتفاضة في مشاعر ونفوس العراقيين. ولذلك تعذر

على القوى المهيمنة، النيل منها بشكل مباشر. الكل وبلا استثناء أكدوا على مشروعية هذه الانتفاضة ومطالبها.

فجر الانتفاضة الطلبةُ من خريجي الدراسات العليا. تلك الشريحة الاجتماعية الأكثر تعليما ونضجا التي نمت عدديا[1]. فجروها عند اعتصامهم أمام مجلس الوزراء، باحثين عن عمل يضمن مستقبلهم بعد معاناة طويلة من الدراسة والبحث. وقد جوبه الاعتصام برد فعل عنيف لا يليق بمكانتهم ومستواهم العلمي. فقد أغرقت القوات الأمنية اجساد الطالبات بالمياه الساخنة.. هذا المشهد واللقطات التي عكسته اثارت سخط واستهجان كل العراقيين وامتعاضهم.

المشاركة الواسعة للطلبة في الانتفاضة التشرينية عكست ظواهر عديدة:

- التنامي الملحوظ في موارد عدد غير قليل من طبقات وشرائح المجتمع، وخاصة من الفئات الوسطى، بعد سقوط النظام البائد ورفع الحصار عن الشعب وزيادة الموارد المالية لميزانية الدولة.. كل ذلك وفر الفرص والإمكانيات لزيادة عدد الجامعات والمعاهد والثانويات الحكومية والأهلية. وقد وصل عدد الطلبة المقبولين فيها الى أعداد لم يشهدها العراق سابقا بفعل الإقبال المتزايد على التعليم والدراسة، وذلك للمكانة التي يحظى بها الفرد في المجتمع من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فقد بلغ عدد طلاب المدارس الثانوية (2933590) اي ما يقارب الثلاثة ملايين. أما عدد طلبة المعاهد والجامعات فقد وصل إلى (822057) من ضمنهم (35055) المقبولين في مقاعد الدراسات العليا. وبذلك يصبح العدد الإجمالي لطلاب الثانويات والمعاهد والجامعات بما يقدر بـ(3755647) للعام الدراسي 2017 - 2018. يضاف إلى ذلك أعداد غير قليلة من الطلبة المقبولين في الجامعات، خارج العراق وعلى حساب الدولة او النفقة الخاصة، حسب الجهاز المركزي للإحصاء[2].

- هذا العدد الكبير الذي قد وصل الان إلى ما يقارب الأربعة ملايين طالب شكل نسبة سكانية عالية من مجموع الشعب العراقي. وهذا يعكس الدور الكبير المناط بهذه الشريحة في التغييرات المطلوبة لمسار البلاد، اذا ما وعت وأدركت طبيعة وضعها ومستقبلها أمام التحديات الصعبة التي تنتظرها.

- ما يتميز الطلبة عن بعض الشرائح الاجتماعية الأخرى هو تقبلها وممارستها السلوك الحضاري. وهي الأكثر اندفاعا وقبولا وتطلعا للحياة المدنية المعاصرة. يستمد هذا التطلع من المؤسسات التعليمية المرتبطة بالعلوم والآداب والفنون والانفتاح على اهم المنجزات العلمية في العالم في تلك الميادين. الجامعات في اغلب دول العالم تمثل اعلى مراتب المجتمع حضارياً، وكوادرها التدريسية هم من اكثر الناس حيادية عن السياسات الحكومية.

انعكست مشاركة الطلبة على الانتفاضة التشريعية بمظاهر الاهتمام بالشكل الخارجي والملابس وبنظافة الساحات ورسم اللوحات الجدارية. وقد ميزها هذا عما حصل في الانتفاضات السابقة. وتتصف شريحة الطلبة بالميل نحو كل ما هو جديد، الانفتاح على الحداثة لمختلف التخصصات ومواكبة القيم العصرية. الطلبة من اكثر

شرائح المجتمع ابتعاداً عن التمسك والتقييد بالعادات والتقاليد والأعراف البالية.

- حضور الطالبات الكثيف في الانتفاضة، يدعو للإعجاب. وقد عبّر هذا الحضور عن المكانة المتنامية للمرأة العراقية ومشاركتها في النشاطات العامة. وشكل ظاهرة غير مسبوقة في تاريخ العراق من ناحية الاعداد والتنظيم والحماس والتضحية التي تجسدت باستشهاد عدد من الطالبات. من ابرز تجليات هذا الحضور المشاركة الواسعة للنساء والطالبات، بشكل خاص في العاصمة بغداد وعدد من محافظات الوسط والجنوب في المسيرات الحاشدة للاحتفال بمناسبة يوم المرأة العالمي. وقد ركز الإعلام على دور المسعفات البطولي بسحب الشهداء وإنقاذ الجرحى والتواجد الدائم في خيم الإسعافات الطبية.

- من سمات مشاركة الطلبة الواسعة في الانتفاضة هو تجردها عن الانتماءات الطائفية، الذي تجسد من خلال الإعلاء من شأن الرموز الوطنية، كالتأكيد على رفع العلم العراقي، كتابة الشعارات التي تمجد الوطن والسيادة، ابعاد العراق عن ان يكون ساحة للصراع بين الدول، عدم الانحياز إلى اي دولة سوى العراق، كذلك الرسومات التي ملأت الجدران والتي اكثرها اختص بخارطة العراق وصور الشهداء. التنوع الطائفي في تركيبة الطلبة، كان هذا واضحا في بغداد العاصمة، التي تسكنها كل الأديان والطوائف.

- تمتاز شريحة الطلبة، وبالأخص الجامعيين منهم، بالانتماء المهني والذي ينعكس على سلوكهم؛ إذ يميل الطلبة إلى نمط خاص بالتفكير، وقابليتهم العالية على الحوار والتأثر بالجديد من الأفكار والقيم. المتغيرات في الاتجاهات الفكرية والسياسية ترتبط بالحركات الطلابية على مستوى العالم اكثر مما هو لدى الطبقات والشرائح الاجتماعية الأخرى. وما يميز الحركة الطلابية، تعدديتها الفكرية والسياسية وعدم ارتباطها بطبقة واحدة. ولهذه الخاصية تداعياتها الإيجابية والسلبية. فكلما كانت الأفكار والرؤى متقاربة، كلما كانت هناك إمكانية أفضل للتنسيق والعمل المشترك، والعكس صحيح. ولهذا سنكمل نصف سنة الانتفاضة، ولم تظهر لحد هذه اللحظة، قيادة مشتركة لها تعبر عن تطلعاتها.

احد عوامل تفاعل الطلبة بهذه الكثافة، هو الخوف من المستقبل، بعد تردي الاوضاع الاقتصادية. فقد وصل عدد العاطلين عن العمل إلى مستويات غير مسبوقة بين صفوف المتخرجين من الطلبة. حيث وصل عددهم إلى (151802) للعام الدراسي 2017 - 2018 من الجامعات والمعاهد العراقية فقط[3]. والأرقام بالتزايد بمعدل تقريبي 5% سنويا. البطالة هي أحد الهواجس الكبيرة التي تعتمل بصدورهم. وليس بغريب ان شرارة الانتفاضة بدأت من الخريجين.

لعبت وسائل التواصل الاجتماعي، التي أجاد الطلبة استخدامها، كأداة مهمة للتعبئة والتحشيد. فمن خلال هذه الوسائل تنبثق حركات وأنشطة غير منظمة. وبالتالي عدم وجود هياكل تنظيمية، وغالبا ما تسعى الى الدعم والمناصرة او اثارة الاحتجاجات على السياسات القائمة، ويتسم تبنيها للأهداف بالمرونة العالية، فأحيانا تظهر كمعارضة ومن ثم تهبط في نشاطها وتختفي ومن ثم

تعود بأهداف اخرى، وهي تحظى بقاعدة جماهيرية افتراضية مناصرة كبيرة ومتغيرة مما لا يسمح بحدوث انشقاقات داخلية. كما انها تتمتع بقدرتها على التوعية والتثقيف بشكل اكبر من الحركات التقليدية لما توفره من تداول للمعلومات بشكل اسرع[4]. ولهذا فان الروح الجماعية هي السارية في عملهم لعدم وجود تراتبية تنظيمية تؤطرهم، ونادرا ما نجد قائدا يستمر بشكل دائم يوجه نشاطاتهم. ان الكَروبات عبر الواتس آب والوسائل الاخرى التي تعطي حيزا متكافئا للمشاركة وإبداء الرأي، هي التي تساعد في اتساع المشاركة وبلورة الاهداف والخطاب المشترك. ومما يؤخذ على هذا الشكل من الحراك، هو انه ينتهي بتحقق هدفه الآني، وعدم تبلور اواصر من العلاقات الكفاحية العميقة، كما هي في اعضاء الاحزاب السياسية، التي تديم تواصل نشاطاتها من قوة هذه الاواصر، والتي يعمقها التنظيم الحزبي التراتبي.

من خصال الشباب روح الإقدام والاقتحام والاندفاع العاطفي غير عابئ للمخاطر المحدقة بمصيرهم. وقد كان هذا احد اسباب تواصل واستمرار الانتفاضة. والتحدي هو رد الفعل على العنف المفرط المستخدم والوفاء للشهداء والجرحى. جيل الشباب الحالي لم يتلبسه الخوف الذي كان جاثما على صدور معظم العراقيين ابان النظام البائد المعروف بقسوته. فقد واجه الشباب القوى الأمنية وما يسمى بـ(الطرف الثالث) بروح ثورية قلما شهدها العراق والمنطقة. فقد تحولت ساحات وشوارع الاعتصام إلى ساحات حرب أهلية انتقلت رحاها إلى المحلات بين الأزقة والبيوت، وسط تعاطف ومؤازرة من قبل العراقيين ـ نساء ورجالا ـ وفي لقطات سيخلدها التاريخ، وخاصة تلك المرأة التي كانت توزع المناديل الورقية على المنتفضين لتجاوز آثار القنابل المسيلة للدموع.

الفترة الأولى من الانتفاضة، جل ابطالها من الشباب العاطلين عن العمل والطلبة والكسبة، وبعض شرائح المثقفين. وكان هناك حضور لافت للمرأة ووجود لممثلي بعض الاتحادات والنقابات. وكان لأصحاب الستوتات من صغار السن، دور بطولي وملهم في نقل الشهداء والمصابين.

استطاع الشباب بعد الصمود أمام الأجهزة الأمنية من تحويل ساحات الاحتجاج إلى ساحات اعتصام دائم، وتحولت بمرور الوقت إلى مثابات للانطلاق ولاستقبال الحشود القادمة من المدارس والجامعات ومن مختلف مؤسسات الدولة حتى أصبح مزارا لكل العراقيين وخاصة المطعم التركي في الفترة الأولى.

مساهمة النقابات والاتحادات المهنية في النظم الشمولية

الديكتاتورية الفردية، والمؤطرة بنظام الحزب الواحد الشمولي، حولت المنظمات والنقابات إلى مظلة للتحشيد والتعبئة والتسويق لرأس النظام وأركانه والتبشير بسياساته. وفي ظل حكم الحزب الواحد تسود التنظيمات ذات التمثيل الاحتكاري بدون وجود اية تنظيمات رديفة منافسة. وغالبا ما يتم تعيين القيادات بقرارات فوقية دون حد ادنى من المنافسة. ويعم الانفصام ما بين قيادات هذه المنظمات

وقواعدها. اما مؤتمراتها فهي اقرب إلى مسرحيات تتم كتابة حواراتها وإخراجها بشكل مسبق بين منظمات الحزب الحاكم المعنية والأجهزة الأمنية، ودون أية مناقشات جدية، يتحتم وما على الأعضاء الا تأدية دور الكومبارس. ولهذا فان اغلب قيادات تلك النقابات والاتحادات يميلون إلى التعامل الفوقي والبيروقراطي والأوامرية مع الكوادر والأعضاء، وليس هناك وشائج من الانتماء المهني والروح التضامنية، لأنهم وجدوا في تلك المواقع بحكم اختيارهم من قبل الحزب الحاكم وليس لشعبيتهم التي يتمتعون بها بين الأعضاء. عادة لا يكون لهذه المنظمات اي دور في (المكرمات) التي يقدمها رأس النظام لأعضائها، ويتم ذلك بشكل مقصود، أولا لتبييض صفحة رأس النظام وتربيتهم على الانتظار، لما يجود به من مكارم، وثانيا، لإضعاف الجانب المطلبي لهذه المنظمات ومسخ مكانتها المعنوية كمنظمات تعني بالدفاع عن حقوق أعضائها. ان ما تتميز به المجتمعات ذات النظم الشمولية والتسلطية والديكتاتورية عن غيرها من النظم الديمقراطية هو إخفاء الصراعات العلنية، ولجم المنافسة بين الفرقاء لتحقيق المصالح المتنوعة والتي تتم عبر التنظيمات الخاصة بالشباب والطلبة والاتحادات والنقابات ومنظمات المجتمع المدني. ان المطلوب في هذا المجال هو اتباع المفهوم العلمي الصحيح، الا وهو اعتراف السلطة بتعددية المصالح العاملة في تحريك الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاعتراف بشرعية تنظيمها وحرية إظهارها[6]...

وهذا هو السبب الرئيسي لحالة الانفصال بين قيادات هذه المنظمات وقواعدها، التي أصبحت جزءا تابعا للحزب الحاكم وأجهزته الأمنية. بعد سقوط هذه الدكتاتوريات تترك جموداً يلف عموم الحركة الجماهيرية التي تضم في صفوفها الاتحادات العمالية والجمعيات الفلاحية والاتحادات الشبابية والطلابية وكذلك النقابات المهنية والجمعيات التي تعني بالبيئة وحقوق الإنسان وغيرها من التنظيمات.

في التحول الديمقراطي

عملية الانتقال من النظم التسلطية والشمولية إلى مرحلة النظام الديمقراطي، تمر بمراحل صعبة. لهذا تعاني مجتمعات دول التحول الديمقراطي في البدء ومنها العراق من بعض مظاهر النظرة السلبية تجاه العمل في تلك المنظمات، والتي من مظاهرها حالة اللامبالاة وعزوف شرائح من المجتمع في التعاطي الإيجابي مع النشاطات الجماهيرية، حيث لم تتعود تلك الشرائح والفئات على ان يكون لهذه المنظمات دور فاعل في تلبية مطالبها. هذه الشرائح لم تخض نضالا مطلبيا، ولا يسمح لها بذلك، فالمتحقق الذي تتمتع فيه، جاء عبر قرارات فوقية وبمثابة هبة من السلطات الحاكمة ومكرمة من رأس النظام، ولهذه الأسباب لم يتح للنقابات تعلم صياغة مطالبها أمام الجهات المعنية وخوض صراع جدي حولها، ولم يبرز منها قيادات قادرة على اداء دورها، تمتلك من الخصال الشخصية والمعرفية والخبرة النضالية والاستعداد للتضحية، ما يؤهلها لتجر خلفها هذه الفئات والشرائح الاجتماعية، لأجل

خوض المعارك المطلبية، لكي تشعر انها المعنية في تحقيق مطالبها المشروعة، لا تأتيها من فوق. ان هذه الحركية هي الأساس في نشوء المجتمع المدني الحر المبني على التعددية والتنافسية والاستقلالية. ويعبر هذا التحول عن حركة مستمرة تهدف إلى تطوير السياسات العامة للدول من اجل بناء مجتمع قائم على المشاركة والمواطنة. وهذا مما يدفع في النهاية إلى بناء دولة مدنية(5). وتعتبر النقابات والاتحادات المهنية ومنظمات المجتمع المدني قاطرة لعملية التحول الديمقراطي؛ فعندما تتشكل الممارسات والقيم الديمقراطية وتتوطد في هذه التنظيمات ستكون الضمان لانتقالها، لكل مؤسسات الدولة، وعدم نكوص البناء الديمقراطي.

في الانتفاضة

ساهمت النقابات والاتحادات المهنية بدور مشهود وفعال في الانتفاضة. وقد شكلت هذه المشاركة بداية تبلور رؤى مشتركة ومستقلة لهذه المنظمات تجاه الأوضاع الجارية في البلاد، بعيدا عن الانعزالية المهنية والفئوية. وهذه اول مرة تزج النقابات والاتحادات نفسها بهذا الثقل العملي في الصراع الدائر حول مستقبل البلاد غير آبهة بموقف القوى المهيمنة منها.

أعلنت بعض النقابات تأييدها لدعوة الاعتصام في الأول من تشرين الأول، وقد حضرت بعض قياداتها في اليوم الأول، وكذلك في يوم 25 تشرين الاول. ومن ثم عبّرت عن مساهمتها في الانتفاضة من خلال إصدار بيانات الإدانة لقمع المتظاهرين وأعلنت وقوفها مع مطالبهم. تطورت تلك المواقف للنقابات والاتحادات إلى الدعوة للإضراب العام بالتزامن مع تزايد شدة القمع بحق المتظاهرين وسقوط أعداد من الشهداء والجرحى وعمليات الاعتقالات والخطف والاغتيالات.

دعت نقابة المعلمين التي تضم ما يقارب 600 الف معلم إلى الإضراب المدني في 28 تشرين الأول لمدة أسبوع. ورغم الضغوطات والتهديد بالاعتقال والفصل، مددته إلى أسبوع اخر قبل ان تنهي الإضراب وتعلن العودة إلى العمل في 8 تشرين الثاني، حفاظا على سير العملية التربوية.

اما نقابة المحامين فقد دعا نقيبها ضياء السعدي، الأعضاء للإضراب لدعم المنتفضين بتاريخ 29 تشرين الأول. ودعا إلى الامتناع عن الترافع، أمام جميع المحاكم القضائية بكل أنواعها ودرجاتها، وان يستمر المحامون بالدفاع عن المتظاهرين السلميين الموقوفين والمعتقلين، وبما يؤمن إطلاق سراحهم. وبعد يوم من هذا صدر بيان مشترك عن 15 من نقابات واتحادات بتاريخ 30 تشرين الأول 2019، وتضمن 7 فقرات، تدعو إلى استقالة الوزارة، وإيقاف الإجراءات التعسفية بحق المتظاهرين والكشف عن الجناة، والقيام بإصلاحات جوهرية للنظام السياسي. وهذا ما اضطر الحكومة للتفاوض مع بعض النقابات والاتحادات، والاستجابة لبعض المطالب.

وقد تميز دور الفنانين والشعراء والأدباء والإعلاميين في دعم الانتفاضة من خلال مشاركة تنظيماتهم المهنية في البيانات

التي صدرت بشكل مستقل او مع النقابات والاتحادات الأخرى. وكان لحضور عدد منهم إلى ساحة الاحتجاج وتغطية الأعمال البطولية للمنتفضين وإبراز صور الشهداء والجرحى الدور المؤثر في رفع معنويات المنتفضين، وفي اتساع حملات التضامن على مستوى العراق والخارج. وكان للمثقفين الدور البارز في الفعاليات والنشاطات الثقافية عبر إصدار النشرات، إقامة المحاضرات، عقد الحوارات، ومعارض الكتب في ساحة التحرير ببغداد، وساحات الاحتجاج في المحافظات. وكان لاتحاد الأدباء والعديد من منظمات المجتمع المدني المعنية بالثقافة وحقوق الإنسان والصحة والبيئة وبعض الخيم وغيرها، النصيب الأكبر في تحقيق ذلك. وقد اضافت أنامل الفنانين النكهة الجمالية والحضارية لأجواء الانتفاضة برسم اللوحات والجداريات والكتابة والتلحين والغناء، وسمبوزيوم (منتدى) الفن التشكيلي.

لقد كان لهذه النقابات مواقف في الحراك الاحتجاجي لسنتي 2011، 2015، لكن التواجد هذه المرة كان له الأثر الكبير في بروز الطابع التنظيمي للانتفاضة 2019. وقد تلى ذلك في صياغتها المطالب والأهداف وعبر البيانات الفردية والمشتركة بما يتناسب مع ايقاع احداث الانتفاضة. وكان لحضور جماهير هذه المنظمات الصدى الكبير في اتساع المشاركة الجماهيرية.

القيادات في الحركة النقابية، تمثل قطاعات معروفة عدديا ونوعيا، ولها ثقل كبير في المجتمع وقد حازت على مواقعها بشرعية عبر انتخابات ديمقراطية. هذه القيادات عبرت بشكل مميز عن مطالب المنتفضين عبر وسائل الإعلام والتواجد الميداني. ولكن بسبب وزنها الاجتماعي، تعذر على الاجهزة الامنية الرسمية وغيرها المتصدية للانتفاضة، ان تقوم باعتقالها او اختطافها او اغتيالها، كما جرى للكوادر الاخرى في الانتفاضة، لان ذلك سيهيج ويثير غضب النقابات التي يمثلونها في ظل اجواء هائجة، وتحرجهم أمام الرأي العام العراقي والعالمي. قسم من هذه القيادات يتصرف باستقلالية كاملة عن الحكومة، وبعضها استقل عن انتماءاته الحزبية. وهذه الظاهرة لم تألفها الحركة النقابية في العراق. وهذه هي بذور اجواء فترة التحول الديمقراطي التي تفتحت ما بعد التغيير لسنة 2003 والتي اتسمت بالحرية النسبية والتعددية والانتخابات الحرة والاستقلالية عن الحكومة، وعدم احتكار تمثيلها لحزب او اتجاه واحد.

ومن خصائص النقابات والاتحادات ذات التأثير الجيد والمحسوس في نشاطها وحضورها هو وحدتها، فكلما تكون هناك نقابة واحدة او اتحاد واحد يمثل شريحة او مهنة او فئة، كلما يكون تأثير هذه النقابة اقوى والعكس صحيح. ولهذا كان لدور نقابة المعلمين اثر مدوي ومسموع يحترمه ويخشاه الجميع، وكذلك بالنسبة الى نقابة المحامين.. هذه الوحدة لا نجدها بنفس التأثير في تمثيل الطبقة العاملة التي يمثلها اكثر من اتحاد. هذا التوزيع كان احد الاسباب في ضعف مساهمة الطبقة العاملة في القطاعات الخدمية والإنتاجية في مجريات الانتفاضة بالمقارنة مع دور المعلمين والمحامين والأطباء البيطريين وغيرهم. وبالرغم من ايماننا العميق بالتعددية التي

اقرها الدستور، لكن نتمنى ان تكون هذه التعددية داخل الاتحاد نفسه.

لو نظرنا للتجربة السودانية، سنجد ان تجمع المهنيين السودانيين يضم نقابة اساتذة جامعة الخرطوم بالإضافة إلى الجماعات المهنية في قطاعات الإعلام والصحة والقانون والتعليم المدرسي.. ان لهذا التجمع الدور الريادي مع اثنتين وعشرين هيئة، ومن بينها احزاب وتجمعات وجمعيات، بتأسيس (قوى إعلان الحرية والتغيير) الذي قاد نضال الشعب السوداني، واجبر القوات المسلحة على الانحياز للجماهير واعتقال رأس النظام. الشعب العراقي وقواه الرافضة لنهج المحاصصة والفساد بحاجة إلى رمز تلتف حوله، وتسير خلفه لمواجهة الأقلية الحاكمة. وكان على قيادات النقابات والاتحادات ان تأخذ زمام المبادرة على عاتقها وبالتشاور مع التنسيقيات في ساحات الاحتجاج، ليكون لها الدور الكبير في رسم مسار الانتفاضة، وتساهم بفعالية في صياغة الاهداف المطلوبة، وكذلك تحديد الاشكال والوسائل التنظيمية المناسبة. تحقق ذلك عبر تشكيل تنظيمي، يؤطر فعاليات المنتفضين وتشخيص القيادات التي لها القدرة والثبات للتعبير والتحدث باسمها.

لقد تبين ان مشاركة الطلبة والنقابات في انتفاضة الأول من تشرين الاول، وسعت البعد الجماهيري الوطني والطابع التنظيمي للانتفاضة. وحققت انجازات لم تتحصل عليها الاحتجاجات الجماهيرية التي سبقتها. ما تحتاجه الحركتان، الطلبة والنقابات، هي الوحدة ضمن اطار من التعددية في كل فئاتها والتنسيق فيما بينها لضمان التقارب والعمل المشترك وإرغام السلطات الحاكمة لسماع صوت الشعب وتحقيق الإصلاح والتغيير في تركيبة النظام السياسي.

الهوامش

1 - فقد وصل عدد الخريجين منهم الى (31932) للسنوات الاربع الاخيرة (2014، 2015، 2016، 2017) حتى العام الدراسي 2017 - 2018.

2 - http://www.cosit.gov.iq/ar/2013-02-25-07-39-31

3 - http://cosit.gov.iq/documents/education/reports/gra

4 - د.عواطف علي خريسان، الحركات الاجتماعية الجديدة، مجلة آداب المستنصرية، العدد 76/ 2016، ص255.

5 - د. ايمن السيد عبد الوهاب، المجتمع المدني وعملية التحول الديمقراطي، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، القاهرة، 2012، ص 83.

6 - سمير امين، مستقبل ثورة مصر، دار العين للنشر، القاهرة، 2015، ص78.

انتفاضة أكتوبر ونهاية الأيديولوجيا

فالح مهدي

انطلقت حركة الستر الصفراء في فرنسا على نحو تلقائي نتيجة رفع أسعار مشتقات الوقود في أكتوبر من عام 2018 وتحولت إلى زوبعة اجتماعية وسياسية. فقد أكد المتظاهرون انهم لم يخرجوا من اجل خفض أسعار الوقود، بل لتحسين مستوى معاشهم وإعادة النظر بكل العملية السياسية. واستمرت تلك الحركة العظيمة التي رفضت الانضواء تحت أية ايديولوجيا، لأكثر من سنة قبل ان تضمحل. في بداية ذلك الحراك والصراع الدائر حول حفظ البيئة، تم رفع أسعار مشتقات الوقود بتأثير التنظيمات البيئية. احد المتظاهرين قال عبارة لخصت ليس الحاضر والمستقبل، بل الملموس والمتخيل، حيث قال "أنا لا أفكر بنهاية العالم بل بنهاية الشهر".. هذه العبارة التي انطلقت وبشكل عفوي من رجل بعيد عن عالم الثقافة والفكر عبرت وعلى نحو مذهل عن طبيعة الصراع بين الحقائق المعاشة والإيديولوجيات. لقد اكتشف المرفهون الفرنسيون ان هناك شريحة مهمة من أبناء جلدتهم يعيشون ببؤس. تلك العبارة التي أطلقها احد الغاضبين أرادت ان تقول لا يهمني موضوع البيئة وما ستؤول اليه، ما أفكر به هو كيف سأعيش إلى نهاية الشهر.

عنوان هذا المقال، يكشف عن تلقائية ثورة الشباب العراقية. صحيح ان هناك مقدمات، فقد كان هناك حراك في عام 2011 وفي 2015. كما حدثت مظاهرات استمرت عاماً في المدن ذات الغالبية السنية ضد حكومة المالكي وسياسة التمييز الطائفي. أما في 2015 فكان نتيجة اندلاع شرارة الاحتجاجات في مدينة البصرة في تموز من ذلك العام، بسبب انقطاع التيار الكهربائي، وعدم توفر مياه صالحة للشرب وتردي الخدمات. ومع تطور ذلك الاحتجاج تمكن المحتجون وعبر شعار" الإصلاح" من تشكيل حركة ذات زخم عظيم في ساحة التحرير في بغداد. ساهمت في الاحتجاجات ثلاث فئات: الحزب الشيوعي وقوى اليسار المقربة منه، والثانية الليبراليون غير المنضوين في أحزاب، لكنهم يعبرون عن مقاربات فكرية تركز على قضايا الحرية ومعاداة الإسلام السياسي، والثالثة تمثل شرائح شعبية غاضبة على الطبقة السياسية، ويشكل هؤلاء معظم المحتجين. كانت تلك الانتفاضة بعيدة عن الشعارات الطائفية، إذ حملت شعاراتها منهجاً وطنيا وعلمانيا لكي يرى العراق النور، بيد انها لم تتمكن من تكوين قوى فاعلة على مستوى الفهم

والتنظير لتحويل ذلك الزخم الاحتجاجي إلى رؤية سياسية واضحة. فكما نعلم ان الاحتجاجات تمت تحت سقف الإصلاح، إنما فشلت في تحديد مضمون ذلك الإصلاح ومستواه وماهيته وأبعاده.

وقد تم احتواء ذلك الحراك من قبل قوى الإسلام السياسي التي ركبت الموجة بالتنسيق مع مجموعة من المدنيين من اجل النزول إلى ساحة التحرير، وقامت بتبني موقف مناوئ للمحاصصة وناقد للطبقة السياسية، وداع إلى نظام رئاسي، بدلا من النظام البرلماني. وكرد نزل التيار الصدري إلى ساحة التحرير منددا بالفساد! (راجع مقال حارث حسن: الحراك العراقي في الجنوب: الديناميات والمآلات. مركز الجزيرة للدراسات ، في 19 - 11 - 2015).

هذه الحركة العظيمة، التي عقدت عليها آمال عظيمة، مثلت تيارات مدنية فعلا قبل ان تحتويها العناصر الموالية لإيران، ثم انتهت بقيادة حشد كبير من الصدريين ومن التيار المدني، اي مستقلين وشيوعيين وليبراليين، لاقتحام المنطقة الخضراء، ثم توقفت الحركة عندما طلب الصدر من أتباعه إنهاء ما قاموا به، وقفل راجعا معتبرا ما قام به يمثل (جرة أذن).

شكلت هذه النهاية انتكاسة للحراك المدني بكل فصائله. وبدلا من دراسة هذا التذبذب والانتكاسة تشكل تحالف (سائرون) لخوض انتخابات عام 2018، وتم الترويج لذلك التحالف من قبل مثقفين وأحزاب وشخصيات وطنية وكأنه الأمل المنشود.

عفوية الانتفاضة

أعظم ما حملته انتفاضة ٢٠١٩ العظيمة للذاكرة أنها بدأت بمطالب بسيطة، لكن العنف السلطوي الذي جوبهت به، غير مجرها وشعارها، فخرجت من شعار توفير العمل إلى شعار (أريد وطناً).. هذا الشعار اخرج الانتفاضة من المطالب الضيقة إلى مطلب واحدٍ، يلخص الأزمة العميقة التي يمر بها العراق منذ عام 2003، فشعار "أريد وطناً" يتمثل بسن قانون انتخابات جديد، اعادة النظر بالدستور، وحل البرلمان". ويمثل هذا الشعار المختصر إنهاء الرثاثة التي قامت على توزيع المغانم بين أطراف العملية السياسية من سنة وشيعة وأكراد، أي التفكير ببناء هذا البلد المتهدم.

في الندوة التي أعدها وحررها زهير الجزائري وأسماء جميل بعنوان (مع المتظاهرين في ساحة التحرير: كيف عرفت؟ لم تظاهرت؟ ماذا حدث؟ وماذا تتوقع؟) مادة تستحق التأمل. ومع ان عدد المشاركين لا يتجاوز 25 متظاهرا، إلا أن الندوة تكشف نتائج مهمة:

- معظم المنتفضين شباب، لا تتجاوز أعمارهم العشرين عاماً، عبروا ببراءة عن الأسباب التي أدت بهم للالتحاق بركب ذلك الحراك العظيم. احد الشباب يعبر عن الأسباب التي دفعته للانخراط ودون خوف من الموت او الخطف، على النحو التالي "عندما رأيت صديقي وعمره ١٧ عاماً وسط الجسر. أطلقت عليه النار، وهو يلوح لهم بالعلم ويهتف: سلمية!" تغير شيء في

داخل هذا المتظاهر الشاب. شعر إن الوطن يهان. "ما فائدة أن أحصل على عمل، في وطن مهان؟!". "صعدت الغيرة في داخلي عندما رأيت كيف تعاملوا مع ذوي الشهادات أساتذة ودكاترة ومهندسين رشوا عليهم ماء حار. ما من وطن محترم يعامل أبناءه بهذا الشكل المهين". عبارة (أريد وطن) حلت محل (أريد عمل) وعندما أقول (أريد وطن أعني أريد وطنا عن حق، وليس وطنا منتهكا يتدخل الكل في شؤونه)، "خرجنا للتظاهر بسبب الخوف من المستقبل في بلد كل معامله متوقفة و يعتمد كليا على عائدات النفط. ماذا سيحصل إذا توقف النفط؟".

هذه العبارات الصادقة والبعيدة عن الأنماط الإيديولوجية المعدة سلفاً، تكشف جوهر وطبيعة هذه الانتفاضة. نعم، انطلقت تلك الاحتجاجات في البداية لمجموعة من المتعلمين في الدارسات العليا بحثا عن عمل وفي اختصاصات يحتاجها البلد كل الحاجة، لو كان واقفاً على قدميه، ولكن مظاهرة حملة الشهادات جوبهت باستهتار قلّ نظيره، اذ تم رميهم بالمياه الساخنة.

في هذه النقطة تلتقي الانتفاضة العراقية مع حركة السترات الصفراء الفرنسية، فكلتاهما عفويتان، انطلقتا تعبيراً عن هموم حياتية، انما تحولتا إلى سيل جارف يبحث عن وطن يحترم أبناءه في العراق وإعادة النظر بالنظام السياسي القائم منذ الحرب العالمية الثانية في فرنسا. الحركتان وجهتا للطبقة السياسية لطمة إيقاظ من سبات طويل. هناك فرق كبير بين النظام في البلدين. فرنسا بلد مؤسسات، لذا تمت تلبية الكثير من مطالب المنتفضين. ومع ما صاحب حركة الستر الصفر من عنف، انما لم يقتل احد من المتظاهرين، مع العلم أن الطفيليين الذين دخلوا من اجل السرقة وإحداث فوضى أساءوا كثيرا لتلك الانتفاضة. أما في العراق فقد واجهت السلطة الرثة المتظاهرين السلميين بعنف غير مسبوق، فتجاوز عدد من قتل 700 بطل، عدا الجرحى والمغيبين والمختطفين الذين تجاوز عددهم 25 ألفا.

أهم ما يميز انتفاضة اكتوبر هو عفويتها وعدم خضوعها لأي ايديولوجية، عكس الاحتجاجات التي سبقتها، لاسيما تلك التي قامت في عام 2015 التي كانت تطالب بإصلاح النظام السياسي، وهي على يقين ان النظام عاجز عن إصلاح نفسه.

كل الحركات السياسية والانتفاضات التي قامت في العراق بعد تأسيس الدولة العراقية في عشرينيات القرن الماضي كانت ذات طابع إيديولوجي. هذه في تقديري هي المرة الأولى التي تقوم حركة، بل اهم حركة في التاريخ المعاصر، دون الاستناد إلى أية إيديولوجيا. هناك نقطة أخرى ان جل النشطاء شباب، ولدوا في غالبيتهم العظمى بعد عام 2000 !

لماذا فشل مفهوم الإصلاح

ولد هذا النظام الذي جاء به المحتل وهو غير قابل للحياة. فقد حكم هذا البلد المنهك من قبل جماعات لا جامع بينها سوى الدفاع عن مصالحها والبحث عن مزيد من المغانم.

ومع تهرؤ النظام السياسي وعجز المكون الشيعي عن اختيار مرشح بعد الفشل الذريع الذي واجهه عادل عبد المهدي في قيادة دفة الحكم، فإن إمكانية الإصلاح من داخل النظام صارت مستحيلة، كما أثبتت الوقائع الأخيرة. ففي لغة فقهاء علم السياسة يعني مصطلح" إصلاح الدولة" القيام بإنجاز تشريعات تتعلق بالقوانين التي تحكم عمل الدولة عبر المؤسسات التي تقوم بإدارة تلك الدول) السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية). يراد بهذا الفعل البنيوي، الحد من مصروفات الدولة، تحسين الخدمات المقدمة للمواطنين، الحد من الضرائب.. الخ. لكن في بلد مثل العراق مفهوم" الإصلاح" ضبابي وليس له مقومات، ذلك ان اجهزة الدولة غارقة في الفساد، بحيث يعتبر العراق من الدول الأكثر فسادا في العالم.

في الدول التي تمارس فيها الديمقراطية على المنابر والمسيرات المليونية قامت إصلاحات فعلية مكنت من إخراج الدولة من مهمتها البيروقراطية إلى مهمة ادارية مثلاً. مع ان هذه المهمة لاقت ولم تزل اعتراضات كثيرة تتعلق بالتوجه الليبرالي الذي برز مع الرئيس الامريكي رونالد ريغان والبريطانية ماركريت تاتشر. لا يمكن الكلام عن إصلاح النظام إلا في البلدان التي قامت على مؤسسات عريقة، حيث تسعى الإصلاحات التي يشارك بها كبار المفكرين إلى وضع الفعل السياسي تحت المجهر ونقد عملية التمثيل التي تنتهي بصناديق الانتخابات. وفي هذه البلدان يجري التساؤل دون هوادة عن الشروط الاجتماعية والاقتصادية من اجل تعميق الفعل الديمقراطي.

المشكلة في العراق تكمن في طبيعة اقتصاده. فمنذ الثمانينات تكرس الاقتصاد الريعي. وكلما مر الزمن أصبح النفط المصدر الوحيد في هذا البلد. لا يتجاوز نفوس العراق الأربعين مليونا، وفيه أكثر من ستة ملايين موظف ومتقاعد! لقد قال احد الشباب المنتفضين وببراءة تنطوي على فهم عميق وتلخيص للأزمة التي يعشها هذا البلد (خرجنا للتظاهر بسبب الخوف من المستقبل في بلد كل معامله متوقفة ويعتمد كليا على عائدات النفط. ماذا سيحصل إذا توقف النفط؟).

الخلفية الثقافية للمنتفضين

هناك إجماع على ان الغالبية العظمى من المنتفضين هم من الشيعة. وهنا أؤكد على أهمية العامل الثقافي الذي دفع بتلك الجموع الواعية للخروج بوجه سلطة يفترض نظرياً أنها جاءت من اجل انتشالهم من الفقر والعوز وإعادة الاعتبار لهويتهم، التي بذل صدام حسين كل ما في وسعه من اجل طمرها، وتوفير كل السبل للنهوض ببلدهم. بيد انه وبعد مرور كل هذه الأعوام العجاف وجدوا بلدهم خربة.

كل الحراك الشعبي لاسيما ذاك الذي قام في عام 2015، انطلق من البيئات التي تتحكم بها الثقافة الشيعية. هذه الانتفاضة انطلقت في البداية للتعبير عن الحيف الذي

لحق بأصحاب الشهادات كما ذكرنا، لكنها تحولت من جدول ماء صغير الى سيل جارف لا يمكن إيقافه.

انتفاضة اكتوبر في عام 2019 التي بدأت بمطالب معيشية انما تحولت بسبب عنجهية السلطة وغرورها الى اعظم حراك شهده العراق عبر تاريخه الذي تعيه الذاكرة، حيث أصبحت تعني استرداد البلد من أيدي السراق والفاسدين ومن باعوا أنفسهم لقوى أجنبية.

لقد كان من اهم نتائج هذه الانتفاضة هو الكشف عن وجود نوعين من التشيع في العراق، الصفوي تمثله السلطة والتشيع الذي أطلق عليه علي شريعتي (التشيع العلوي). التشيع الصفوي تشيع مؤسساتي، وهو في هذا الشأن لا يختلف في مضمونه، عما ورد في كتابات كبار الفقهاء والمتعلمين المنتمين للمؤسسة السنية، مثل عبد الحميد الكاتب) ت132هـ) والماوردي (ت450هـ) والغزالي (ت505 هـ). وهذا يعني الدين في خدمة السلطة. في حين يتميز التشيع العلوي ببراءته فهو ذو طابع فلكوري.

الانتفاضة أبرزت وعلى نحو عفوي الفرق بين التشيع العفوي والفلكوري الذي يؤكد على دور البطولة في مواجهة الظلم والاستبداد أمام التشيع الصفوي والذي يعني التسلط والإكراه واللجوء إلى كل الوسائل من اجل البقاء في السلطة.

يراهن أزلام السلطة ومن يقف خلفهم على عامل الزمن لإنهاء هذا الحراك العظيم، ولكن الزمن سيخدم المنتفضين والسبب هو انحطاط السلطة وتدهور الوضع الاقتصادي في كل العالم وتدهور أسعار البترول المصدر الوحيد تقريبا في العراق وارتفاع معدلات الفقر في العراق.. الخ. كل هذه العوامل لا تسمح إلا بإيقاد كل الشموع من اجل ان يبقى وهج هذا الحراك مولعاً حتى إزالة هذه الطغمة الفاسدة.

من يجب أن يقود التظاهرات؟
(شهادة من وحي تجربة النجف)

فارس حرّام

- 1 -

الأربعاء الخامس من آب العام 2015، اجتماع في اتحاد الأدباء والكتاب بحضور عشرات الناشطين والإعلاميين والأدباء، حول التنسيق لتظاهرات الجمعة القادمة. اجتماع هيمنت عليه القضايا اللوجستية والأمنية وتحديد الأولويات وسقف المطالب وإلى أين نريد الذهاب، ولكنّه في العمق كان مجالاً لجسّ النبض حول القيادة القادمة للتظاهرات.

كنت وقتها رئيساً لاتحاد الأدباء، وكانت الغاية من احتضان هذا الاجتماع إجراء لحظة تعارف حر بين الشرائح المختلفة التي دعت لتظاهرات السابع من آب مع بغداد والمحافظات الأخرى، بما يشكل لاحقاً فرصة للتنسيق وجعل التظاهرات مأمونة من الحوادث في ظل هجمة إعلامية وسياسية ضدّها ومحاولات تخوين (اعتدنا على مثلها دائماً). وكنا حريصين في الاتحاد على أن توكل إدارة الاجتماع إلى من يرغب من الناشطين أنفسهم لإشاعة جو من الأريحيّة، وهذا ما حدث بالفعل.

كان الاجتماع هو الأوسع في حينه لناشطي النجف، وكان واضحاً منذ بدايته أنه يخبئ تناقضاً في التركيب. ففي الوقت الذي أسرف فيه بعض الحاضرين في الدعوة لتشكيل قيادة أو تنسيقية عليا للتظاهرات... كانت مداخلات الآخرين وعيونهم والهمس وبعض الحركات تدل على وجود هاجس عميق حول مسألة الثقة. فالعلاقة بين الناشطين النجفيّين آنذاك لم تكن عميقة لدرجة تشكيل تنسيقية قوية وموثوق بها تمثلهم. كانوا بالكاد يعرف بعضهم بعضاً عبر الفيسبوك وبعض الأنشطة المحلية وعبر التظاهرات السابقة في العامين 2011 و2013، ولهذا كان كثير منهم يتفرّعون في مجموعات صغيرة مؤلفةً ممن يحملون درجة من الثقة فيما بينهم، وكانت تسمى "تنسيقيات" ولكل تنسيقية اسم وطابع عام. وفي ظل هذا التشرذم المسبق كنت من الذين يرون أن تشكيل تنسيقية عليا أو موحّدة للتظاهرات في الوقت الحالي سيسبب نتائج معكوسة.

وفي الوقت الذي كان يهمس لي فيه حيدر (موظف الاتحاد) أنّ الشاي والكعك جاهزان للضيوف، كنت أفكر ببديل عن فكرة القيادة. وعندما عاد بعض الحاضرين للنقاش مرة أخرى في هذه النقطة وبشيء من الحماس، طلبت الإذن بالكلام من مدراء الاجتماع من الناشطين، ورأيت أن نغادر حاليا النقاش

حول الموضوع، ولنعمل ولو بشكل مؤقت بطريقة سميتها "التناغم"، تكون فيها الساحة مسؤوليتنا جميعاً، ويتم فيها اتخاذ الأنشطة الميدانية وتصريحات الإعلام والمواقف من الأحداث بشكل حر، لكنْ على أن تكون "متناغمة" مع السياق العام للتظاهرات، وليست نشازاً عنه. وقد نحتاج أحياناً إلى "وحدة" موقف حول شيء ما، لكنْ لا يستدعي هذا بالضرورة تنظيم اجتماع طارئ والتصويت على قرارات، وإنما يكفي التعرف الى ردود أفعالنا عن بُعد، عبر منشورات الفيسبوك وجعلها متناغمة وفيها نسبة عالية من التوافق، كما يحدث عادة في الحملات التي يشهدها المجتمع في قضية من القضايا المثارة في وسائل الإعلام أو التواصل الاجتماعيّ. بعد هذا الطرح كنت سعيداً أن غالبية الحاضرين كانوا موافقين ومتفقين.

كانت بغداد يومها تقوم بتنسيق احتجاجاتها عبر تنسيقية مؤلفة من أدباء وناشطين وفنانين وصحفيّين عمل غالبيتهم معاً منذ تظاهرات 2011، وتربط الكثير منهم علاقات قديمة من وحي اختصاصاتهم المشتركة، وكانت البيانات التي تصدر عنهم تلقى صداها في المحافظات، وكانت غالبية المحافظات آنذاك تفتقر لتنسيقيات واضحة المعالم ومؤثرة إعلامياً ولها وجود في الحياة العامة كمثل تنسيقية بغداد.

لكن سرعان ما انفرط عقد هذه التنسيقية في أول اختبار. ففي وقت اجتماعنا هذا في النجف، كانت تنسيقية بغداد تدخل في نقاش محتدم، سببه إعلان عصائب أهل الحق وكتائب حزب الله الدخول مع المدنيين في تظاهرات ٧ آب وفي ساحة التحرير تحديداً، فانقسم رأي التنسيقية ما بين موافق ورافض. ثم تطور هذا الاختلاف في الرأي إلى حملة تراشق بالاتهامات في صفحات الفيسبوك، وصلت إلى درجة التخوين العلنيّ.

كان هذا الحدث ماثلاً في ذهني وأنا أتكلم في اجتماع النجف عن فكرة التناغم بين المنسقين من دون أن يكون هناك التزام من أي واحد منهم نحو الآخر، وباختصار: أن يكونوا أحراراً.

وطبعاً لا يستطيع أحد أن ينكر وجود مخاطرة في فكرة التناغم هذه، وبخاصة في ظل ظرف سياسيّ معقّد كالذي شهدناه آنذاك. ففتح الباب على مصراعيه أمام الاجتهادات والمواقف في الساحة ربما يكون من نتائجه أن تضيع الخطوط العامة ويفقد الاحتجاج جزءاً من قوّته التمثيلية أمام الجمهور من جهة والسلطة من جهة أخرى. لكن بالحساب البراغماتيّ يمكن القول إن هذه المخاطرة أقل ضرراً من تشكيل تنسيقية على أرضية هشة من معرفة بعضنا ببعض. فالتجارب الاجتماعيّة تقول إن هذا النوع من العلاقات لن يدوم طويلاً.

كان بعض الناشطين في الاجتماع يتكلمون عن قيامهم بتشكيل لجان قطاعيّة لتنظيم تظاهرت ٧ آب، فلجنة تختص باللوجستيات (قناني ماء، ثلج، بانيوهات لتبريد الماء، أعلام عراقية.. إلى آخر ذلك)، ولجنة تختص بتنظيم الجموع الهاتفة، وأخرى خاصة بالجانب الأمني ومراقبة المظاهر المريبة، ولجنة إعلامية... وتحدث الناشطون أنّ كل أعضاء هذه اللجان سيتم تزويدهم ببطاقات تعريف معلقة على صدورهم. كنت أصغي لهذه المعلومات وكأني أصغي لطريقة تفكير احتجاجية علينا مغادرتها فوراً. فمثل هذا

التنظيم يمكن أن ينفع في فعاليات وأنشطة تطوّعية محدودة، أو مهرجانات، ويمكن أن يخدم التظاهرات في حال كانت لها جهة منظمة، كمؤسسة حزبية مثلاً أو نقابيّة، تضبط هذه اللجان وتحميها من التلكؤ أو الفشل أو الانفراط. أما في حالة تظاهرات ٧ آب، فلم تكن لها جهة تنظيمية محددة، ولم نكن نعلم كم ستستمر، وهذا يجعل تشكيل لجان لتنظيمها مجرّد مبادرة ليس لها ضمانات كافية للنجاح، وإذا نجحت مرة أو مرتين، فلن يكون استمرارها مضموناً.

- 2 -

نجحت تظاهرات 7 آب 2015 بشكل كبير، ثم تحوّلت إلى تظاهرات أسبوعيّة، وبعد أسبوعين من انطلاقها تأكدت نظريتي في صعوبة تنظيمها عبر تنسيقية موحّدة أو لجان، فقد انفرطت اللجان التطوّعية، ولم يعد لها وجود من الناحية العمليّة، كما بدأت المجاميع الصغيرة (التنسيقيات) تشهد تغييرات في تشكيلاتها وقياداتها، وظهرت بوادر تشنجات بينهم في الساحة بين أصدقاء أمس وخصوم اليوم.

كانت تلوح لي باستمرار في خضم تلك التجارب، مقولات الفلسفة في مسألة وجود الشر في العالم، أو في الأقل في النفس البشريّة، وبالذات أفكار توماس هوبز وشوبنهاور ونيتشه. فالطمع ببعض المغانم والصعود على أكتاف البسطاء والأنانيّة والتهوّر والبحث عن عمل جديد أو منصب أو جاه... كانت كلها موجودة في سلوكيات بعض الناشطين، وكان الفرز في الصفوف صعباً جداً لأنه يحتاج إلى وقت. لهذا كنت دائماً أقابل فكرة تشكيل تنسيقية موحّدة أو قيادة للتظاهرات بالرفض وجعل البديل هو التناغم، لمعرفتي المسبقة بأنّ وجود مثل هذه النوازع السلبيّة في نفوس بعض الناشطين سيفشل عمل أي قيادة أو تنسيقية، وكنت أسوّغ هذا الرفض بحجج أنا نفسي لم أكن مقتنعاً بها، ولكنها على أية حال حجج مقنعة للآخرين، مثل مخاطر "الاستهداف الأمني" لأعضاء التنسيقية الموحّدة إذا تشكلت، أو مخاطر الاستهداف الإعلامي لهم وتسقيطهم عبر الجيوش الإلكترونية للأحزاب الحاكمة. أما الحجة الحقيقية التي كنت مقتنعاً بها، فهي استحالة نجاح عمل أي قيادة للتظاهرات لا يملك أعضاؤها معرفة قوية بعضهم ببعض. فالتظاهرات ليست طائرة تعرضت لمشكلات وهي محلقة في الجو، ولا مدينة تعرضت فجأة لفيضان.

- 3 -

في الأسابيع اللاحقة بدأت أفكر في تطوير فكرة التناغم وتعميقها، لتكون بديلاً فعلاً عن فكرة التنسيقية الموحّدة أو القيادة، وقمت بإضفاء تسمية "الفريق المتناغم" على المجموعة التي تتبنى هذه الفكرة، يكون أعضاؤها عبارة عن "منسقي احتجاجات" لا تربطهم روابط إلزامية مثل التنسيقية والقيادة، فليس لهم قائد، ولا متحدث باسمهم، كما لا يوجد تسلسل هرمي، ولا اجتماعات روتينية، ولا التزام تنظيمي من أي نوع كان، يربطهم فقط التزام أخلاقي بأنهم نزيهون في احتجاجهم، أي لا ينوون نيل مغانم خاصة، وأن تكون غايتهم الإسهام قدر الإمكان بإنهاء هيمنة الطبقة السياسية الفاسدة على الحكم، وتغيير الوضع العام للأفضل.

وصلتُ عبر بعض التأملات والتجارب

إلى عدد من الشروط لكي ينجح عمل أي فريق متناغم في الاحتجاجات، من بينها مثلاً: أن توجد فيه شخصيات تضبط إيقاعه وتشكّل ما يشبه المرجع التحكيميّ عند اختلاف الآراء، ويكون من صفات هذه الشخصيات الهدوء والاتزان النفسيّ وعمق التفكير والنزاهة والقدرة على الاقناع. لا يهم أن تكون هذه الشخصيات ثابتة لا تتبدل، ولا يهمّ مقدار نشاطها داخل الفريق ميدانيّاً أو إعلاميّاً، فهم ليسوا "قادة" بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، إذ ليس مهماً التزامهم إزاء الفريق بمسائل تنظيمية وقياديّة، لكن المهم وجودهم نفسه. شيء آخر مهم: لا يمكن اختيار أو تحديد مثل هذه الشخصيات بشكل مسبق، فالتجارب وحدها هي من يوجدها، وهذه الحقيقة بالضبط هي ما دفعتني إلى مسألة مهمة لا تنفصل عنها، هي عامل الزمن في التصفية.

***

في إزاء ذلك بقي ناشطون كثيرون، في النجف وبغداد ومحافظات أخرى متشبثين بأطروحة التنسيقية أو القيادة، وبالغ بعضهم فشكّل تنسيقيات على مستوى المحافظات، واختار بعضهم أن يظهر للإعلام بصفة "ممثل" عن المتظاهرين، أو "أميناً عاماً" لهذا الحراك أو ذاك، إلى غير ذلك من التسميات، وطبعاً هذا أمر طبيعي ومن حقهم "النفسي". أما على أرض الواقع فقد بقيت التظاهرات تنأى بنفسها عن أن "تُقاد" بطريقة كلاسيكية وبتنسيقيات واضحة ومكشوفة. وكان من الغريب أن يظهر في التلفاز من يقول إنه "يمثل" المتظاهرين، ثم يذهب إلى الساحة فلا ينضمّ إليه أحد!

كانت الهوّة واضحة بين من يريد القيادة من جهة وطبيعة الاحتجاجات نفسها من جهة أخرى. فالاحتجاجات العراقيّة، وبخاصة بعد 2011، جاءت في ظل تراث ضخم من شكوك الشارع وضعف ثقته بمن "يقود". إنها مشاعر سلبية توارثها العراقيون في غرف مظلمة أيام الدكتاتور، ثم ما إن منح ثقته بعد 2003 لقادة جدد حتى ثبت أن غالبيتهم العظمى سراق وقتلة وطالبو مال وسلطة. هي شكوك وهواجس إذن عمرها عشرات السنوات. يصعب معها أن تظهر قيادة تنال ثقة الجماهير العفويّة، في ظرف أسابيع.

لذلك بقيتُ متشبثاً - في المقابل - بأن يبقى الناشطون بعيدين عن فكرة القيادة لضمان استمرارية الاحتجاج نفسه، وأن يعملوا ويفكروا بوصفهم محتجين وسط الجموع لا أكثر ولا أقل. أما تلك النداءات التي كنا – ولا نزال – نسمعها حول وجوب ظهور قيادة للتظاهرات تمسك بزمام الأمور، فهي نداءات لحظية وربما انفعاليّة، لا يوجد أي ضامن أن كثيراً من أصحابها لن ينقلبوا على أعقابهم عند تشكيل قيادة لا يعجبهم فيها هذا الشخص أو ذاك، بل لربما كان هذا مدعاةً للهجوم لاحقاً على فكرة القيادة نفسها! لا تستغربوا، إنه مجتمعنا العراقيّ.

- 4 -

في 29 كانون الثاني 2016، أقيم في بغداد مؤتمر كبير لحركة الاحتجاج العراقيّة هو الوحيد من نوعه حتى الآن، حضره ناشطون من ساحات المحافظات. وقد أوكلت إليّ على مدار يومين مهمة إدارة إحدى جلستيه التحضيريّتَيْن، ورئاسة جلسته الفعليّة التي حضرها حوالي (٥٠٠) شخص. وقد أتاحت لي هذه التجربة أن

يتعمق في داخلي انتفاء فكرة تشكيل قيادة للتظاهرات. وبالرغم من نجاح المؤتمر في النهاية، عبر تثبيت رأي الأغلبية في مقرراته، إلا أنني لا أزال أتذكر بشيء من الغثيان كيف دخلنا في نقاشات متشعبة ومملة (وبالذات في الجلسة التحضيريّة) حول مصطلح نريده في البيان الختامي أو جملة عابرة قالها أحد المتداخلين أو آلية نريد إضافتها للاحتجاجات. أما النقاش حول الاختيار بين "إسقاط النظام" و"إصلاحه" فقد وصل إلى حد ارتفاع الأصوات وإطلاق الشعارات الوطنية. ولا أزال أتذكر كيف قضينا حوالي خمس ساعات في الجلسة التحضيرية في نزاع عجيب: هل يمكننا مناقشة ورقة تقدمت بها اللجنة التنسيقية للمؤتمر أم رفضها من الأساس من دون مناقشة!

الأغرب من هذا كله أنّ المؤتمر، بالرغم من نجاحه التنظيميّ، لم يكن له تأثير مباشر على ساحة الاحتجاج نفسها، فبعد أن انتهت أعماله قررنا أن نقرأ بيانه الختامي في ساحة التحرير، وهناك كانت الحقيقة وحدها تلمع وكان المشهد كوميدياً ومأساوياً في آنٍ واحد؛ فالمحتجون الذين جمعهم سقف المؤتمر قبل قليل، وكان عددهم جميعاً لا يملأ ربع ساحة التحرير... ما إن وطأت أقدامهم أرض الساحة حتى تنافروا فيما بينهم وتفرقت مجاميعهم وتباعدت حتى لم يستطع أحدهم أن يسمع ما يهتف به الآخر، ومن يشاهد المنظر من أعلى يستطيع أن يرى بين كل مجموعتين فراغاً في الأرض هو في الحقيقة فراغ اجتماعيّ وعاطفيّ وربما حتى سياسيّ!

هذا المشهد هيمن على العمل الاحتجاجيّ طوال الأعوام 2015 – 2018، وفيها كان غالبيّة ناشطي النجف يروّجون في أدبيات الاحتجاج العراقيّة بشكل مستمر، فكرة عدم الحاجة الى تنسيقيّة موحّدة، لتجنيب الساحات أي نوع من المهاترات الإعلامية وتراشقات الفيسبوك. كان الجميع يعمل ويختلف من دون ضوضاء، وكان بعض الناشطين – في النجف مثلاً - لا يخلو عمله من تهوّر واستفزاز وأنانية، لكن عدم وجود تنسيقية عليا أسهم باستيعابهم ضمن إطار "لا يوجد أحد يمثل الساحة".

وفي ذروة احتجاجات العام 2018 حللت ضيفاً على برنامج "البشير شو" في العاصمة الأردنية عمّان والتقيت الضيف الآخر فيه الناشط باسم خشّان من محافظة المثنى، سرنا في شوارع عمان وتناولنا غداءنا معاً، فحدثني أنه بصدد تشكيل قيادة عليا للتظاهرات العراقيّة، وطلب مني المشاركة فيها، غير أنني تذرّعت بالحجتين نفسيهما: سهولة الاستهداف الأمني، والتسقيط الإعلاميّ. لكن في الحقيقة كان السبب الجوهريّ لرفضي هو القاعدة الذهبية نفسها: لا يمكن تشكيل قيادة من ناشطين لا يمتلك بعضهم خبرة ميدانية عميقة ببعض، وكان من الطريف أن خشّان كان "يستغرب" أنه لا يعرفني، ولم يسمع باسمي من قبل! فكان استغرابي أكبر أنْ كيف يطلب ممن لا يعرفه أن يشاركه قيادة تظاهرات على مستوى العراق!

في انتفاضة تشرين 2019، أصبح واضحاً أنّ عدم الحاجة إلى تنسيقيّة عليا أو قيادة هو الخيار الصحيح، وقد تلقّف شباب الانتفاضة الفكرة بحدسهم التاريخيّ المتوهّج، فقد أيقنوا مبكّراً أنّ من غير

المنطقي ومن غير الواقعي أن تتشكل قيادة لتظاهرات عفوية من دون خبرة ميدانيّة سابقة تفرز الصفوف وتظهر المعادن وتكشف النيّات. فأصبح شعار #الوعي_قائد هو المهيمن في سلوك المحتجين.

وفي المقابل لا تزال هنا وهناك أصوات تنادي بضرورة ظهور قادة واضحين وفعليين للتظاهرات، وبعض هذه الأصوات جاء من داخل أروقة الأحزاب الحاكمة بحجة أنّهم لا يعرفون أن يتكلموا مع مَنْ ويفاوضوا مَنْ، طالما ليس للتظاهرات "رؤوس". أما الناس والمتظاهرون المطالبون بتشكيل هذه القيادة، فقد استندوا في ذلك إلى الخروق التي حدثت في كثير من الساحات، والزعم أنّ وجود قيادة كان سيبطل حدوثها.

الحقيقة الأنقى برأيي أمام كلّ هذه الآراء أنّ تشكيل قيادة كان سيضرّ الانتفاضة بدرجات مضاعفة عن فائدتها. ليس بسبب الهاجس الأمني والتسقيط الإعلاميّ، ولكن لأنّ التاريخ علمنا أنّ في مثل هذه الظروف، وأمام طبقة فاسدة تحكمنا كهذه الطبقة، فإن تشكيل قيادة للساحة، لن يجعلها بمأمن عن اشتمالها على بعض الناشطين غير المؤهلين، ممن سيسببون نتائج كارثية على مجمل الانتفاضة ويعرضون كل ما حصلت عليه من منجزات إلى التخريب، ناهيك عن انعكاس ذلك على مستقبل الاحتجاجات نفسها. ولهذا كلّه يتعيّن علينا القبول بالضرر الصغير مقابل الضرر الكبير.

وكان حقاً أنّ ما شهدته انتفاضة تشرين يُعدّ تجسيداً ناجحاً لفكرة التناغم، عبر تنسيق المواقف بين الساحات بشكل مستمر، لدرجة لم يعد فيها كثير من المتأثرين بنظريّات المؤامرة يصدّق أنّ هذا التنسيق يجري بطريق عفويّ من وحي فكرة التناغم.

أختم شهادتي هذه بإشارة مكثفة لكتاب كارن روس "ثورة بلا قيادات"، الذي نُشرت ترجمته العربيّة العام 2017، وعدّه كثير من "المنظرين" أنه مبشّر لنوع جديد من الاحتجاجات يصدق على انتفاضة تشرين. وعلى الرغم من أنّ هذه الترجمة ظهرت بعد سنتين من انطلاق التظاهرات العراقيّة في 7 آب 2015 من دون قيادة، إلا أن ما يجدر قوله هنا أنّ روس لم يركز في كتابه على التظاهرات نفسها، وإنما على تغيير شامل في بنية الدولة، يقوم به الشعب بنفسه في مختلف القطاعات، عبر المراقبة المستمرة وتغيير الأوضاع بالضغط الشعبيّ السلميّ على السلطات. ومن هذا الباب فإنّ كتاب روس فلسفي شموليّ، في حين أنّ فكرة التناغم التي أتحدث عنها ترتبط بالتظاهرات فقط، فهي أشبه بعلاج ميداني مؤقت لمرض ضعف ثقة الجماهير بالقادة، كما إنها تقدم حلاً مؤقتاً لمشكلة عدم وجود ضمانات كافية لنجاح عمل ناشطين لا يمتلك بعضهم خبرة كافية ببعض، في وقت يتوجب فيه أن يكون عمل هذه القيادة مليئاً بالالتزامات المتبادلة سياسياً ولوجستياً وإدارياً وأخلاقياً وميدانياً.

التناغم هنا هو تحويلة مؤقتة في طبيعة تنسيق العمل الاحتجاجيّ، من وحي التجربة الاجتماعيّة العراقيّة وأي تجربة شبيهة بها، لحين انتفاء الحاجة إليه وظهور قيادات فعليّة في ظرف تاريخيّ آخر. نعم، قد يقصر زمن هذه التحويلة المؤقتة، وقد يطول لدرجة تشبه فيها فكرة الاشتراكية (المؤقتة) عند الماركسيّين، تلك التي قد تمتدّ عشرات السنوات. من يعلم؟

الإعلام والإنكار

زهير الجزائري

سحر المظاهرة له بعدان.. أن تكون مندمجا فيها أو تراها من خارجها من خلال الكاميرا. تبتعد أو تقترب تشكل المظاهرة مادة مغرية للإعلام المرئي بالتحديد. فهي حدث يحرك السياسة العليا ويخرجها من جمودها ورتابتها. وبما تحويه من مجموعات بشرية ولافتات وشخصيات قيادية تشكل مادة صورية غنية للكاميرا التلفزيونية، لذلك توظف الفضائيات فريق عمل واسع بعدة كاميرات لتصوير المظاهرات من زوايا عديدة. تبتعد وترتفع عاليا فتصور الحشد وامتداده، تقترب فتصور الوجوه والشعارات، تلتقي المشاركين ثم تغادرهم لمعرفة ردود أفعال الشخصيات المعنية بالمظاهرة. تبلغ الدراما ذروتها لحظة الاصطدام.

الإنكار

لكن الأمر ليس كذلك دائما، إنما يتوقف على من يملك الإعلام ومن يتحكم بمساره. ففي دولة الحزب الواحد والإعلام الواحد تستطيع الدولة وإعلامها إنكار الحدث مهما بلغ حجمه وفضاعته. وتحت هذا التضييق مرت مجازر جماعية هائلة مثل الأنفال دونما صورة أو ذكر في الإعلام كأن ما حدث كان مجرد كابوس وليس واقعة.

بعد عمليات (الأنفال) بسنوات ذهبتُ لكردستان متتبعا أثر الجريمة على الأرض وفي ذاكرة ناسها. اسأل أهل المدن إن كانوا سمعوا بالأحداث أو عرفوا عنها. الأجوبة كانت:

- لا، لم نعرف.
- عرفنا، ولكن بشكل غامض.
- أهلنا اخفوا الأمر عنا.
- نخاف أن نسأل...

الخوف يحقق الإنكار فتمر الجريمة بهدوء.

المسار السياسي في بلد متأزم مثل العراق، يؤثر على الإعلام اكثر مما يؤثر الإعلام على المسار السياسي، لأن السلطة السياسية قابلة لان تتحول إلى سلطة على الإعلام. الثقافة السياسية للمجتمع لها تأثير أساسي على كيفية إدارة الإعلام للازمة وتغطيتها إخبارياً، لأن تاريخ الإعلام في العراق هو في الغالب، وأكرر في الغالب، تاريخ انحيازه للسلطة أو تقيده بقرارها طوعا أو إجبارا. الإعلام الرسمي (٣٧ مؤسسة إعلامية وطنية ومنطقية ميزانيتها السنوية ٤٠ مليون دولار) تطابق مع الموقف الحكومي كليا خلال مظاهرة 2011: ابتداء من التخويف وانتهاء بالقبول بالمبدأ وبالمطالب. قبل المظاهرة استبق الإعلام الرسمي (العراقية)

خطاب رئيس الوزراء نوري المالكي يوم 24/ 2 بعرض أفلام وثائقية عن جرائم النظام السابق في محاولة لتذكير الناس بأن نظام الإبادة والمقابر الجماعية قد يعود إذا تزعزع النظام الحالي. تحت هذا التخويف من أن تستهدف التظاهرة العملية السياسية برمتها بدلا من إصلاحها، أراد إعلام الحكومة خلق اصطفاف حول الموقف الرسمي بعيدا عن المظاهرات. لو قارنّا بحذر بين تغطية قناة (العراقية) للمظاهرات في ساحتي التحرير المصرية والعراقية، سنجد أن قناتنا الرسمية غطت الحدث المصري، وحسنا فعلت، كحدث داخلي عراقي. فالكاميرا هناك في ساحة تحريرهم، على الدوام، بين لحظة وأخرى تتصدر شاشاتها (عاجل) لمتابعة آخر التطورات في الشارع المصري كأنها حدث محلي.. مع المتظاهرين في الشارع ضد الرئيس الذي سيرحل. انقلب الموقف حين بدأت المظاهرات في ساحة تحريرنا. الإنكار أول ما خطر على بال الحكومة حين دخل (وباء) المظاهرات بيتنا. لكن قبل ذلك ينبغي النظر إلى تاثير الأطراف على الإعلام خلال الصراع من المنظورين، منظور الهيكلية والمنظور الثقافي. وأفضل طريقة لقياس الإعلام هي متابعة المعركة والوزن المتحرك للقوى. فالأطراف المتصارعة تتصارع أيضا للحصول على مدخل للإعلام وتتصارع من اجل تشكيل إطاره. وإعلام ما بعد 2003 لم يعد إعلام السلطة وحدها، إنما إعلام أحزاب وأطراف متصارعة. ويعكس مصادر قوة كل طرف خلال التحول، وهذا يقرر من هو الطرف الذي ستكون له حصة اكبر في التغطية الإخبارية. الواقع السياسي يفرض نفسه ويحد من إمكانية الإنكار. كلما اتسعت المظاهرات عدداً وزخما تتحول إلى سلطة على الإعلام. تلفزيونيا ثم نقل المظاهرات رسميا حين بدأت الفضائيات الأخرى بتغطيتها، ولكن الصور دخلت في المختبر العقائدي خلال عملية التقطيع التي تسبق البث. أشرف على التقطيع مستشار رئيس الوزراء (علي الشلاه) وأمامه هدف واضح وبسيط: التقليل من العدد والتقليل من الهدف. التركيز على المجموعات الصغيرة والتقليل من موضوع المظاهرة المركزي (الفساد). بدلًا من الفساد جرى التركيز على الطابع المطلبي القطاعي. لعدة مرات أعادت (العراقية) بث لقاء مع متظاهر عاطل يطالب بعمل. كل ما يمس رئيس الوزراء اختفى من الصورة بمتابعة رقابية عالية. ومع رئيس الوزراء اختفت كل صدامات المتظاهرين مع قوات الأمن.

بعد أن أخليت الساحة من المتظاهرين بقنابل الدخان والرصاص الحي، انتقلت كاميرا العراقية إلى ساحة التحرير. كان الحوار موضوعيا، حيث طرحت على المتحاورين أسئلة تتعلق بصلب الحدث، لكن اختيار موقع التصوير في نفس الساحة التي شهدت هجوم القوات المسلحة وانسحاب المتظاهرين ينطوي على شماتة المنتصر، وما من منتصر في هذه الساحة، فما حدث تمرين أول لجولات قادمة. باختصار كانت تغطية

العراقية انعكاسا ميكانيكيا لارتباك الموقف السياسي من المظاهرة: الإنكار، التخويف، التحجيم، التساوق.

الهدوء الحذر

في الأيام الأولى بعد ثورة تشرين 2019 يقف مراسل قناة (العراقية) الرسمية في طرف الساحة القريب من غرفة العمليات الأمنية. خلفه مدرعة الحكومة وأمامه الساحة خالية ليقول لنا "كما ترون فإن الوضع هادئ تماما" وهو محق، لأن الساحة خالية بسبب منع التجول. لكي يثبت مراسل (العراقية) هدوء الوضع سيتصل بأقرب مسؤول عسكري ليقول لنا بأن الوضع فعلا هادئ، وإن قوات مكافحة الشغب تعاملت بأبوية مع المتظاهرين. الحديث كله عن المتظاهرين، لكننا لا نراهم.

المتظاهرون في الإعلام الرسمي اختفوا تماما لأن المراسل لا يستطيع الاقتراب من الأزقة الفرعية. يعرف بأنه لن يلقى الترحيب من المتظاهرين الغاضبين، فهو بالنسبة لهم ممثل سلطة تحاربهم الآن بقنابل الغاز وبالرصاص الحي. نغادر الحيز الضيق الذي انحشر فيه المراسل والكاميرا التي ترافقه ونرتفع أكثر لنرى المشهد الأوسع من الساحة، مشهد المدينة التي تتوسطها الساحة. خارج الساحة ووراء الحواجز والسيطرات تبدو المدينة مهجورة خالية من حركة الناس العادية بسبب منع سير المركبات. مواطنون أفراد يقطعون الشوارع مشيا لمسافات طويلة وهم يتلفتون خوفا من أمر غير محسوب. بينما يحاول المراسل تأكيد الهدوء نسمع أصوات سيارات نجدة وإسعاف دليلا، نسمعه ولا تراه، بان هناك أحداثا خارج مجال النظر ولا يريد

المراسل أن يتحدث عنها، ولا تريد الكاميرا أن تراها. سيارات نجدة أو عسكرية تمرق مسرعة وهي تسبقهم إلى موقع الحدث. الهدف من جو الطوارئ المشحون بالتحذير والخوف هو تقطيع الناس عن بعضهم ومنع مشاركتهم في حشد الساحة. وحالة الطوارئ إبقاء الناس في بيوتهم مترقبين لا فاعلين، مترقبين لأمر خطير لا يعرفون كنهه. غياب الإعلام يتيح للسلطة إنكار الحدث. ما لم يره الناس وهم في بيوتهم غير موجود أصلا. وفي أفضل الحالات محدود لدرجة أنه لا يستحق التغطية. تتوهم السلطة وتريد ان توهم الناس بأن ما يحدث هناك، من صدامات في الأزقة المؤدية للساحة، الرصاص الحي وقنابل الغاز ومدافع الماء الساخنة، ستمر دون أن يدري بها أحد. السلطة هي ابنة إعلامها أو الإعلام التقليدي المعروف والمشخص بحيث يمكن منعه وحتى تكسير أدواته. مع ذلك وعبر الإعلام الآخر كان الحدث حاضرا في بيوت العراقيين الذين لم يحضروا المظاهرة. وشكل الإعلام رأيا عاما من الجمهور الأوسع الذي لم يشارك في التظاهرة. فقد رأى الناس وهم في بيوتهم عبر تعدد الفضائيات ما حدث هناك، ورأوا أنفسهم هناك في موقع المشارك أو المشاهد أو المتسائل على الأقل. وتكون رأي ملتبس بأن الأيام القادمة بعد هذا الحدث لن تعود هي نفسها. نقل الحدث، والصدام بالتحديد يستفز السلطة وبالحديد أجهزتها الأمنية المعلنة والمستترة. ولذلك كانت حملة اعتقالات الإعلاميين وهم يغطون الحدث أو مهاجمة مكاتب الإعلام التي غطت الحدث وتكسير الكاميرات والأجهزة. لا السلطة ولا أفراد اجهزتها الأمنية المقنعة يحبون أن يروا صورتهم المخجلة وهم يضربون أبناء جلدتهم العزل.

إعلام المواطن

لم تصح السلطة بعد على الإعلام الحديث (السوشيال ميديا) التي جعلت هذا الإنكار مستحيلاً. منذ عام 2004، زادت نسبة العراقيين الذين يقتنون الهواتف المحمولة، من 1% إلى 100% تقريبا، وأكثر من 80% يحملون هواتف ذكية مع إنترنت. تقلص الفارق بين المواطن والصحفي في تغطية أحداث كهذه.. كلاهما لم يعد بحاجة لأجهزة ثقيلة ليصور الحدث لأن جهازاً أصغر من راحة اليد ينام في جيب البنطلون المترب الممزق عند هذا المتظاهر الشاب، باستطاعته وهو يركض بعيدا عن قنابل الغاز، ان يخرجه من جيبه وبحركة من أصابعه سيصور هذه اللحظة الدرامية التي يلتقي فيها القاتل والقتيل وسط سحابة من دخان خانق، ويرسل رسالته للعالم، فيفي بما كانت تسجله الكاميرا المحمولة. الصورة التي يقدمها هذا المشارك قليل الخبرة، بحركتها المضطربة وعدم اكتمال كوادر الصور، تبدو للمشاهد في بيته أكثر تأثيرا لأن حامل هذه الكاميرا الصغيرة يشكل جزءا من الحدث. يرى ساقيه وهو يركض ويرى الظلال حين يطلق الرصاص. حتى الغموض وعدم الوضوح يبدو أكثر تأثيرا لأن المشاهد سيكمل الصورة من مخيلته وتوقعاته وتجاربه السابقة فيتحول من متلقي إلى مشارك حتى ولو لم يكن جسده هناك. الإنكار صار مستحيلا، إلا في توهم السلطة.

نصوص قديمة

بواكير الحركة الوطنية التقدمية في العراق
(القسم الثالث)*
في لقاء مع الاستاذ حسين جميل

اذا كان التاريخ اكبر معلم للإنسانية، فلأنه خزين هائل لتجارب الشعوب والأمم، لتجارب الانسانية في درب الحرية والانعتاق، وخزين ثر العطاء في نضالها من اجل اهدافها السامية. لذلك كان الانسان، ولّما يزل، يعود الى التاريخ من ابواب متعددة ومتباينة، ويحاول الدخول فيه من نوافذ يختارها هذا المفكر وذلك السياسي.

وهيأة تحرير "الثقافة الجديدة" في سياق لقاءاتها التي عقدتها مع المعنيين من الساسة والاختصاصيين لاستيضاح بعض جوانب بدايات وتطور الحركة الوطنية والتقدمية العراقية، التقى ممثلها الرفيق الدكتور صفاء الحافظ، مع الاستاذ حسين جميل، الشخصية السياسية المعروفة، اطلالا منها على صفحات من تاريخنا المعاصر واستطلاعنا لمختلف الآراء، التي ليست بالضرورة تعبيرا عن وجهة نظر المجلة.. انها نوافذ من الحاضر على الماضي، تستحث آراء الآخرين من الساسة والمفكرين المعنيين، ليجري التفاعل، ويكتمل التناول الشامل الموضوعي، فتجري الافادة في بناء الغد الذي نطمح به.

الثقافة الجديدة

نتحدث الآن عن اهم الاحداث بعد مقتل بكر صدقي في 11 آب سنة 1937 حتى نصل الى الحرب العراقية - البريطانية في سنة 1941 وموقف القوى الوطنية منها.

تتميز هذه الفترة من تاريخ العراق الحديث بظاهرة تدخّل بعض قادة الجيش في تشكيل الوزارات، واسقاطها، وفي التدخل لاتخاذ مواقف في الشؤون السياسية المهمة والخطرة.

جاءت وزارة حكمت سليمان بانقلاب عسكري، وسقطت بحركة عسكرية بدأت في الموصل بقتل بكر صدقي - وقد قتل معه محمد علي جواد، آمر القوة الجوية - وامتدت الحركة الى بغداد - لاسيما في معسكر الوشاش - وخلّفت وزارة حكمت سليمان وزارة برئاسة جميل المدفعي، وكان مجيء هذه الوزارة برأي قادة الجيش الذين اسقطوا وزارة حكمت سليمان.

وبعد اشهر قليلة من تشكيل جميل المدفعي وزارته، ولأن جميل المدفعي لم يوافق على سياسة التنكيل بمن قام بانقلاب سنة 1936 سواء من العسكريين او المدنيين، فان الكتلة القومية من قادة الجيش الذين عرفوا بعدئذ بالقادة الاربعة، العقداء صلاح الدين الصباغ

وفهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب، بالتعاون مع بعض الساسة، وفي مقدمتهم نوري السعيد وطه الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني ورستم حيدر ويونس السبعاوي، وقد كانوا يرون وجوب ضرب كل من اشترك بانقلاب سنة 1936. القادة وهؤلاء السياسيون بدأوا يدبرون لإسقاط وزارة جميل المدفعي، وقد تم ذلك عن طريق الجيش في اواخر كانون الأول سنة 1938. وطلب القادة الأربعة من طه الهاشمي أن يشكل هو الوزارة، فلم يوافق ورشح لهم نوري السعيد.

وفي مذكرات المرحوم صلاح الدين الصباغ، أن الجيش ارغم وزارة جميل المدفعي على الاستقالة، وانه لما قابل الملك غازي على أثر ذلك، قال له الملك يا صلاح الدين سأقبل استقالة جميل المدفعي بشرط ان لا يأتي نوري السعيد بعده، وأن أوافق على اسناد الوزارة الى اي شخص ما عدا نوري. وانه - اي صلاح الدين الصباغ - أجابه أن نوري هو المطلوب، بعد أن رفض طه الهاشمي تأليف الوزارة، وبناء على ذلك تم اسناد الوزارة إلى نوري السعيد وتألفت وزارته في 25 كانون الأول 1938. ودخل في وزارته طه الهاشمي وزيرا للدفاع ورستم حيدر وزيرا للمالية. ومع بدء الوزارة عملها بدأت اجراءات ضرب العناصر التي شاركت - بوجه من الوجوه - في انقلاب بكر صدقي أو في عهد حكم وزارة حكمت سليمان، او عناصر ضباط الجيش الذين كانوا يسندون وزارة جميل المدفعي، فحل مجلس النواب الذي كانت وزارة جميل المدفعي، قد أجرت انتخابه، وابعد عن عضوية المجلس الجديد رؤساء العشائر الذين ايدوا جميل المدفعي ووزارته، والذين كانوا قد قاموا بحركات عشائرية ضد وزارة ياسين الهاشمي، التي اسقطها الانقلاب. وارجح أن سبب ابعاد هؤلاء عن عضوية المجلس، أن نوري السعيد اعتبر قيامهم بحركاتهم العشائرية، كان بسبب تأييدهم جميل المدفعي، وربما بالاتفاق مع او بتحريض منه، كما احال أنه على التقاعد الضباط الذين اشتركوا مع بكر صدقي في انقلابه، والذين تعاونوا معه وهو رئيس لأركان الجيش. وكذلك احال نوري السعيد على التقاعد، الضباط الذين كانوا في جانب جميل المدفعي في الصراع بين بعض قادة الجيش وضباطه. ذلك الصراع الذي دار بين الفئة التي عملت على اسقاطه والمجيء بنوري السعيد رئيسا للوزارة، واولئك الذين ساندوا جميل المدفعي بإبقائه في الحكم.

ونوري السعيد الى جانب رغبته في أن يعاقب كل من اشترك في انقلاب سنة 1936، كان شديد الرغبة في أن ينتقم من أولئك الذين اشتركوا في قتل صهره جعفر العسكري، صبيحة يوم الانقلاب. وحيث أن هؤلاء كانوا قد وقفوا واحيلوا على المحكمة الكبرى في بغداد، لإجراء محاكمتهم بتهمة القتل، وقررت المحكمة براءتهم لانهم مشمولون بقانون كان قد صدر في عهد وزارة حكمت سليمان، يقرر العفو عن جميع الأشخاص الذين قاموا بانقلاب 29 تشرين الأول 1936. لذلك فان نوري السعيد لم يستطع أن يحاسبهم عن هذا الفعل. وكان البديل هو الاعلان عن قيام مؤامرة ضد الحكم، تستهدف قتل الملك والوزراء وعدد كبير من الساسة، واعلن ان على رأس هذه المؤامرة، حكمت سليمان رئيس الوزراء في عهد الانقلاب. والضباط الذين نسب إليهم الاشتراك في هذه المؤامرة

هم الذين كانوا ما يزالون في العراق من الضباط الذين كان بكر صدقي قد طلب منهم قتل جعفر العسكري، وزير الدفاع في وزارة ياسين الهاشمي، التي وقع الانقلاب ضدها، وهم جواد حسين واسماعيل عباوي وعلي غالب عريان. ومدني هو يونس عباوي (شقيق اسماعيل عباوي)، واتهم مع هؤلاء ضابط طبيب بيطري هو حلمي عبدالكريم. واعلن نوري السعيد الادارة العرفية في معسكر الرشيد، واحال هؤلاء على المجلس العرفي العسكري الذي حكم عليهم بالإعدام (عدا علي غالب وشخص اسمه عبدالهادي كامل فحكما بالسجن). ثم ابدل حكم الإعدام من قبل الملك الى الاشغال الشاقة والسجن .

هذه الأحداث مدونة في كتب التاريخ. وانا اشعر بأني يجب ان اختصر، لأن ما أريد الوصول اليه هو فقط احداث سنة 1941.

وحتى نتبين اسباب الحرب التي وقعت في تلك السنة، اشير الى مقدماتها والتطورات الى آلت الى الحرب.

اعلنت الحرب بين بريطانيا وفرنسا من جهة، والمانيا من جهة اخرى في 3-9-1939 هذه الحرب التي عرفت بعد اذ بالحرب العالمية الثانية، وبعد يومين اي في 5-9 قرر مجلس الوزراء قطع العلاقات مع المانيا، وقبض على الرعايا الألمان، الذين ارسلوا الى الهند من قبل السلطة البريطانية.

وفي 18 - 1 - 1940 قتل رستم حيدر، وزير المالية في ديوان وزارته، وفي 18-2-1940 استقالت وزارة نوري السعيد. ومع انه أعاد تشكيل الوزارة في 22 - 2 - 1940 إلا ان الوزارة سرعان ما استقالت، بعد أقل من أربعين يوما، بسبب الظروف التي رافقت تأليفها من خلاف بين كتلتين مهمتين من قادة الجيش، بينهم رئيس أركان الجيش وقادة فرق. وفي آخر شهر آذار 1940 ألف رشيد عالي الكيلاني الوزارة، ودخل فيها نوري السعيد وزيرا للخارجية، وطه الهاشمي وزيرا للدفاع، وناجي شوكت وزيرا للعدلية.

في عهد هذه الوزارة، بذرت في الأرض بذور الحرب العراقية البريطانية في شهر مايس 1941. ففي حزيران 1940 اعلنت ايطاليا الحرب على بريطانيا وفرنسا، فحضر السفير البريطاني الى ديوان وزير الخارجية وابلغه دخول ايطاليا الحرب ضد بريطانيا، وطلب منه أن يبلغه موقف الحكومة العراقية من ايطاليا.

اجتمع مجلس الوزراء وكان رأي وزير الخارجية (نوري السعيد)، أن يقطع العراق علاقاته مع ايطاليا، اسوة بما فعل تجاه المانيا في أول الحرب، وايده بعض الوزراء الآخرين، وكان رأي فريق آخر من الوزراء التريث بقطع العلاقات مع ايطاليا - وربما كان سبب ذلك الموقف الحربي في اوربا، حيث كانت المانيا قد اجتاحت اغلب اوربا، ولم يكن مصير الحرب واضحاً لدى كثير من الوزراء، وربما كانوا حين ذاك قد رجحوا ان المانيا هي التي سوف تكسب الحرب. وكذلك كان رأي القادة الاربعة صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب، الذين كانوا حين ذاك قد بدأوا يؤيدون رشيد عالي الكيلاني، الذي قدمه إليهم مفتي فلسطين الأكبر المرحوم محمد امين الحسيني، وضمن لهم تأييده لهم.

تطورت الأحداث بعد هذا سراعا - وبالأحرى - اسمح لي يا استاذ صفاء، أن امر انا عليها سريعا. فقد سافر بعد هذا كل من نوري السعيد وزير الخارجية وناجي شوكت

وزير العدلية الى تركيا، لاستطلاع موقف تركيا تجاه سوريا، فاتصل ناجي شوكت وهو في انقرة بسفير المانيا الهر فون بابن.

وبعد عودة الوزيرين من تركيا، تأزم الموقف السياسي بشدة، وحصل ضغط شديد من الأمير عبد الاله ـ الوصي على العرش ـ ومن ورائه الانكليز، لكي تستقيل الوزارة، في حين كان القادة الأربعة وراء رشيد عالي، يسندونه ويطلبون منه عدم الاستقالة، ووجد بعض الوزراء والساسة، أنه ربما يخفف الازمة الوزارية، أن يستقيل من الوزارة، كل من الوزيرين اللذين يمثلان طرفي النزاع، وهما نوري السعيد وناجي شوكت، فقدما استقالتيهما. وانتهز الوصي هذه الفرصة لاسقاط الوزارة، عن طريق استقالة اكثرية الوزراء، فقدم بعض الوزراء استقالاتهم من الوزارة، غير انه بمداخلة القادة، وقع الوصي ارادات ملكية بتعيين يونس السبعاوي وعلي محمود الشيخ علي ومحمد علي محمود وموسى الشابندر، وزراء بدلا من المستقيلين.

وبسبب حملة ضد الوزارة في مجلس النواب، تعقيبا على استقالات بعض الوزراء، وتعيين وزراء جدد، نظم رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني، ارادة ملكية بحل مجلس النواب.

غير أن الوصي اجل توقيعها، وغادر بغداد الى الديوانية، الى دار قائد الفرقة الرابعة اللواء الركن ابراهيم الراوي، ليتجنب الضغط عليه، وحمله على توقيع الارادة بحل مجلس النواب. ثم جرت تسوية اقنع فيها رشيد عالي الكيلاني، بأن يستقيل من الوزارة، وان يشكل الوزارة الجديدة طه الهاشمي، ويعود الوصي الى بغداد ـ وتم ذلك ـ وشغل طه الهاشمي بالاضافة الى رئاسة مجلس الوزراء وزارة الخارجية ووزارة الدفاع بالوكالة.

في عهد هذه الوزارة، صدر قرار بنقل كامل شبيب قائد الفرقة الأولى (ومقرها بغداد) الى قيادة الفرقة الرابعة (ومقرها الديوانية).

وبالاتفاق بين القادة الأربعة، امتنع كامل شبيب عن تنفيذ الأمر، حتى انه رفض أن يأخذ اجازة. وقد اعتبر القادة أن هذا النقل هو الخطوة الأولى لإخراجهم من الجيش، بعد تشتيتهم بأن يكون مقر صلاح الدين الصباغ قائد الفرقة الثالثة في جلولاء، حيث توجد اكثرية قطعات الفرقة، بدلا من أن يكون في بغداد.

في أول نيسان 1941 ليلا، ذهب العقيد فهمي سعيد، احد القادة الأربعة، ومعه أمين زكي، رئيس أركان الجيش بالوكالة الى دار رئيس الوزراء طه الهاشمي، وطلبا منه باسم الجيش الاستقالة من رئاسة الوزراء، وان الجيش يثق برشيد عالي الكيلاني، لتولي الحكم، ووقع طه الهاشمي الاستقالة. ولما علم الأمير عبد الاله بذلك، هرب من قصر الرحاب الى المعسكر البريطاني في الحبانية، ومنه الى البصرة، حيث أقام في سفينة حربية بريطانية راسية في شط العرب. ولما وجد القادة ورشيد عالي الكيلاني، أنه لم يعد في بغداد وصي على العرش، تقدم إليه الاستقالة فيقبلها، ويعهد إلى رشيد عالي الكيلاني بتأليف الوزارة، اقاموا حكومة بإسم (حكومة الدفاع الوطني) برئاسة رشيد عالي الكيلاني. وهذه الحكومة جمعت مجلس الأمة، المكون من مجلس النواب ومجلس الأعيان، وقرر عزل الأمير عبد الاله من الوصاية على

العرش وتعيين الشريف شرف وصيا بدلا منه. والشريف شرف قبل الاستقالة التي كان قد وقعها طه الهاشمي، وقبلها، وعهد الى رشيد عالي الكيلاني بتأليف الوزارة، فألفها وكان ذلك بتاريخ 12 نيسان سنة1941 .

وما اعقب ذلك معروف، فقد كتب عن تاريخ العراق في هذا الوقت الكثير من المقالات والكتب والرسائل الجامعية، ونشر عدد من الساسة مذكراتهم التي تناولت هذه الأحداث التي تطورت من أزمة عدم قطع العلاقات مع ايطاليا، الى اتصال وزير باتفاق مع بعض الساسة والقادة بالفون بابن سفير المانيا الهتلرية في أنقرة، الى ازمة مرور القوات البريطانية عبر العراق إلى الحرب التي بدأت في 2 مايس 1941.

صفاء الحافظ ـ الخلفيات ـ موقف القوى السياسية هو الذي يهمنا كثيرا.

حسين جميل - القوى السياسية الوطنية أيدت الحركة ووقفت معها وساندتها، وهذا أمر لا شك فيه، وقد تجلى ذلك بصورة اوضح، عندما بدأ الصدام المسلح في الحبانية، حيث فتحت القوات البريطانية في معسكر الرشيد النار على القوات العراقية التي كانت حول المعسكر. ووقوف القوى السياسية الوطنية بجميع فصائلها الى جانب الحركة، لا يحتاج الى تفسير. ويكفي لذلك انها حركة ضد ـ الانكليز، وضد قواتهم التي كانت ما تزال متمركزة في العراق ولها معسكرات، وضد النفوذ البريطاني الذي كان ما زال على الشؤون العراقية وعلى الحكم والحاكمين، رغم اعلان استقلال العراق شكليا، ودخوله عضوا في عصبة الأمم. ولا ننسى المصالح الكبيرة التي كانت لبريطانيا في العراق وفي مقدمتها امتيازات النفط، مما يجعل القوى الوطنية تعمل على التحرر من هذه القيود التي تحد من استقلال العراق، وان تحارب النفوذ البريطاني فيه، وتعمل على انهاء المركز الممتاز الذي تتمتع به بريطانيا في العراق .

فكان اليساريون مع كل القوى الوطنية السياسية الأخرى في العراق، مع الحركة قلبا وقالبا. وقد قاموا بكل ما يستطيعون عمله مع الحركة. واذكر انهم قاموا بنشاط في كل ميدان، مثل تنظيم الأسواق والسيطرة على بيع بعض المواد المعيشية، وتنظيم التطوع في الحرب ضد الانكليز.

صفاء الحافظ ـ انا اتذكر اننا في الفتوة في الحلة وساهمنا في الحركة. وكان شعور كل القوى الوطنية ضد الانكليز.

حسين جميل - هذا صحيح. وعندما انتهت الحركة، ترك العراق الى ايران كثيرا من العناصر اليسارية التي كان لها نشاط في الحركة.

صفاء الحافظ ـ مقتل غازي نسينا ان نذكر شيئا عنه. ماهي قصة مقتله، هل لها جانب سياسي، أم انه حادث عادي؟

حسين جميل - موضوع مقتل الملك غازي ما زال موضع خلاف حتى الآن؛ فمنذ وقع في يوم 4 نيسان سنة 1939 الى هذا اليوم، هناك من يقول انه قتل في حادث اصطدام سيارته بعمود حديدي للكهرباء، وان الحادث وقع قضاء وقدرا، بسبب سرعة سير السيارة. وهذه السرعة كانت معروفة في سياقة الملك غازي. وهناك من يقول انه قتل من جهة ما (يذكرونها). ولكي يكون

حديثنا في هذا الموضوع واضحا، يجب ان نتحدث عن ظروف الحادثة، والأسباب التي تميل الى نسبة الحادث الى جريمة قتل، والأسباب التي يقول بها الآخرون بأن الحادثة ان هي إلا حادثة قضاء وقدر. وبعد استعراض الموضوع على هذا الوجه، سوف أبين ما أميل الى ترجيحه بين الموقفين.

أبين اولا انه لا شك أن الإنكليز لم يكونوا يميلون إلى الملك غازي، وأنهم كانوا يرون أن وجوده على رأس الدولة سبب لهم متاعب كثيرة وسوف يسبب لهم متاعب أكثر في القادم من الأيام، والعالم على ابواب حرب عالمية، كانت النذر تشير الى انها قادمة أو أنها على وشك الوقوع. فمنذ وقوف غازي ضد تمرد الاثوريين وقمعه هذا التمرد بشدة، اسماها الانكليز "قسوة" - وكان الامير غازي حينذاك نائبا للملك - منذ ذلك الوقت لم تعد السلطات البريطانية تتعاطف مع غازي.

وبعد توليه العرش جاء موقفه من المطالبة بضم الكويت الى العراق، وتنظيمه اذاعة خاصة به، تذيع من قصر الزهور، تطالب بالكويت وتهاجم الانكليز. واذا كان هذا هو رأي الانكليز في الملك غازي، فانهم كانوا يرون في ابن عمه الامير عبدالاله - اذا ما كان على رأس الدولة العراقية - ما يحقق الانسجام مع سياستهم ويؤكد نفوذهم ويحقق مصالحهم. اما نوري السعيد الذي كان رئيسا للوزراء عند مقتل الملك غازي، فقد كان يحقد على الملك غازي، ويعتبره شريكا في انقلاب بكر صدقي 1936، وان الانقلاب تم بالاتفاق معه، وبالتالي فهو مسؤول عن ذلك الانقلاب، وعن مقتل جعفر العسكري في اول احداث هذا الانقلاب. وقد اكدت الوثائق التي كشف عنها الستار مؤخرا هذا الموقف لنوري السعيد من الملك غازي. الى جانب هذا الموقف الخاص بنوري السعيد من الملك غازي، فمن المعروف انه اذا كان الانكليز متهمين بمقتل الملك غازي، فان هذا الاتهام يمتد الى نوري السعيد، بانه متواطئ معهم، او متفق معهم على العملية.

ثم يأتي قرار غلق التحقيق في مقتل الملك غازي بسرعة، وفي نفس يوم وقوع الحادث، وظروف تنصيب الأمير عبدالإله وصيا علي العرش، من قبل مجلس الوزراء برئاسة نوري السعيد، والادعاء بان الملك غازي اوصى بان يكون عبدالاله وصيا على ولده الأمير فيصل. كل هذه الظروف قال بها الذين يقولون ان الملك غازي انما قتل، ولم يمت في حادث سيارة وقع قضاء وقدرا.

الفئة الأخرى التي تقول بأن الحادث وقع قضاء وقدرا، تقول انه ليس كل من يتمنى موت شخص آخر او انهاء حياته بوجه من الوجوه، يكون قد قتله اذا وقع له حادث مات فيه، فانه لا بد من دليل مادي على ارتكاب جريمة القتل، او ادلة مقنعة. وهم يقولون انه ليس في حادثة مقتل الملك غازي هذا الدليل. وانه لا شك أن الانكليز ونوري السعيد كانوا يريدون انهاء عهد الملك غازي في رئاسة الدولة، وجاء مقتله في حادث السيارة محققا لرغبتهم أو متوافقا مع تمنياتهم، ولم يقع مقتله بالاتفاق معهم (اي مع الانكليز ونوري) وفرق بين التوافق والاتفاق.

اما الرأي الذي اميل الى ترجيحه بين الموقفين - فقد يكون نتيجة عملي في القضاء، حوالي ثلاث عشرة سنة، حيث لا يمكن أن

الحكم في قضية بدون دليل قاطع، وأنا أفتقد هذا الدليل في هذه القضية. صحيح أني اتفق مع القائلين بالرأي الأول عن الاتجاه البريطاني تجاه الملك غازي، وموقف نوري السعيد منه. وكذلك كون الأمير عبدالاله الذي اصبح وصيا على العرش، ورئيسا فعليا للدولة بعد ذهاب الملك غازي، هو في الجهة التي كان لها مصلحة في ذهاب الملك غازي. كل هذا صحيح، ولكن هل كان ذهابه نتيجة حادث وقع قضاء وقدرا، وتوافق مع مصالحهم، ام انه تم بفعل اجرامي، اتفق عليه اولئك المخططون المحرضون مع من نفذ العملية؟ ليس لدي أنا شخصيا، دليل على هذا الاتفاق. ثم ان هناك سببا آخر يحملني على الميل إلى أن ارجح أن الحادثة وقعت نتيجة اصطدام بعامود الكهرباء، نتيجة سير السيارة بسرعة، هذا السبب هو التقرير الطبي الذي يقرر ان اصابة راس الملك غازي كانت من الأمام عند الجبهة. وقد سألت مؤخرا طبيبا محترما أثق به كل الثقة - وقد كانت له صلة وثيقة مع بعض الأطباء الذين أجروا الفحص الطبي على الملك، بعد اصابته مباشرة، وقال لي ان الجراح الدكتور ابراهام ايد له في حينه، ان اصابة الملك كانت من الإمام. وكذلك قال له ذلك الدكتور صائب شوكت الذي شارك في الفحص. في حين قال الذين ينسبون الحادث الى قتل عمد، ان عبدا كان يجلس في المقعد الخلفي للسيارة هو الذي ضرب الملك عندما كان الملك يقود السيارة. اما بنسبة السير بسرعة الى الملك، فانه كان معروفا ان الملك اعتاد هذه السرعة، عند قيادته السيارة، وانه كان كثير المجازفات، ومن ذلك قيادته الطيارة، حتى انه ذهب الى الكوت لافتتاح سدة الكوت قبل حادث السيارة بوقت قليل، ذهب الى الكوت، وهو يقود الطيارة.

هذا هو الرأي الذي اميل اليه. دون أن ابرئ الانكليز واعوانهم من تهمة التفكير بل ربما التخطيط لإزاحة الملك غازي، والتخلص منه في رئاسة الدولة بوجه من الوجوه. ولكن جاء الحادث - برأيي - محققا لرغبتهم وفي الوقت المناسب. وارجو المعذرة أستاذ صفاء، فقد اكون تكلمت بتفصيل اكثر مما يسمح به حوارنا وحديثنا باستعراض ذكريات الماضي، لا سيما مما يعني الحركة الوطنية الحديث فيه.

صفاء الحافظ - هل كان للملك غازي اتصالات مع المانيا؟

حسين جميل - الحقيقة ليست لدي معلومات في هذا الموضوع.

صفاء الحافظ - نتحدث عن جريدة الأهالي - او صوت الاهالي - لدى استئناف صدورها في سنة 1943.

حسين جميل - استأنفت (صوت الأهالي) الصدور في آخر صيف سنة 1942 بعد ان كانت قد توقفت عن الصدور منذ استقال الوزراء الأربعة من وزارة حكمت سليمان في حزيران 1937. وعند بدء صدورها في سنة 1942 لم أكن في بغداد. كنت في الحلة، ولكن لقرب الحلة من بغداد، كنت اتردد عليها. وفي صيف 1943 نقلت الى بغداد وبقيت اعمل في القضاء الى اول سنة 1946 حيث استقلت، لاشترك في تقديم طلب باجازة (الحزب الوطني الديمقراطي).

في هذا الوقت الذي صدرت فيه صوت

الأهالي، وقبيل ذلك، كان قد حدث انفراج في الوضع الداخلي في العراق، لاسيما بالنسبة لليساريين والتقدميين بوجه عام. وكان سبب ذلك دخول الاتحاد السوفيتي الحرب ضد المانيا الهتلرية. ومعلوم أن ضراوة الحرب في جبهة الاتحاد السوفيتي ومشاركة الاتحاد السوفيتي في الحرب بكل ثقله، احدث تصدعا خطرا في الجهاز الحربي الهتلري. واذا كان ذلك الجهاز، قبل ذلك، يخرج من نصر الى نصر، فانه في هذا الوقت الذي نتحدث فيه، بدأت وجهة الحرب تتغير وبدأت علامات النصر للجبهة الديموقراطية تتحقق، وبدأت الانتكاسات الخطرة للمعسكر النازي - الفاشي. هذه الظروف فسحت مجال العمل للعناصر والقوى اليسارية والتقدمية والديموقراطية في العراق، فكان صدور جريدة (صوت الأهالي) احد اهم مظاهر النشاط الديموقراطي التقدمي في هذا الوقت.

وكانت سياسة جريدة (صوت الأهالي) في هذا الوقت في الشؤون الداخلية، المطالبة بأن يمارس الشعب والمواطنون حرياتهم وحقوقهم الدستورية. وحيث كان العراق قد خرج من وقت قريب من احداث خطيرة تتعلق بأمنه واستقراره، فقد حرصت الجريدة، في أن تبين ان تلك الاضطرابات، انما كانت بسبب افتقاد الديمقراطية وعدم احترام الدستور في التطبيق، وطالبت (الاهالي) للشعب والمواطنين بحق التنظيم السياسي، وللعمال بحق تأليف النقابات. وبسبب ظروف الحرب فقد عنت الجريدة بمشاكل البلاد الحياتية من تموين وسكن وما الى ذلك. وبوجه عام كانت الجريدة تبحث عما يجب أن تكون عليه الأوضاع في عالم ما بعد الحرب. وكانت تكافح الأفكار الفاشية.. و(صوت الأهالي) كانت حينذاك تستهدف أن تكون مركزا لتجمع سياسي، على ان يتطور هذا التجمع الى حزب سياسي، كما وقع فعلا عندما تأسس (الحزب الوطني الديموقراطي) في اوائل سنة 1946.

وفي الميدان العربي كانت (صوت الأهالي) تدعم حركة استقلال الأقطار العربية، التي كانت محرومة من استقلالها مثل سوريا ولبنان، وتطالب باحترام حقوق الشعب العربي في فلسطين، وحقه في الاستقلال في وطنه، وتشجب الهجرة الصهيونية الى فلسطين، وتدعم حركة التحرر الوطني في البلاد العربية، لاسيما في اقطار شمالي افريقية، وعندما ظهرت فكرة انشاء جامعة الدول العربية، أيدت الفكرة، ودعت إلى تحقيق التضامن العربي وتطويره الى اتحاد الدول العربية.

في الموقف من الحرب كانت تناصر (الجبهة الديمقراطية) وتواصل توعية الناس ضد خطر الاحتلال النازي للبلاد العربية، وبيان الكوارث التي تحل بالعالم في حالة انتصار المحور.

صفاء الحافظ ـ من ساهم في الكتابة في صوت الأهالي في ذلك الوقت؟

حسين جميل - كامل الجادرجي ومحمد حديد وعبد الفتاح ابراهيم وعزيز شريف وعبد الرحيم شريف وبعض الكتاب الآخرين. وأرجح ان احدهم يوسف متي. وكان بعض الكتاب الشيوعيين يكتبون في صوت الأهالي، دون أن تذكر اسماءهم. وربما كان هذا سبب ما دار من جدل وخلاف حول

نشر اسماء الكتاب او عدم نشر اسمائهم. وتغلبت وجهة نظر الاستاذ كامل الجادرجي الذي كان صاحب امتياز الجريدة ورئيس تحريرها بعدم نشر الأسماء في حين كان من رأي الاستاذ عزيز شريف، أن تنشر اسماء الكتاب. بعد ذلك ترك عزيز شريف الجريدة، وكذلك عبدالرحيم شريف، وفي احدى مراحل العمل ترك الأستاذ عبد الفتاح ابراهيم الجريدة. وبقي الكتاب الأساسيون في صوت الأهالي، الاستاذ كامل الجادرجي والأستاذ محمد حديد. واستمر ابتعاد الأستاذين عبد الفتاح ابراهيم وعزيز شريف عن العمل مع الاستاذ كامل الجادرجي الى الاخير، حيث كان كامل الجادرجي عندما تألفت الأحزاب في أوائل سنة 1946 على رأس (الحزب الوطني الديموقراطي)، في حين ألّف الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم (حزب الاتحاد الوطني)، والاستاذ عزيز شريف ألّف (حزب الشعب).

اننا الآن اذا استعرضنا مسيرة الحركة الوطنية والديموقراطية واليسارية أو التقدمية، بوجه عام في العراق، فان اسئلة معينة تفرض نفسها علينا لنبحث فيها. وأحد من هذه الاسئلة (هل كان من الممكن تأليف حزب واحد للحركة الوطنية الديموقراطية)، والسؤال الاخر: ألم يكن من مستلزمات العمل في الحركة الوطنية ضد النفوذ الاجنبي ومراكز الدول الاستعمارية في العراق وضد اساليب الحاكمين المتعارضة مع مصالح الشعب وحقوقه، ألم يكن من مستلزمات العمل من اجل هذه الأهداف أن تقوم (جبهة وطنية تضم الأحزاب والهيئات والجماعات الوطنية والديموقراطية والقومية، وحتى شخصيات سياسية وطنية) يتفقون جميعا على منهج يجمع المبادئ التي يتفقون عليها، ولو بحدّها الأدنى، ويتفقون على اسلوب العمل، من اجل تحقيق تلك الأهداف، وتبقى اطراف الجبهة تعمل منفردة من اجل اهدافها الاخرى؟ وسؤال ثالث (هل كان يمكن تجنب الخلافات والانقسامات التي وقعت في الحركة الوطنية الديموقراطية والقومية التقدمية. خلافات وانقسامات وقعت بين هيئات وعناصر وطنية لا شك في وطنيتها واخلاصها، واستهدافها المصلحة الوطنية في عملها العام؟).

صفاء الحافظ - هل افهم من كلامك انه كان ممكنا قيام حزب واحد ذي طبيعة وطنية، يقف أمام القوى الاستعمارية وحليفتها القوى الرجعية؟

حسين جميل - اعتقد ان قيام حزب واحد للحركة الوطنية، لم يكن ممكنا لاختلاف النظريات السياسية والاجتماعية التي قامت الأحزاب على اساسها واختلاف المصالح، التي كان يمثلها كل حزب، ولكن كان من الممكن جدا، بل كان من اللازم قيام (جبهة وطنية) واسعة للعمل من اجل اهداف مشتركة. والحزب الوطني الديموقراطي وقيادته كان يؤمن بالجبهة الوطنية، وسعى فعلا لإقامتها، وفي فترات من تاريخ عمله، اقام تلك الجبهة أكثر من مرة. والمبدأ الذي كان يسيّرنا في العمل من اجل هذه الجبهة والموقف منها، هو اننا ننظر الى (الجبهة) على انها طريقة أو اسلوب العمل، وسيلته تجميع او توحيد مساعي وامكانيات قوى أحزاب أو هيئات او كتل سياسية متفقة على نقاط معينة، او تستهدف الوصول الى هدف

معين للعمل من اجل تحقيق تلك النقاط والوصول الى الهدف المشترك، مع الاتفاق على أسلوب العمل ايضا. وقد تكون النقاط المتفق عليها متعددة أو تكون نقطة واحدة. وكما يمكن ان تقوم (الجبهة الوطنية) بين جميع أطراف الحركة الوطنية التي تتفق على نقاط او نقطة تكون موضوع العمل المشترك، فانه يمكن أن تقوم الجبهة بين بعض الأطراف دون طرف او اكثر، بل قد تقوم بين طرفين اثنين فقط. وان كان الاتفاق بين جميع الأطراف افضل، وكلما كثرت الاطراف الوطنية المشتركة في الجبهة، كان ذلك افضل.. هكذا كان الحزب الوطني الديمقراطي وقيادته ينظر الى (الجبهة الوطنية)، لكن اريد الآن أن أبين أن لنا في الحزب موقفا تجاه الجبهة، قد لا نكون نشرناه في الجريدة، وقد لا نكون دونّاه على الورق، وبلغنا به طرفا من اطراف الحركة الوطنية، وإن كان هذا الموقف معروفا، حيث اتخذناه عمليا، كلما قامت مساعي لتكوين جبهة وطنية. هذا الذي اريد ان ابينه فرضه علينا واقع العمل السياسي في العراق في حينه، فمن المعروف أنه كان هناك خلاف شديد، والأحرى أن نقول أنه كان هناك صراع بين طرفين من اطراف الحركة الوطنية، هما الحزب الشيوعي العراقي، والاحزاب القومية. هذا الخلاف الشديد والصراع حملنا على ان لا نوافق على الدخول في جبهة وطنية، مع طرف واحد من هذين الطرفين، اذا لم يشترك فيها الطرف الآخر، ذلك اننا كنا نرى أن اشتراكنا مع طرف واحد من هذين الطرفين، دون الطرف الآخر، يجعلنا مع مرور الوقت طرفا في الخلاف او الصراع بين الطرف الذي نشترك معه في الجبهة، ضد الطرف الآخر ، أو ينظر الينا على هذا الأساس. ومن شأن هذا أن يؤدي إلى زيادة الخلافات بين احزاب وهيئات الحركة الوطنية، في حين ان الجبهة الوطنية تستهدف توحيد الجهود والمساعي، وعلى الأساس المتقدم الذي كنا ننظر فيه إلى الجبهة، قامت (الجبهة الوطنية) التي اشتركت في الانتخابات النيابية سنة 1954. وجبهة الاتحاد الوطني في سنة 1957 ضد حلف بغداد، ومن اجل الحريات الدستورية ومناوئة الأوضاع الفاسدة التي مارسها الحكم والدعوة الى اوضاع معينة، تضمّنها ميثاق الجبهة. وجميع الأطراف في الجبهتين ـ سابق الاشارة إليها ـ عملت بتعاون صادق وبجهد مشترك مخلص من اجل الاهداف التي قامت الجبهتان لتحقيقها.

هذه كانت نظرة الحزب الوطني الديموقراطي إلى الجبهة الوطنية، وهذا هو موقفه منها.

صفاء الحافظ ـ في الدعوة الى تأليف الجبهة الوطنية صدر كراس حول الموضوع لحسين الشبيبي وكانت هناك اتصالات مباشرة مع الحزب الوطني الديمقراطي في السعي لهذه الجبهة. هل تذكر شيئا بهذا الصدد؟

حسين جميل – نعم، أصدر المرحوم حسين الشبيبي كراسا او كتابا صغيرا عن (الجبهة الوطنية)، وقد اعيد نشر الكراس مؤخرا في كتاب معنون (كتابات الرفيق حسين محمد الشبيبي). وكنا في الوقت الذي كان الحزب الوطني الديموقراطي قائما، نتلقى مذكرات من حزب التحرر الوطني، ومن الحزب الشيوعي العراقي، تتضمن

الدعوة إلى قيام جبهة وطنية موحدة. وقد قامت الجبهة اكثر من مرة، وقد أشرت قبل هذا الى الجبهة التي قامت في سنة 1954 والجبهة التي قامت في سنة 1957، وفي كلتا المرتين كان الحزب الشيوعي العراقي طرفا من أطراف الجبهة. وعلى كل حال اشعر بأن موقف الحزب الوطني الديموقراطي من الدعوات التي تلقاها لقيام الجبهة كان السعي لان تضم تلك الجبهة الطرفين (الشيوعي والقومي)، وعندما يتعذر ذلك كان الحزب يعتذر، عن الاشتراك مع طرف واحد، وبالإضافة الى قيام الجبهة الوطنية الموحدة بين أطراف وطنية متعددة على الوجه المعروف في العمل السياسي للجبهات الوطنية، فقد جرى منذ 1946 تعاون بين طرف وآخر من اطراف الحركة الوطنية، لمواجهة موقف معين. كما أن المذاكرة بين اطراف الحركة الوطنية في الشؤون العامة، كان كثير الحدوث، منذ قيام الأحزاب السياسية في شهر نيسان سنة 1946. ولا شك أن قيام الجبهات الوطنية في المرات التي تحقق فيها قيامها، والتعاون بين طرف وطرف آخر من اطراف الحركة الوطنية والمذاكرات والمداولات المشتركة بين تلك الأطراف، خدم الحركة الوطنية.

ولا بد لي بهذه المناسبة، ان اقول انه كان للحزب الوطني الديموقراطي، ولا سيما لرئيسه المرحوم كامل الجادرجي دور طيب في تقريب وجهات نظر حزب قومي هو (حزب الاستقلال) باتجاه قبول العمل من اجل اهداف معينة مع الحزب الشيوعي العراقي، ومع منظمات او هيئات أو نقابات، محسوبة على الحزب الشيوعي أو في قياداتها عناصر شيوعية، حتى تطور الموقف الى قبول حزب الاستقلال، ان يكون طرفا في جبهة وطنية، تضم عناصر تمثل الحزب الشيوعي العراقي. وهنا اريد أن أوضح نقطة هي انه لما كان الحزب الشيوعي العراقي حزبا محظورا في سنة 1954 وحزبا سريا لا يعترف به النظام، وكان القانون يعاقب بأشد العقوبات على اعتناق الشيوعية، فان الجبهة الوطنية في سنة 1954 لم يشترك فيها الشيوعيون باسم الحزب الشيوعي العراقي، انما باسم منظمات وهيئات مثل (ممثل العمال) و(ممثل الطلاب) وما إلى ذلك.

ونقطة اخرى أريد أن أشير اليها أيضا بهذه المناسبة هي أن تعاون حزب الاستقلال مع العناصر الشيوعية وحتى مع عناصر يسارية من غير الشيوعيين، لم يمر في الحزب دون احتجاج، فقد اعترض على ذلك، ولم يقبل به بعض الاعضاء البارزين في حزب الاستقلال. اذكر منهم (خليل كنه) و(ابراهيم الحمداني)، واعلم انهما استقالا من الحزب لهذا السبب. واستقال آخرون لا اذكر الآن أسماءهم.

صفاء الحافظ ـ هل كان هناك اجماع داخل الحزب الوطني الديموقراطي حول الافكار التي عرضتها عندما تحدثتَ عن جبهة وطنية يدخل فيها جميع الأطراف وبضمنهم الشيوعيون، أم كان هناك من يتحفظ بالنسبة لدخول الشيوعيين في الفترة التي تناولها حديثنا؟

حسين جميل - يجب ان ابين انه ليس جميع من انتمى الى الحزب الوطني الديمقراطي يعتنق نفس النظرية السياسية أو الاجتماعية التي يعتنقها العضو الآخر،

فقد انتمى الى الحزب عدد كبير جدا ممن يمكن أن نعتبرهم يعتنقون مبادئ ومنهج ونظريات الحزب الوطني الديمقراطي واسلوبه في العمل الى جانب من انتمى الى الحزب ممن كان معجبا بجريدة الأهالي وكتاباتها، وكان يتبنى آراءها ومواقفها، في يوم من الايام. وانتمى الى الحزب كثير من اعضاء الحزب الوطني الذي كان قائما قبل ذلك، والى اوائل الثلاثينات برئاسة جعفر ابو التمن، وانتمى إليه ماركسيون، اما انهم غير شيوعيين او انهم شيوعيون لديهم ما يمنعهم من الانتماء الى الحزب الشيوعي العراقي، لسبب من الأسباب، وانتمى الى الحزب أحرار فكر، وديموقراطيون يؤمنون بالديمقراطية السياسية دون مضمون اجتماعي. وانتمى الى الحزب اشخاص لمجرد ثقتهم بشخصيات بعض مؤسسيه. وانت تقدر انه في هذه الحالة التي وصفتها لابد ان يكون هناك تفاوت في الآراء والمواقف. وقيادة الحزب كانت دائبة العمل لايضاح مبادئ الحزب ونظرياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية وآرائه ومواقفه من اجل تحقيق التجانس بين عناصره. وفي موضوع سؤالك اقرر ان قيادات الحزب سواء اعضاء اللجنة الادارية المركزية واللجان الرئيسية في الحزب كانت متجانسة في الرأي والمواقف وكانوا جميعا متفقين في الموقف من (الجبهة الوطنية) على الوجه الذي شرحته. وفي موقف من الحزب الشيوعي ومن الشيوعيين لا استطيع ان اقول ان جميع اعضاء اللجان المركزية المتعاقبة واعضاء اللجان الرئيسية في الحزب، كان في رأي واحد وموقف واحد. حتى مكتب الرئاسة (وهو مكتب يتكون من الرئيس ونائب الرئيس والسكرتير العام، فخول باتخاذ مواقف في الشؤون العاجلة التي لا يتيسر الوقت لاجتماع اللجنة الادارية المركزية، أو لا تساعد الظروف على اجتماعها)، مكتب الرئاسة نفسه لم يكن في رأي واحد أو موقف واحد من موضوع التعاون مع الحزب الشيوعي. فالمرحوم الاستاذ كامل الجادرجي رئيس الحزب كان اكثر ميلا للتعاون مع الشيوعيين، من نائب الرئيس الاستاذ محمد حديد ومن السكرتير العام حسين جميل، اللذين كانا في رأي واحد تقريبا.

واعضاء اللجنة الادارية المركزية، كان يتفاوت موقفهم في هذا الموضوع؛ فمنهم من كان يرى التعاون مع الشيوعيين حتى اكثر من المرحوم كامل الجادرجي، مثل المرحوم الأستاذ ناظم حميد. ومنهم من كان لا يميل الى العمل معهم إلا بشروط مشددة. واستطيع ان اقول انه كان في الحزب الوطني الديموقراطي، من يحاول أن يتخذ الحزب مواقف منسجمة مع مواقف الحزب الشيوعي العراقي، ولأضرب لهذا مثلا، الموقف من الانتخابات النيابية التي جرت في العراق في اول سنة 1947. صدر في اواخر سنة 1946 قانون جديد لانتخاب النواب، جعل الدائرة الانتخابية صغيرة فردية (اي لها نائب واحد)، أو أن يكون لها نائبان او ثلاثة كحد أقصى، بدلا من القانون السابق الذي كان يجعل اللواء دائرة انتخابية واحدة، بما فيه من مدن وعشائر، وللسهولة التي وجدتها السلطة التنفيذية في اظهار كون العشائر، صوتت لمرشح الحكومة، فان اقامة دائرة فردية في المدن، فتحت مجالا لأهل المدن بان

ينتخبوا نائبهم مما يمكّن القوى الوطنية بان توصل عددا من مرشحيها إلى مجلس النواب، هذا بالإضافة الى تقرير اشراف للحكام على بعض اجراءات الانتخابات. المكلف بتشكيل الوزارة التي سوف تجري الانتخابات، وكان نوري السعيد، طلب من الحزب الوطني الديموقراطي ان يشترك في الوزارة للإشراف على سلامة الانتخاب، كما طلب نفس الطلب من حزب الاحرار، قبِل الحزب مبدأ الاشتراك بالوزارة للاشراف على سلامة الانتخاب، وقررت اللجنة الادارية المركزية أن يكون ممثلها في الوزارة الأستاذ محمد حديد نائب رئيس الحزب، واشترك في الوزارة، وقرر الحزب الاشتراك بالانتخابات، واعلن عن مرشحيه فيها، وبدأت اجراءات الانتخابات. ثم ان مداخلات غير قانونية، بدأت في اجراءات الانتخابات لمصلحة مرشحي الحكومة والمرشحين من كتلة داخل الوزارة، كان على رأسها صالح جبر، الأمر الذي اعترض عليه الأستاذ محمد حديد، ووجه الكتب بشأن ذلك الى رئيس الوزراء، ولما تمادى التدخل غير المشروع في الانتخابات، قرر الحزب الانسحاب من الوزارة وقدم الاستاذ محمد حديد استقالته. كل هذا تم بإرادة الحزب الحرة، دون تدخل من أحد. ولكن موقف بعض أعضاء الحزب وبعض اعضاء اللجنة الادارية المركزية، بعد هذا، اعتقد انه تأثر بموقف الحزب الشيوعي العراقي، فان الحزب الشيوعي قرر مقاطعة الانتخاب احتجاجا على التلاعب بالانتخابات من قبل السلطة التنفيذية واذا بأعضاء من الحزب، يطلبون من اللجنة الإدارية المركزية اتخاذ الموقف نفسه، ويتقدم بالطلب نفسه عضو في اللجنة الادارية المركزية. كان باب الترشيح للنيابة في هذه المرحلة، قد اغلق، ولو أن الحزب يوافق على هذا الاقتراح ويقرر مقاطعة الانتخاب، ويسحب مرشحيه، فمعنى ذلك فرض خصوم مرشحي الحزب في الدوائر المرشحين فيها نوابا بالتزكية، على خلاف رأي الناخبين.

ولما نوقش الاقتراح في اللجنة الادارية المركزية، صوت ثلاثة أعضاء بجانب المقاطعة وصوت ثلاثة بجانب الاستمرار في المعركة الانتخابية الى نهايتها، وكان عدد أعضاء اللجنة الادارية المركزية سبعة، صوت رئيس الحزب بجانب الاستمرار في الانتخاب. وفاز في الانتخاب من مرشحي الحزب اربعة مرشحين. وبعد أن أعلنت النتيجة قررت اللجنة الإدارية المركزية سحب نواب الحزب من المجلس والاستقالة منه، احتجاجا على التلاعب في الانتخاب، وكنت قد انتخبت نائبا عن الدائرة الثانية في بغداد، فاستقلت من المجلس، دون أن أذهب اليه.

صفاء الحافظ - في هذه المرحلة، هل كنتم متفقين على (الفكر الاشتراكي الديمقراطي) أم كانت هناك وجهات نظر اخرى؟

حسين جميل - في سنة 1947 قدم رئيس الحزب مذكرة الى اللجنة الإدارية المركزية، يدعو فيها الى ان تكون (الاشتراكية الديمقراطية) فلسفة للحزب. وتداولت اللجنة في الاقتراح وبحثته وما يتصل به بتفصيل، ولأسباب يطول شرحها، لم توافق اللجنة الإدارية المركزية، على الاقتراح.

اعاد الاستاذ كامل الجادرجي رئيس الحزب، اقتراحه في سنة 1950 وقدم مذكرة مفصلة في هذا الموضوع ناقشتها اللجنة الإدارية المركزية، وقررت قبول مبدأ الاشتراكية الديمقراطية مذهبا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا للحزب.

صفاء الحافظ - متى بدأت العلاقة بين الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال؟

حسين جميل - استعرض الآن باختصار علاقة الحزب الوطني الديمقراطي بحزب الاستقلال مذ أجيزت الأحزاب في سنة 1946الى نهاية العهد الملكي. أجيزت الأحزاب السياسية في شهر نيسان سنه 1946 – كما تعرف – وكانت الاحزاب المجازة هي (الحزب الوطني الديمقراطي) و(حزب الاتحاد الوطني) و(حزب الشعب) و (حزب الاستقلال) و(حزب الاحرار)، ولم توافق وزارة الداخلية على طلب تأسيس (حزب التحرر الوطني) – كما تعلم دكتور صفاء لأنها قالت ان وراءه الحزب الشيوعي العراقي.

في ظروف نيسان 1946 وبعد ذلك كانت لجنة التحقيق الامريكية - الانكليزية تبحث موضوع مستقبل فلسطين وزارت العراق. الأحزاب المجازة الخمسة أقامت تعاونا بينها لبذل جهود مشتركة للدفاع عن وجهة النظر العربية في هذه القضية. والفت (لجنة الأحزاب للدفاع عن فلسطين) فكان هذا أول عمل مشترك يجمع بين (الحزب الوطني الديمقراطي) و(حزب الاستقلال). ويجب ان اذكر انه لم يكن جميع أعضاء حزب الاستقلال البارزين او جميع قياداته، راضين عن هذا التعاون، فقد كان بينهم، من لم يرتض ذلك، حيث كان يعتبر الأحزاب الثلاثة - عدا حزب الاستقلال وحزب الأحرار - احزابا شيوعية. ولا يرتضون ايجاد صلة لهم معها. ولكن (لجنة الدفاع عن فلسطين) المشكلة من جميع الأحزاب، كان لرئيس حزب الاستقلال الشيخ محمد مهدي كبه، ولسكرتير الحزب العام حينذاك الاستاذ فائق السامرائي ولعضو قيادته العليا الأستاذ محمد صديق شنشل، دور ايجابي كبير في قيامها. وقد بقي هؤلاء الأساتذة الى الأخير، منفتحين على العمل للصالح العام، مع جميع العناصر الوطنية المخلصة، ايا كانت انتماءاتها الحزبية.

في سنة 1947 ساءت علاقة الحزب الوطني الديموقراطي بحزب الاستقلال، وربما بسبب الانتخابات النيابية التي دخلها الحزبان متخاصمان، في عدد من المناطق الانتخابية، حتى انه كان للحزب الوطني الديمقراطي خمسة منتخبين ثانويين في المنطقة الخامسة في بغداد، هم منتخبو محلة (فضوة عرب) وكان المرشحان في هذه المنطقة الأستاذ عبدالرزاق الشيخلي والمرحوم الاستاذ ذيبان الغبان من جهة، يخاصمه الشيخ محمد مهدي كبه رئيس حزب الاستقلال، وقرر الحزب تأييد عبدالرزاق الشيخلي، وذيبان الغبان ضد الشيخ محمد مهدي كبة، وبلغ المنتخبون الثانويون الخمسة بقرار الحزب هذا. وجرت الانتخابات وفاز عبدالرزاق الشيخلي وذيبان الغبان. ونتيجة التصويت أظهرت أن فارق الأصوات بين الطرفين كانت هذه الأصوات الخمسة فقط، فقد كانت الانتخابات على درجتين كما تعلمون. ودون

أن أنتقص من قيمة الأستاذ الشيخ محمد مهدي كبه ودوره في الحركة الوطنية، فان الاستاذين عبدالرزاق الشيخلي وذيبان الغبان، كانا ايضا اهلا للتأييد، وقد قاما في المجلس النيابي بدور وطني فعال، وكانا من اكثر نواب المعارضة بروزا في كشف فساد الأوضاع، والدعوة الى الاصلاح الذي يحقق سيادة الشعب ومصالحه. وقاما بدور مهم في (الجبهة الدستورية) التي تكونت في المجلس سنة 1947. وعندما بدأ صالح جبر رئيس الوزارة في الأشهر الأخيرة من سنة 1947 مساعيه لعقد معاهدة عراقية - بريطانية على أساس الدفاع المشترك، ثم بدأ مفاوضاته مع بريطانيا في كانون الأول من تلك السنة، عاد الوئام بين (الحزب الوطني الديمقراطي) و(حزب الاستقلال) اولا بالمذاكرة بين قيادتي الحزبين، حول الموقف الذي يجب اتخاذه، وتطور الوئام بين الطرفين الى تعاون وثيق في احداث الانتفاضة الوطنية العظيمة، ضد مشروع معاهدة جبر - بيفن طيلة شهر كانون الثاني سنة 1948. تلك الانتفاضة التي اسقطت مشروع هذه المعاهدة. واعقب الانتفاضة الانتخابات النيابية التي أجرتها وزارة المرحوم السيد محمد الصدر، ونجح لكلا الحزبين مرشحون اصبحوا نوابا، تعاونوا في المجلس في جبهة للمعارضة فعالة ونشطة وقوية، كانت في رأيي العهد الذهبي للمعارضة البرلمانية في العراق بما حققته من تنظيم، وبما قامت به من نشاط على اسس علمية وسليمة ضد الاوضاع الفاسدة. ولم يكن اثرها مختصرا على المجلس النيابي فقط، بل انها كانت سندا للحركة الوطنية بعمومها، خارج المجلس ايضا.

في سنة 1954 جرت انتخابات نيابية. وقبل اجرائها وقد عرف ان العراق مقدم على انتخابات لمجلس نواب جديد رأت احزاب الحركة الوطنية، انها يجب ان تتعاون مع بعضها في جبهة وطنية، تخوض الانتخابات، وجرت اتصالات لقيام هذه الجبهة التي تحققت بين (الحزب الوطني الديمقراطي) و(حزب الاستقلال) و(الحزب الشيوعي العراقي)، (تحت ستار منظمات مهنية وهيئات وطنية اخرى). واشترك في الجبهة ايضا شخصيات وطنية معروفة غير منتمية الى حزب من الاحزاب. ويجب ان اذكر ان المرحوم الاستاذ كامل الجادرجي قام بمساع حميدة في الاتصالات الاولى من اجل قيام الجبهة حتى قامت فعلا. ويجب ان اذكر من جهة اخرى ان اشتراك (حزب الاستقلال) وهو حزب قومي فيه، عناصر مهمة لا ترتضي العمل مع الشيوعيين. اقول ان اشتراك (حزب الاستقلال) في جبهة واحدة مع الشيوعيين، كان موقفا تم بتأثير قمة القيادة في حزب الاستقلال المتمثل بالشيخ محمد مهدي كبة، رئيس الحزب، وفائق السامرائي نائب الرئيس، ومحمد صديق شنشل الامين العام للحزب، وهذا موقف لهم، يجب ان اذكره. واذكر مرة اخرى ان هذا التعاون مع جميع الفئات الوطنية بقي موقفا لهم الى نهاية العهد الملكي. قامت الجبهة الوطنية في سنة1954 وخاضت الانتخابات بتعاون مخلص بين جميع اطرافها وفاز بنتيجة الانتخابات اثنا عشر مرشحا من مرشحيها في بغداد والبصرة والموصل وسامراء وكوي سنجق. هذا المجلس حله نوري السعيد، ولم يجتمع إلا ساعة واحدة فقط.

نوري السعيد في عهد وزارته هذه التي حلت مجلس النواب، حل الاحزاب السياسية بمرسوم، وأصدر المراسيم المشؤومة الأخرى بحل النقابات واسقاط الجنسية عن الشيوعيين التي صدرت ضدهم أحكام من المجالس العرفية العسكرية أو المحاكم. والمراسيم الاخرى التي الغت القليل من الحقوق التي كان معترفا بها للشعب، ولو على الورق. في هذا العهد ايضا تعاون (الحزب الوطني الديموقراطي) و(حزب الاستقلال) في معارضة وزارة نوري السعيد واجراءاته التعسفية. بعد ان الغيت الأحزاب ورفض طلب تقدم به الحزب الوطني الديموقراطي لأخذ اجازة جديدة، اتفقت قيادتا الحزبين على تأليف حزب واحد يجمع بينهما، ووضعت القيادتان منهج الحزب الجديد واختار كل حزب، خمسة من القياديين فيه، ووقعوا طلب تأسيس الحزب الذي اختاروا له اسم (حزب المؤتمر الوطني). ورفضت وزارة الداخلية اجازة الحزب، غير أن الهيئة المؤسسة للحزب الجديد، استمرت في كتابة المذكرات وتقديمها إلى الجهات الرسمية او ارسالها الى جهات أخرى في داخل العراق وخارجه، وكانت تنشرها بوسائل النشر المتيسرة، واحيانا كانت تذاع من اذاعات دمشق والقاهرة، فقد كان اغلبها ضد حلف بغداد، وضد الدفاع المشترك، وكانت المذكرات توقع باسم (الهيئة المؤسسة لحزب المؤتمر الوطني). وأحد اوجه التعاون بين الحزبين قبل الاتفاق على تأليف (حزب المؤتمر الوطني) كان هناك عمل مشترك ضد حلف بغداد، الذي فرضه نوري السعيد على العراق.

وجاءت أزمة السويس والعدوان الثلاثي على مصر. واكدت هذه الأحداث التعاون بين جميع أطراف الحركة الوطنية، ومن ضمنها (الحزب الوطني الديموقراطي) و(حزب الاستقلال) اللذان سألتني عن العلاقات بينهما.

وتطور التعاون بين جميع اطراف الحركة الوطنية ضد سياسة وزارة نوري السعيد، سواء في سياسته الداخلية والخارجية الى قيام (جبهة الاتحاد الوطني)، وهي جبهة سرية بدأت عملها في اوائل سنة1957 وقد قامت كما تعلم من (الحزب الوطني الديموقراطي) و(حزب الاستقلال) و(حزب البعث العربي الاشتراكي) و(الحزب الشيوعي العراقي) و(شخصيات وطنية مستقلة). وعملت وفق منهج متفق عليه بين هذه الاطراف، ودورها في معارضة حلف بغداد، وكشف الاوضاع السيئة التي يعاني منها الشعب ودورها في المطالبة بسيادة الشعب وحقوقه الديموقراطية والتخطيط لمستقبل أفضل للعراق، حتى قامت ثورة 14 تموز 1958 كل ذلك معروف مما لا حاجة للكلام فيه.

صفاء الحافظ - قبل هذا كانت توجد مأثرة لحسين جميل فقد قام بدور في الدفاع عن الحريات من خلال الكراريس التي نشرها والمقالات التي نشرها وعمله في نقابة المحامين.

وفي المرافعات - وهذا سؤالي- انت دافعت عن عدد غير قليل من الشيوعيين انطلاقا من مبادئك، ماهي اهم ذكرياتك التي تبرز أمامك الان وتعتز بها والحوادث التي تريد أن تشير اليها؟

حسين جميل- دكتور صفاء، انا اشكرك

كثيرا على هذه الكلمات الطيبة التي قلتها بحقي، والتي أعتز بها كل الاعتزاز. وأريد ان اقول بصدد اشارتك عن قيامي كمحام بالدفاع عن كثير من الشيوعيين في القضايا التي اتهموا بها، وجرت محاكمتهم عنها امام المجالس العرفية العسكرية وامام المحاكم المدنية، اقول بهذا الصدد بان دفاعي كان لأسباب متعددة اشير إليها الان باختصار. من تلك الأسباب، اني اؤمن بمبدأ هو ان الشخص لا يجوز أن يحاسب او يحاكم على فكرة يؤمن بها أو عقيدة يعتنقها. انما الحساب والعقاب لا يكون الا عمل يقوم به الشخص، وهذا العمل يجب ان يكون مضرا بالهيئة الاجتماعية وترى الهيئة الاجتماعية ان تحمي نفسها منه، باعتباره جريمة تفرض عليها عقابا بقانون. في حين ان اكثر القضايا التي حوكم فيها الشيوعيون كانت تقوم على اساس اعتناق الشيوعية ـ فكرة او عقيدة ـ خلافا للمبدأ الذي سبق ان اشرت اليه، بعدم جواز المحاكمة والعقاب على الافكار. وهذا سبب، وسبب اخر لدفاعي عن الشيوعيين هو اني اؤمن بان حرية الاعتقاد وحرية الرأي وحق التنظيم السياسي وكل الحقوق الاخرى هي للعراقيين جميعا، وليست لفئة دون اخرى، وهو مبدأ ينص عليه الدستور بالقول ان العراقيين متساوون في الحقوق والواجبات. واذا كنت انا لست شيوعيا، بل عضو في الحرب الوطني الديموقراطي، فان الصراع بين الحزب الوطني الديموقراطي والحزب الشيوعي العراقي يجب أن يكون صراعا سليما، عن طريق تبشير كل حزب بمنهاجه ومبادئه وآرائه ومواقفه من الاحداث واقناع المواطنين بمنهاجه وكسب اصواتهم في الانتخابات للوصول الى الحكم بإرادة الشعب.

ولا يدخل في فكري أن يكون اختلافي مع الحزب الشيوعي يمتد إلى أن أوافق على حرمانه من حق الوجود والعمل والتبشير بعقيدته سلميا، اي اني لا اعقل فكرة منع الحزب الشيوعي من العمل ومن باب أولى ارفض فكرة قمعه وملاحقة اعضائه.

سبب اخر لدفاعي عن الشيوعيين، هو اني كنت ولا ازال اؤمن بان الحزب الشيوعي جزء لا يتجزأ من الحركة الوطنية العراقية، يقف معنا في معسكر واحد ضد عدو مشترك، هو الاستعمار واعوانه المحليون، يحارب حربنا. وهو إلى جانب ذلك وبسبب أن الفئات الحاكمة ومن وراءهم من قوى أجنبية وداخلية يعادون الحزب الشيوعي العراقي والشيوعيين اكثر ما يعادوننا فانهم – أي الشيوعيين- كانوا يتلقون صدمة المعركة التي قامت بها الفئات الحاكمة، اكثر مما تعرضنا نحن كحزب وطني ديموقراطي واعضاء هذا الحزب بوجه عام.

ولا شك في أن الجو السياسي لو كان خاليا من الحزب الشيوعي العراقي لكانت فصائل المعارضة تلقت ضربات اقسى ممن تعرضت له فعلا في العهد الملكي. لذلك أنا لا اريد ان امتن على الشيوعيين بدفاعي عنهم، فاني كنت الى جانب الدفاع عنهم، ادافع عن حزبنا، وعن احزاب المعارضة والمعارضين بوجه عام الى اي حزب انتموا، او كانوا مستقلين. ثم اخيرا لا تنسى يا اخي صفاء اني كنت نقيبا للمحامين من 1953 الى 1957 ومن واجبي بهذه الصفة، أن ادافع عن المحامين الذين يتعرضون للمحاكمات السياسية، وان أدافع عن غير المحامين ايضا.

صفاء الحافظ ـ ماهي أهم الدعاوى التي ترافعت فيها؟

حسين جميل ـ هذا موضوع يطول الحديث فيه، فقد كانت القضايا كثيرة أمام القضاء المعادي والمجالس العرفية العسكرية في بغداد والبصرة وغيرهما.

صفاء الحافظ ـ اهم ذكرياتك.

حسين جميل ـ الآن وانا استعيد ذكريات الماضي، يعود الى ذاكرتي الكثير مما يمكن روايته، ولكني أشير الآن الى ظاهرة كانت تسود جميع المحاكمات السياسية التي شهدتها، مدافعا عن المتهمين او حضرتها مستمعا، هي أن المتهمين كانوا يتخذون من المحاكم منبرا للدفاع عن آرائهم ومواقفهم ومهاجمة الأوضاع الفاسدة التي كانوا يعارضونها. يدافعون عن مبادئهم ومواقفهم بجرأة، ويهاجمون الحكم الذي يعارضونه بشجاعة. لم يضعفوا ولم يتراجعوا ولم يخشوا أي حكم يمكن أن يواجههم. اقول هذا ليس بالنسبة للشيوعيين فقط، بل جميع المتهمين من شيوعيين وديموقراطيين وقوميين، تعرضوا للمحاكمات في القضايا السياسية. ان للعراق تراثا سياسيا رائعا.

صفاء الحافظ ـ أليست لديك حادثة معينة امام القضاء مع احدهم؟

حسين جميل ـ توجد ذكريات كثيرة. واذكر لك حادثة لا تتعلق بي مباشرة بل بزميل. في آخر سنة 1953 في عهد وزارة الجمالي، وقع اضراب لعمال النفط في البصرة، قتل فيه عامل برصاص السلطة. العمال بعدئذ جمعوا تبرعات لمساعدة عائلة العامل القتيل. السلطة اوقفت بعض العمال واجرت تحقيقا بشأن جمع التبرعات باعتبار أن جمعها كان بدون اجازة من السلطة المختصة. واحالت عددا من العمال على المحاكمة بهذه التهمة، ونقلت دعواهم الى محكمة الجزاء في بغداد، لإجراء محاكمتهم أمامها. كنت حين ذاك نقيبا للمحامين، وكان وكيل المتهمين المحامي حمزة سلمان. جاءني في النقابة وطلب مني ان اعطيه بعض المراجع حتى يكتب الدفاع او ان اساعده فيه بوجه من الوجوه. قلت له يا اخ حمزة توجد قضية نظرت امام القضاء الفرنسي في وقت ما، كأنها قضيتك بالذات، عمال اضربوا وقتل احدهم في الاضراب وزملاؤه جمعوا تبرعات لمساعدة عائلته والسلطة احالتهم على القضاء لجمعهم تبرعات بدون اجازة. أليست هذه هي قضيتك؟ قال بالضبط. قلت له لدي دفاع المحامي الفرنسي عن المتهمين بالنص، ترجمها الأستاذ حسن الجوادي ونشرها في كتاب له اسمه (مرافعات) وهي في الكتاب في اوله بعنوان (اكتتاب بودوان) اعطيك الكتاب، واقرأ الدفاع واكتب دفاعك على نهجه. رحب المحامي حمزة سلمان بالفكرة واعطيته الكتاب، وكتب دفاعا في الموضوع، تناول ايضا الجانب السياسي في القضية، وجرت المحاكمة أمام محكمة الجزاء في بغداد، وتمت المرافعات واجلت الدعوى الى يوم معين، ليلقي محامي الدفاع دفاعه. وفي اليوم المعين احتشد في المحكمة عدد كبير من العمال ومن المحامين. وانت تذكر أن محاكمات من هذا القبيل كانت أشبه بمظاهرة سياسية. والظاهر أن السلطة ادركت ما سوف يجري في المحاكمة من دفاع وربما هتاف، وصفيق والدفاع سوف ينشر، فاشتد موقف اخر، سأذكره الآن.

كان مركز النقابة في بناية المحاكم، ومقابل قاعة المرافعة لحاكم الجزاء الاول الذي كان ينظر في الدعوى ونودي على القضية، وذهب المحامي حمزة سلمان ليلقي دفاعه في هذا الجو الذي وصفته، واذا به يعود الي بعد حين، ويقول لي (استاذ لم يسمح لي حاكم الجزاء ان القي الدفاع! قلت له كيف لم يسمح لك؟) قال اول ما دخلت القاعة، وكان المتهمون في قفص المتهمين قال ان (المحكمة افرجت عن المتهمين حيث لا ادلة ضدهم) قلت - والكلام للمحامي حمزة سلمان - اخاطب حاكم الجزاء استاذ انا عندي دفاع. قال الحاكم (استاذ حمزة انا افرجت عن المتهمين ولماذا الدفاع؟ هل انا حكمت عليهم حتى تقول لي عن الدفاع)، قلت للمحامي حمزة سلمان: ليس امامك الا ان تطعن بالتمييز، ضد قرار الافراج!

صفاء الحافظ: شكرا استاذ حسين اننا اتعبناك.

حسين جميل: بالعكس انا الذي اشكركم حيث اتحتم لي هذه الفرصة، للحديث في هذه الذكريات.

*** (الثقافة الجديدة)، عدد مزدوج: العدد122 كانون الأول 1978، العدد 113 كانون الثاني 1979**

نصوص مترجمة

فهم الطبقة
نحو مقاربة تحليلية متكاملة *

اريك أولن رايت**
ترجمة: سوران قحطان

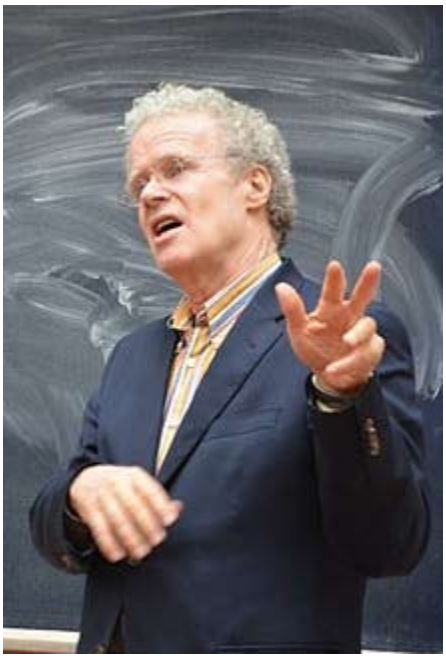

اريك أولن رايت

عندما بدأت الكتابة عن [مفهوم]*** الطبقة في اواسط سبعينات القرن العشرين، كنت اعتبر ان العلوم الاجتماعية الوضعية والماركسية نماذج متمايزة ومتصارعة بصورة غير متكافئة. وجادلت ان الماركسية تمتلك مرتكزات معرفية ومقاربات منهجية متميزة ومتضادة بصورة جوهرية، مع تلك التي للعلوم الاجتماعية السائدة. في الفترات اللاحقة، وفي العديد من المرات، عملت على اعادة التفكير بالمنطق الاساسي لمقاربتي بخصوص التحليل الطبقي[1]. فبينما أواصل العمل ضمن التقليد الماركسي، لكني لم اعد اتصور الماركسية كنموذج شامل، يتعارض بطبيعته مع علم الاجتماع "البرجوازي"[2].

واذا كنت قد جادلت سابقا بالتفوق العام للتحليل الطبقي الماركسي على منافسيه في العلوم الاجتماعية الرئيسية - وعلى وجه الخصوص المقاربات الفيبرية Web-rian approaches او تلك التي تم تبنيها ضمن بحوث التراتبية stratification r-search السائدة - فأنا اعتبر ان جميع هذه المناهج المختلفة في تحليل الطبقة، يمكنها ان تساهم في فهم أشمل، وذلك عن طريق تحديد العمليات السببية المختلفة المشتغلة في تشكيل المظاهر الجزئية – والكلية - للتفاوتات في المجتمعات الرأسمالية. ان التقليد الماركسي The Marxist tr-dition هو مجموعة من الافكار القيمة لأنه يحدد وبنجاح الآليات الحقيقية المهمة بالنسبة لمدى واسع من المسائل، ولكن هذا لا يعني انها تحتكر القدرة على تحديد هذه الآليات. واذن في الممارسة العملية، يجب على البحوث الاجتماعية التي يقوم بها الماركسيون ان تضم - بالإضافة الى الآليات المميزة المحددة ماركسيا - اي عمليات سببية اخرى قد تبدو ذات صلة بعملية التفسير[3]. ما يمكن تسميته بـ"الواقعية البراغماتية" قد حلت محل "عراك النماذج الكبرى".

وبقصد السهولة، سوف اركز فيما سيأتي على ثلاث مجاميع من العمليات السببية ذات الصلة بالتحليل الطبقي، كل منها يرتبط مع جانب مختلف من النظرية الاجتماعية. الاولى تحدد الطبقات بالسمات والظروف المادية الحياتية للأفراد. الثانية تركز على السُبل التي من خلالها تمنح المكانة الاجتماعية لبعض الناس، السيطرة على الموارد الاقتصادية، بينما تستبعد الآخرين، وبالتالي تعريف الطبقات نسبة الى عمليات "اقتناص الفرص". أما المقاربة الثالثة فتفهم الطبقات على انها تكونت بفعل آليات الهيمنة والاستغلال، والتي يمنح فيها الموقع الاقتصادي لبعض الناس سلطة على حياة ونشاط أناس آخرين. المجموعة الاولى هي المقاربة التي اتخذتها بحوث التراتبية، اما الثانية فهي تمثل المنظور الفيبري، والاخيرة ترتبط بالتقليد الماركسي.

السمات والشروط

تحدد الطبقة في المقام الاول، سواء عند علماء الاجتماع او بين عامة الناس، عن طريق السمات الفردية وشروط الحياة. سمات مثل الجنس، العمر، العرق، الدين، الذكاء، التعليم، والموقع الجغرافي وغيرها، ينشأ عنها عدد من المسائل التي قد نرغب في تفسيرها مثل الصحة، والسلوك التصويتي الى خبرات تربية الاطفال. بعض هذه السمات تُمتلك عند الولادة، بينما تكتسب الاخرى في وقت لاحق من الحياة؛ بعضها مستقر، بينما يعتمد بعضها الآخر الى حد كبير على الوضع الاجتماعي المحدد للشخص، وربما تتغير مع مرور الوقت. بالنسبة المقاربة التراتبية، يمكن للناس ايضا ان يصنفوا بحسب الظروف المادية التي يعيشون فيها: الشقق السكنية القذرة، منازل الضواحي الجذابة أو قصور المجتمعات المغلقة؛ او من جهة فقر مدقع، دخل مقبول،

أو ثروة باهظة وغيرها. "الطبقة"، اذن، تُحدد تلك السمات المهمة اقتصاديا التي تشكل فرص واختيارات الناس في اقتصاد السوق، وبالتالي ظروفهم المادية. ان الطبقة لا تُحدد بصورة بسيطة، لا بالسمات الفردية للناس، ولا بظروف حياتهم المادية؛ بالأحرى، هي اسلوب الحديث عن الترابط بين هذين.

في هذه المقاربة، يمثل التعليم السمة الفردية الاساسية في المجتمعات المتقدمة اقتصاديا، لكن بعض علماء الاجتماع، يدرجون بعض السمات التي لا يمكن ضبطها بدقة من قبيل الموارد الثقافية، والروابط الاجتماعية، وحتى الحوافز الفردية[4]. وعندما تتكتل هذه السمات المختلفة ومعها ظروف الحياة المتنوعة سويا على نطاق واسع، فإنه يطلق على هذه الكتل [مصطلح] "الطبقات". فـ[مصطلح] "الطبقة الوسطى" هنا يشير الى الاشخاص الذين لديهم ما يكفي من التعليم والمال للمساهمة بالكامل في أسلوب الحياة "السائد" والمحدد بعض الشيء بغموض (والذي قد يشتمل على انماط استهلاك معينة، مثلا). أما "الطبقة العليا" فهو يصنف الاشخاص الذين تمكنهم ثروتهم ودخلهم العالي وعلاقاتهم الاجتماعية من العيش بعيدا عن الناس "الاعتياديين"، بينما تشير "الطبقة الدنيا" لهؤلاء الذين يفتقرون للتعليم وللموارد الثقافية الضروريين للعيش بأمان فوق خط الفقر. واخيرا، تشير "الطبقة الدنيا" لأولئك الذين يعيشون في بؤس مدقع، مهمشين عن التيار العام للمجتمع، لكونهم يفتقدون التعليم الاساسي والمهارات اللازمين من اجل توظيف مستقر.

ان الشاغل الرئيسي لعلماء الاجتماع في مقاربة السمات الفردية، هو محاولة فهم كيف يكتسب الاشخاص الخصائص التي تضعهم في هذه الطبقة او تلك. وبالنظر إلى أن معظم الناس في البلدان التي يعيش فيها علماء الاجتماع، ينالون مكانتهم الاقتصادية ومكافآتهم بشكل رئيسي عن طريق العمل في وظائف مدفوعة الأجر، لذلك كان التركيز الأساسي للأبحاث ضمن هذا التقليد، هو العملية التي يحصل من خلالها الناس على الموارد الثقافية والتحفيزية والتعليمية التي تؤثر على وظائفهم في سوق العمل. ولأنه من الواضح ان يكون لظروف الحياة في مرحلة الطفولة أهمية كبيرة في هذه العمليات، فإن هذه المقاربة تكرس قدرا كبيرا من الاهتمام لما يسمى في بعض الاحيان "الخلفية الطبقية"، اي المحيط الاسري الذي تكتسب ضمنه هذه السمات الرئيسية. يمكن توضيح المنطق السببي لهذه الانواع من العمليات في الشكل رقم (1) التالي:

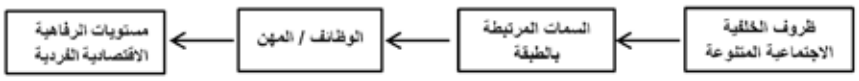

شكل رقم (١)

بالطبع، تعد المواهب والتعليم والدوافع محددات مهمة جدا لإمكانيات الفرد الاقتصادية. لكن مع ذلك، فما تفتقده هذه المقاربة تجاه [فهم] الطبقة، هو الدراسة الجادة للتفاوتات في المواقع التي يشغلها الناس أو للطبيعة الترابطية لتلك المواقع. يصوغ التعليم اصناف الوظائف التي يحصل عليها الناس، ولكن لماذا بعض الوظائف ''افضل'' من غيرها؟ لماذا تمنح بعض الوظائف قدرا كبيرا من السلطة، بينما لا تمنحها وظائف أخرى؟ وهل هناك علاقة بين القوة والثروة التي يتمتع بها البعض والعوز الذي يعاني منه الآخرون؟ بدلاً من التركيز حصريا على العملية التي يتم من خلالها تصنيف افراد الى مواقع، فإن المقاربتين القادمتين في التحليل الطبقي، تبدآن من خلال تفحص طبيعة المواقع ذاتها.

اقتناص الفرص
Opportunity hoarding

المقاربة الثانية، تركز على مفهوم ''اقتناص الفرص''- وهو يرتبط ارتباطا وثيقا بأعمال ماكس فيبر - حيث تُعرف الطبقات من خلال [عمليات] حرية الوصول والاقصاء عن فرص اقتصادية معينة[5]. فمن أجل أن تضمن وظائف معينة دخلاً عاليا ومزايا خاصة، من المهم أن يحصل شاغلوها على وسائل مختلفة لاستبعاد الآخرين من الوصول إليها. وقد يُشار إلى هذه العملية أحيانًا على أنها عملية إغلاق اجتماعي، حيث يصبح الوصول إلى منصب ما مقيدا. إحدى طرق القيام بذلك هي من خلال ابتداع متطلبات من المكلف، يكون صعب للغاية على عامة الناس استيفاؤها. غالبا ما يكون للمؤهلات التعليمية هذه الخاصية: المستويات العالية من التعليم تدر دخلا مرتفعا، جزئيا بسبب وجود قيود كبيرة على اعداد الأشخاص ذوي التعليم العالي. فإجراءات القبول، وتكاليف الدراسة، وتجنب ذوي الدخل المنخفض للمخاطر في القروض الكبيرة وغيرها، كلها تميل إلى منعهم من الوصول إلى تعليم عالي، وذلك لصالح أولئك الذين يعملون في وظائف تتطلب مثل هذه المؤهلات. واي جهود تبذل من اجل تحسين المستوى التعليمي لأولئك الذين لديهم تعليم أقل، ستؤدي ذلك في حد ذاته إلى خفض قيمة التعليم لأولئك الذين لديهم المزيد منه، لأن قيمته تعتمد إلى حد كبير على ندرته. آليات اقتناص الفرص موضحة في الشكل رقم (2):

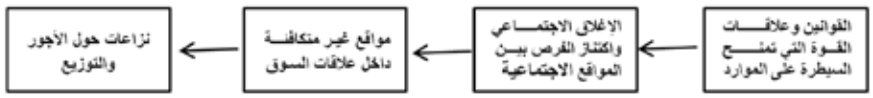

شكل رقم (٢)

قد يعترض البعض على هذا التوصيف للمؤهلات التعليمية. على سبيل المثال، يجادل الاقتصاديون بأن التعليم يخلق "رأس المال البشري" الذي يجعل الناس أكثر إنتاجية، وهذا هو السبب في أن أرباب العمل على استعداد لدفع أجور أعلى لهم. ولكن في حين أن بعض الأرباح العالية التي تصاحب التعليم العالي تعكس اختلافات الإنتاجية، فإن هذا ليس سوى جزء من القصة. فعلى نفس القدر من الاهمية هناك الآليات المختلفة التي يتم من خلالها اقصاء الأشخاص من الحصول على التعليم، وبالتالي تقييد المعروض البشري على هذه الوظائف. ستظهر تجربة فكرية بسيطة كيف يعمل هذا: تخيل أن الولايات المتحدة لديها حدود مفتوحة وتسمح لأي شخص يحمل درجة في الطب أو الهندسة أو علوم الكمبيوتر من أي مكان في العالم، أن يأتي إليها ويمارس مهنته. هذه الزيادة الهائلة في إمداد الأشخاص بهذه المؤهلات ستؤدي إلى تقويض القدرة لدى اصحاب المؤهلات هذه، والذين يعيشون بالفعل في البلاد، على الرغم من أن معارفهم ومهاراتهم الفعلية لن تتضاءل. إن حقوق المواطنة هي شكل خاص وفعال من "الترخيص" للعمل في سوق عمل معينة.

تعد الشهادة والترخيص آليات مهمة بشكل خاص لاكتناز الفرص، ولكن تم استخدام العديد من الأجهزة المؤسساتية الأخرى في أوقات وأماكن مختلفة لحماية امتيازات ومزايا مجموعات محددة: معيقات اللون اقصت الأقليات العرقية من العديد من الوظائف في الولايات المتحدة، خصوصا، ولكن ليس حصريا في الجنوب حتى الستينيات؛ حواجز الزواج ومصدات الجندر قيدت النساء من الوصول إلى وظائف لفترة طويلة في القرن العشرين، في معظم البلدان الرأسمالية؛ الدين، المعايير الثقافية، العادات، اللهجة - كل هذا يشكل آليات للإقصاء. ولعل أهم آلية إقصاء هي حقوق الملكية الخاصة على وسائل الإنتاج. ان حقوق الملكية الخاصة هي الشكل الاساسي للإغلاق الذي يحدد الوصول إلى "وظيفة" صاحب العمل. إذا حاول العمال الاستيلاء على مصنع وتشغيله بأنفسهم، فإنهم بذلك يتحدون اقصاءهم من السيطرة على وسائل الإنتاج؛ بينما يعتمد المالكون في جنيهم للأرباح على قدرتهم في الدفاع عن هذا الاقصاء. وبالتالي يمكن فهم جوهر الانقسام الطبقي بين الرأسماليين والعمال من وجهة نظر فيبرية - وهو موضوع مشترك بين التقاليد الفيبرية والماركسية لعلم الاجتماع - على أنه يعكس شكلاً محدداً من أشكال اقتناص الفرص التي تفرضها القواعد القانونية لحقوق الملكية.

آليات الاقصاء التي تشكل البنى الطبقية في مقاربة اقتناص الفرص لا تشتغل فقط في الطبقات الاكثر امتيازاً. فالنقابات العمالية يمكن أن تعمل أيضا كآلية اقصاء، وذلك من خلال حماية اصحاب الوظائف من منافسة الغرباء. هذا لا يعني مجملا أن النقابات تساهم في زيادة عدم المساواة، لأنها قد تعمل أيضا سياسيا على تقليص التفاوتات، وقد تقلل بشكل فعال من تلك التفاوتات الناتجة عن آليات الاقصاء الأخرى - خاصة تلك المرتبطة بالملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. ومع ذلك، بمقدار ما تخلق النقابات حواجز أمام الدخول

إلى وظائف معينة، فهي تخلق شكلاً من الإغلاق الاجتماعي الذي يحسن الظروف المادية للحياة، لمن هم فيه.

الاختلاف الحاسم بين آليات اقتناص الفرصة وآليات السمات الفردية والفردية هو التالي: في مقاربة اقتناص الفرص، المزايا الاقتصادية المكتسبة من كون البعض هم في موقع طبقي متميز، ترتبط بشكل سببي بمعيقات أولئك المستبعدين من هذه المواقع. بينما في مقاربة السمات الفردية، هذه المزايا والمعيقات هي ببساطة نتاج للظروف الفردية: الاغنياء اغنياء لأن لديهم خصائص ملائمة، بينما الفقراء فقراء لأنهم يفتقدون هذه الخصائص، ولا وجود لأي علاقة سببية نسقية بين هذه الحقائق. فمحاولة القضاء على الفقر من خلال تحسين سمات الفقراء المرتبطة به - تعليمهم، المستوى الثقافي، ورأس المال البشري- لن يضر بأي حال من الأحوال الاثرياء. بينما في مقاربة تكديس الفرص، فإن الأغنياء هم أغنياء جزئياً لأن الفقراء فقراء، والأمور التي يفعلها الأغنياء للحفاظ على ثروتهم تساهم في تكوين الظروف السيئة التي يواجهها الفقراء. وبالتالي، فإن التحركات للقضاء على الفقر عن طريق إزالة آليات الاقصاء من المحتمل أن تقوض مزايا الأثرياء.

الاستغلال والهيمنة

ترتبط مقاربة التحليل الطبقي التي تركز على آليات الاستغلال والهيمنة ارتباطا وثيقا بالتقليد الماركسي، كما ان بعض علماء الاجتماع والمتأثرين كثيرا بفيبر Weber يضمنون هذه الآليات ايضا في تصوراتهم للطبقة[6]. مع ذلك، فإن معظم علماء الاجتماع يتجاهلونهما، بل ان البعض ينكر صراحة صلتهما بعملية التحليل. فـ"الهيمنة"، وبشكل خاص "الاستغلال" هما مصطلحان مثيران للجدل، لأنهما يميلان إلى الإشارة لحكم أخلاقي، وليسا وصفا محايدا. لهذا يحاول العديد من علماء الاجتماع، تجنب مثل هذه الكلمات بسبب هذا المحتوى المعياري. بينما، أشعر أنا أنهما مهمان ويحددان بدقة بعض القضايا الرئيسية في فهم الطبقة. فمصطلح "الهيمنة" يشير إلى القدرة على التحكم في أنشطة الآخرين؛ بينما يشير مصطلح "الاستغلال" إلى الاستحواذ على المنافع الاقتصادية من عمل أولئك المُهيمن عليهم. ان كل استغلال ينطوي بالتالي على نوع من الهيمنة، ولكن ليس كل هيمنة تنطوي على الاستغلال.

في علاقات الاستغلال والسيطرة، لا تكمن القضية ببساطة في ان مجموعة تستحوذ على المنافع من خلال تقييد الوصول إلى أنواع معينة من الموارد أو المناصب؛ فبالإضافة إلى ذلك، فإن المجموعة المستغِلة والمهيمنة قادرة على التحكم في عمل مجموعة أخرى لصالحها. لننظر في الحالات الكلاسيكية المتناقضة التالية: في الاولى، يستولي كبار ملاك الأراضي ويسيطرون على أراضي الرعي الشائعة، ويُمنع الفلاحون من الوصول إليها، ويجنون فوائد اقتصادية من التحكم الحصري في تلك الأرض لاستخدامهم الخاص. في الحالة الثانية، استولى وسيطر نفس ملاك الأراضي على المراعي وأقصوا

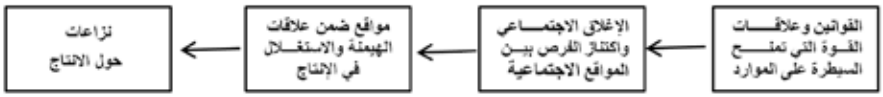

شكل رقم (٣)

الفلاحين، ثم قاموا بإعادة بعض هؤلاء الفلاحين إلى الأرض كعمال زراعيين. في هذه الحالة الثانية، لا يكسب ملاك الأراضي فقط من التحكم في الوصول إلى الأرض (اقتناص الفرص)، ولكن ايضا من الهيمنة على عمال المزارع واستغلال عملهم. وهذا الشكل من الترابط العلاقاتي المتبادل هو أقوى مما هو في حالة الاقصاء البسيط، لأن هناك علاقة مستمرة ليس فقط بالظروف، ولكن أيضا بين أنشطة المستفيدين والمحرومين. ان الاستغلال والهيمنة هي أشكال من عدم المساواة البنيوية التي تتطلب التعامل النشط المستمر بين المستغَلين والمستغِلين، المهيمنون والمهيمن عليهم. آليات الاستغلال والهيمنة موضحة في الشكل رقم (3):

يمكننا الآن تلخيص التباين في دور العلاقات الاجتماعية بين كل من المقاربات الثلاث للتحليل الطبقي على النحو التالي.

في المقاربة التراتبية، لا الظروف الاقتصادية التي يعيش فيها الناس ولا أنشطتهم تفهم على أنها تعكس العلاقات الاجتماعية بشكل مباشر؛ هذه المقاربة هي الأقل علائقية بين الثلاثة. اما المقاربة الفيبرية فترى أن الظروف الاقتصادية للناس يتم تشكيلها من خلال علاقات الاقصاء، لكنها لا تحدد الطبقة على أنها التجسيد العلاقاتي بين الأنشطة. بينما التقليد الماركسي ذو علاقة بكلا المعنيين، فهو يلفت الانتباه إلى التأثير البنيوي للاستغلال والهيمنة، على كل من الظروف والأنشطة الاقتصادية.

فكما في التقليد الفيبري، السلطة والقواعد القانونية التي تفرض الإغلاق الاجتماعي، مهمة في تحديد البنية الأساسية للمواقف الاجتماعية، وعلى وجه الخصوص الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. ولكن التأثير الحاسم لاكتناز الفرص هنا، هو الهيمنة والاستغلال، وليس مجرد ميزة السوق. لاحظ الشكل رقم (3).

في المقاربة الماركسية، يكون الانقسام الطبقي المركزي في المجتمع الرأسمالي بين أولئك الذين يمتلكون ويسيطرون على وسائل الإنتاج اي الرأسماليين، وأولئك الذين تم توظيفهم لاستخدام وسائل الإنتاج هذه، اي العمال. ضمن هذا الإطار، الرأسماليون يستغلون ويهيمنون على العمال. بينما تستمد المواقع الأخرى داخل البنية الطبقية شخصيتها المحددة من علاقتها بهذا التقسيم الأساسي. فالمدراء، على سبيل المثال، يمارسون العديد من سلطات الهيمنة، ولكنهم يخضعون أيضا للرأسماليين. وغالبا ما يطور الرؤساء التنفيذيون (CEOs) وكبار المدراء حصصا ملكية كبيرة في شركاتهم، وبالتالي يصبحون رأسماليين. أما المهنيون من ذوي التعليم العالي وبعض فئات العاملين التقنيين ممن لديهم سيطرة كافية على المهارات والمعرفة - وهما مصدران حاسمان في الاقتصاد المعاصر - فهم قادرون على الحفاظ على قدر كبير

من الاستقلالية عن الهيمنة، داخل العمل، وعلى ان يقللوا إلى حد كبير، أو حتى يحيدوا، من حجم استغلالهم.

في المقاربتين الفيبرية والماركسية على حد سواء تلعب السلطة دورا مهما. ففي كليهما تستدام التفاوتات اللامساواة في الدخل والثروة والمرتبطان بالبنية الطبقية بالسلطة، وليس عن طريق تصرفات للأفراد. فالتفاوتات التي تتولد عن طريق اكتناز الفرص تتطلب استخدام السلطة من اجل فرض الاقصاء؛ بينما تلك التي ترتبط بالاستغلال تتطلب الاشراف، ومراقبة العمل والعقوبات لفرض الانضباط. وفي كليهما، من المحتمل ان تهدد الصراعات الاجتماعية الساعية الى تحدي اشكال السلطة هذه، امتيازات اولئك المستفيدين من مواقعهم الطبقية.

دمج ثلاث آليات

بشكل عام يميل علماء الاجتماع إلى اسناد دراساتهم عن الطبقة الى واحدة من هذه المقاربات الثلاث فقط، لكن في حقيقة الامر لا يوجد سبب واحد للاعتقاد ان احداها تستبعد الاخريات بصورة متبادلة. احدى طرق دمج هذه المقاربات معا، هي عن طريق رؤية كل واحدة منها كمُحدد لعملية رئيسية، وهذه العملية تشكل جانبا مختلفا من بنية الطبقة:

• يحدد التقليد الماركسي الاستغلال والهيمنة داخل الانقسام الطبقي الأساسي في المجتمع الرأسمالي: أي بين الرأسماليين والعمال.

• تحدد المقاربة الفيبرية اقتناص الفرص باعتباره الآلية المركزية التي تميز وظائف "الطبقة الوسطى" عن الطبقة العاملة الأوسع، وذلك من خلال إنشاء حواجز تقيد المعروض البشري للوظيفة المطلوبة. القضية الرئيسية ها هي ليست من يقصى، ولكن ببساطة هي حقيقة ان هناك آليات اقصاء تحافظ على امتيازات من هم في مواقع الطبقة الوسطى.

• تركز المقاربة التراتبية على العملية التي يتم من خلالها اما فرز الأفراد إلى مواقع مختلفة في البنية الطبقية أو يتم تهميشهم تماما. وبينما تجذب تحليلات اقتناص الفرص الانتباه إلى آليات الاقصاء المرتبطة بوظائف الطبقة الوسطى، فإن مقاربة التراصف التراتبي تساعد في تحديد السمات الفردية التي تفسر الأشخاص الذين يمكنهم الوصول إلى هذه الوظائف، والذين يتم استبعادهم من وظائف الطبقة العاملة المستقرة.

هذه العمليات الثلاثة تعمل في كل المجتمعات الرأسمالية. والاختلافات في البنى الطبقية بين البلدان هي نتاج للتفاعلات المتنوعة بين هذه الآليات. وبالتالي ستكون المهمة النظرية هي التفكير من خلال مختلف هذه الآليات، على انها ترتبط وتندمج؛ بينما المهمة التجريبية هي تطوير طرائق لدراسة كل آلية [على حدة] وكذلك الترابطات في ما بينها.

والشكل رقم (4) يوضح احد النماذج الجزئية - الكلية المتداخلة بشكل تخطيطي. في هذا النموذج، نجد ان علاقات القوة والقواعد القانونية التي تمنح الناس سيطرة فعالة على الموارد الاقتصادية - وسائل الإنتاج المال، ورأس المال البشري - تُولد اسس الإغلاق الاجتماعي وفرص اكتناز

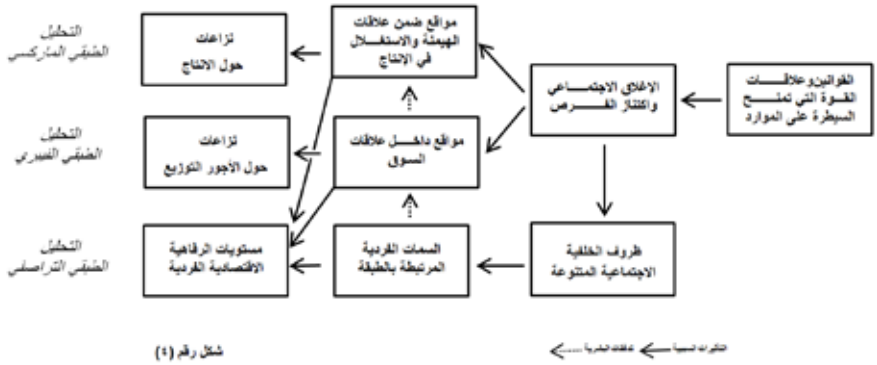

شكل رقم (٤)

مرتبطة بالمواقف الاجتماعية. ثم ينتج عن آلية اقتناص الفرص ثلاثة تيارات من التأثيرات السببية :الاول، تشكيل العمليات على المستوى الجزئي التي يكتسب الأفراد من خلالها السمات ذات الصلة بالطبقة؛ ثانيا، تشكيل بنية المواقع داخل علاقات السوق - المهن والوظائف - والصراعات التوزيعية المرتبطة بها؛ ثالثا، تشكيل بنية العلاقات داخل [عملية] الإنتاج، وخاصة علاقات الهيمنة والاستغلال، والصراعات المرتبطة بها في هذا المجال. ان أول هذه التيارات السببية يوجه بدوره تدفق الناس إلى المواقع الطبقية داخل السوق والإنتاج. بينما تؤثر السمات الطبقية للأفراد ومواقعهم الطبقية سويا على مستويات رفاههم الاقتصادي.

هناك حاجة إلى عنصر واحد نهائي في النموذج الاصطناعي الواسع. ان الشكل (4) يعامل علاقات القوة والقواعد المؤسساتية على أنها بنى خارجية، في حين أنها في الواقع تتشكل من خلال العمليات والصراعات الطبقية. وهذا مهم لأن بنى التفاوتات وانعدام المساواة هي انساق ديناميكية dynamic systems، ومصير الأفراد لا يعتمد فقط على العمليات في المستوى الجزئي، التي يواجهونها في حياتهم، أو على البنى الاجتماعية التي تحدث فيها تلك الحياة، ولكن على مسار النسق ككل. إن معالجة علاقات السلطة الكامنة التي تدعم بنية معينة من المواقع الطبقية بصفتها عوامل (parameters) ثابتة هي مسالة مضللة للغاية، تساهم في وجهة النظر الخاطئة بأن مصير الأفراد هو ببساطة وظيفة من سماتهم وظروفهم الفردية. وبالتالي، فإن ما نحتاج إليه هو نموذج كلي متكرر وديناميكي، تساهم فيه الصراعات الاجتماعية في إحداث تغييرات في مسار العلاقات نفسها، كما هو موضح بصورة مبسطة للغاية في الشكل رقم (5). وبالتالي، يجمع التحليل الطبقي المفصل بالكامل بين هذا النوع من النموذج الكلي للصراع والتحول مع النموذج الكلي والجزئي والمتعدد المستويات للعمليات الطبقية والحياة الفردية. في مثل هذا النموذج، يمكن الجمع بين المقاربات الرئيسية (التراصف الطبقي، الفيبرية، والماركسية).

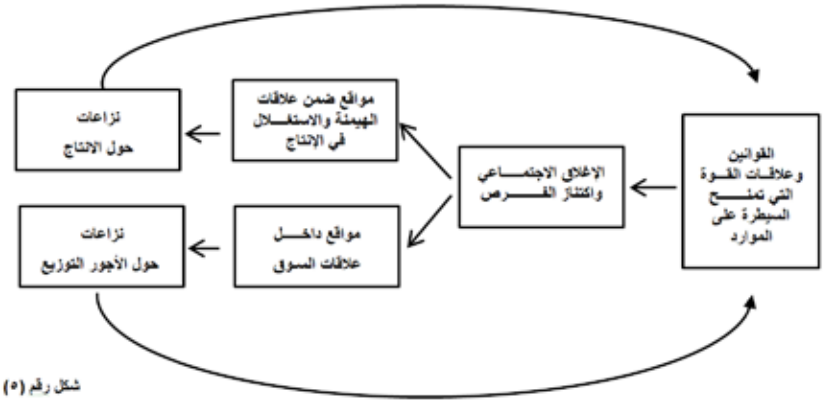

شكل رقم (٥)

الطبقة في امريكا

تختلف النظم الاجتماعية الاقتصادية في الدرجة التي تقييد الحقوق والسلطات المصاحبة للملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، وبالتالي في طبيعة الانقسام الطبقي بين الرأسماليين والعمال. وبالنسبة للولايات المتحدة الامريكية فإنها تمتلك ومنذ فترة طويلة واحدا من بين أضعف الضوابط واللوائح العامة للملكية الرأسمالية. وهذا ينعكس في عدد من الخصائص الحاسمة: الحد الادنى للأجور منخفض للغاية، ما سمح بمعدلات استغلال عالية؛ معدلات ضرائب منخفضة على الدخول العالية، ما يُمكّن أغنى شرائح segments الطبقة الرأسمالية من العيش بطرق باهظة للغاية؛ ضعف الاتحادات والنقابات واشكال التنظيم العمالي الاخرى، وهي التي يمكن ان تكون بمثابة ثقل موازٍ للهيمنة [الرأسمالية]. ونتيجة لذلك ومنظورا لها على طول محور الاستغلال والهيمنة، ربما تكون الولايات المتحدة من بين الدول الرأسمالية المتقدمة، ذات التقسيم الطبقي الأكثر استقطابا.

بالعودة إلى الطبقة الوسطى وتشكيلها من خلال آليات اقتناص الفرص - خاصة تلك المرتبطة بالتعليم - كان للولايات المتحدة تاريخياً، واحدة من أكبر الطبقات المتوسطة بين الدول الرأسمالية المتقدمة. لأنها كانت أول دولة توسع التعليم العالي بشكل كبير، وكان الوصول إلى هذه المؤهلات لفترة طويلة، مفتوحا وغير مكلف نسبيا، ما سمح للأشخاص ذوي الموارد القليلة بدخول الجامعات. تمتلك الولايات المتحدة أيضا نظاما للتعليم العالي، متعدد المستويات - كليات المجتمع، وكليات المبتدئين، وكليات الفنون الليبرالية، والجامعات والمؤسسات العامة والخاصة - ما أتاح للأشخاص الالتحاق بالتعليم العالي في وقت لاحق من الحياة، والحصول على الشهادة وعلى وظيفة في الطبقة الوسطى. وقد ساعد هذا النظام الكبير والمتنوع في خلق عدد كبير من وظائف الطبقة الوسطى. في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، استكملت [العملية] بحركة عمالة قوية نسبياً، كانت قادرة على

تخفيف المنافسة على تلك الوظائف في لب الاقتصاد الأمريكي والتي لا تتطلب تعليما عاليا. وقد مكّن ذلك العمال النقابيين في مثل هذه المواقع من الحصول على دخل وضمان مشابه للطبقة الوسطى المتعلمة.

ومع ذلك، وخلافا للخطاب الشعبي، لم تكن الولايات المتحدة ابدا بأغلبية ساحقة "مجتمع الطبقة الوسطى". ومعظم الوظائف في هيكلية التوظيف الأمريكية لم تمنح مزايا على أساس الشهادات فحسب، كما ان حركة العمالة لم تنظم اكثر من 35% من القوى العاملة غير الادارية. من ناحية اخرى، حدث في العقود الأخيرة تآكل في عمليات استثناء الطبقة الوسطى، او بعضها على الأقل: تراجعت حركة العمالة بشدة منذ السبعينات، أصبحت أنواع عديدة من وظائف الطبقة الوسطى أقل ضمانا وأقل حماية بالشهادات التي ترتبط بها عادة، وقد فاقمت الأزمة الاقتصادية الحالية من الشعور بعدم الاستقرار لدى العديد ممن ما زالوا يعتقدون أنهم يعملون في وظائف الطبقة الوسطى. في حين انه من المؤكد أن التعليم العالي وبشكل متزايد الدرجات الأكاديمية المتقدمة، ما زالا يلعبان دورا محوريا في توفير امكانية الوصول إلى العديد من أفضل الوظائف في الاقتصاد الأمريكي، إلا أنه من غير الواضح إلى حد كبير ما هي التوقعات المستقبلية لطبقة وسطى كبيرة ومستقرة[7].

وأخيرا، عُلمت البنية الطبقية الأمريكية بالعملية الوحشية البارزة والتي يتم من خلالها تكوين الخصائص المتعلقة بمصير الأفراد. حيث ان النظام التعليمي الامريكي، مؤسس بطريقة تجعل نوعية التعليم المتاحة لأطفال العوائل الفقيرة، أدنى الى حد كبير من تلك المتوفرة لأطفال عوائل الطبقة الوسطى او الغنية. وهذا النقص العلني في التعليم المقدم للفقراء، تتم مفاقمته بالحرمان الناجم عن عدم وجود شبكة أمان كافية وخدمات الدعم للأسر الفقيرة. إن تراجع التصنيع السريع في الاقتصاد الأمريكي، وغياب برامج تدريب شاملة للوظائف، لمن تم طردهم من العمل بسبب إغلاق المصانع، يعني أن عددا كبيرا من الناس يجدون أنفسهم بدون أنواع المهارات اللازمة لسوق العمل الحالية. والنتيجة هي أن البنية الطبقية الأمريكية تتميز بأعلى معدلات الفقر والتهميش الاقتصادي من اي دولة مشابهة.

ان هذه العمليات، مجتمعة، تعطي معا الصورة العامة التالية للبنية الطبقية الأمريكية في بداية القرن الحادي والعشرين:

- في القمة، طبقة من الرأسماليين ومديرو الشركات غنية للغاية، تعيش بمعايير استهلاك عالية بشكل غير عادي، مع قيود ضعيفة نسبيا على ممارستها للقوة الاقتصادية.
- طبقة وسطى كبيرة تاريخيا ومستقرة نسبيا، ترتكز على نظام واسع ومرن من التعليم العالي والتدريب التقني، المرتبطين بالوظائف التي تتطلب شهادات من مختلف الأنواع، ولكن أمنها وازدهارها المستقبلي، أصبح الآن غير مؤكد.
- طبقة عاملة اتسمت ـ ذات يوم ـ بقطاع نقابي كبير نسبيا، وبمستوى معيشي وأمن مشابه لما للطبقة الوسطى، لكنها تفتقر الآن إلى حد كبير إلى هذه الحماية.
- فئة فقيرة وغير مستقرة من الطبقة العاملة، تتميز بانخفاض الأجور وبعمالة غير آمنة نسبياً، تتعرض لمنافسة غير مقيدة في سوق العمل، مع الحد الأدنى من الحماية من الدولة.

• جزء مهمش وفقير من السكان، يفتقد المهارات والتعليم اللازمين للوظائف، التي تمكنهم من العيش فوق خط الفقر، وهم يعيشون في ظروف تجعل من الصعب عليهم للغاية الحصول على تلك المهارات.

• نمط من التفاعل بين العرق والطبقة، يكون فيه وبشكل غير متناسب، العاملون الفقراء والمهمشون من السكان، من الأقليات العرقية.

من اجل التركيب

إن تبني الاطار المتكامل من التحليل الطبقي المقترح هنا، يطرح أنواعا مختلفة من التحديات سواء للباحثين العاملين ضمن التقاليد الماركسية، او اولئك الذين يتبنون المقاربة التراتبية الطبقية أو المقاربة الفيبرية. بالنسبة للعديد من الماركسيين، يتمثل التحدي الرئيسي في إدراك أن أقوى ما في العلوم الاجتماعية الماركسية هو نظريتها عن مصفوفة محددة من الآليات السببية، وليس طموحها في أن تكون نموذجا شاملاً. في الماضي، كان خطاب الماركسيين يشدد على عدم وجود اي معايير مشتركة بين الماركسية والمقاربات الاخرى، محاججا ان المعرفة والمنهجية الماركسية، تتميز بشكل حاد عن منافسيها. هذه الحجج غير مقنعة؛ فالماركسية تعتبر تقليدا قويا في العلوم الاجتماعية، لأنها تقدم تفسيرات بعيدة المدى لمجموعة من الظواهر المهمة، وليس لأنها تحتوي على طريقة خاصة تميزها عن جميع التيارات النظرية الأخرى. بالطبع، من الممكن دائما أن تنجح الجهود المستقبلية لصياغة الماركسية كـ برادايم - paradigm مميز وشامل. ولكن في الوقت الحاضر، يبدو انه من المفيد أكثر أن ننظر إلى الماركسية كبرنامج دراسة يتحدد بالاهتمام بمجموعة معينة من المشاكل، والآليات، والنظريات التفسيرية المؤقتة.

قد يكون تحدي التحليل الطبقي المتكامل أكبر بالنسبة لعلماء الاجتماع العاملين ضمن تقاليد المقاربة التراتبية. ففي النهاية، كان المحللون الماركسيون للطبقة يضمنون دائما في الممارسة مناقشات حول السمات الفردية وظروف الحياة المادية للأشخاص الموجودين داخل بنية اقتصادية، كما أن اكتناز الفرص هو جزء لا يتجزأ من مفهوم العلاقات الاجتماعية للإنتاج. بينما تجاهل منظري التراتبية تماما مشكلة الاستغلال، وهم على الأكثر يتحدثون عن "مساوئ" [النظام]، وحتى الهيمنة غائبة عن نهجهم. إن إدراك الاستغلال والهيمنة كمحاور مركزية للتحليل الطبقي، هو إدراك أهمية كون بنية المواقع الاجتماعية متميزة عن الأشخاص الذين يشغلون تلك المناصب، وهذا أيضا أمر غريب إلى حد كبير على الدراسة التراتبية.

إلى حد ما، قد تكون المهمة اسهل مع الفيبرية؛ فمن ناحية، لم يطمح معظم علماء الاجتماع الفيبريين إلى إنشاء نموذج شامل، وكانوا راضين عن تقليد نظري قدم قائمة غنية من المفاهيم المترابطة بشكل فضفاض، متناولة مشاكل تجريبية وتاريخية محددة. لقد كان هذا أحد عوامل الجذب الرئيسية لعلم الاجتماع الفيبري: فهو متساهل بالأساس مع دمج أي مفهوم تقريبا من النظرية الاجتماعية الأخرى. ومن ناحية أخرى، أكد الفيبريون دائما على أهمية السلطة داخل البنى

الاجتماعية، وليس لديهم صعوبة في التمييز بين الأشخاص والمواقع [الاجتماعية] البنيوية. وبينما لم يظهر الاستغلال بشكل مركزي في التحليل الطبقي الفيبري، فإن منطق الفئات الفيبري لا يمثل أي عائق جوهري لإدراجه.

قد يبدو من هذا التقييم أنه يجب علينا جميعا، في النهاية، ان أن نعلن أنفسنا ببساطة كفيبريين. وكان هذا أحد الاتهامات التي وجهت إلى عملي وأعمال الماركسيين الآخرين قبل ثلاثين عاما من قبل عالم الاجتماع البريطاني فرانك باركين عندما كتب: "داخل كل ماركسي جديد neoMarxist يبدو أن هناك فيبري يكافح من أجل الخروج"[8]. لا أعتقد أن هذا ينبع من نوع الواقعية البراغماتية التي أدافع عنها هنا. فالماركسية تبقى تقليدا متميزا في العلوم الاجتماعية وذلك بسبب: مجموعة المشاكل المحددة التي تعالجها، وأسسها المعيارية، والمخزون المميز للمفاهيم والآليات التي طورتها.

---

* نشر المقال في مجلة (New Left Review 60 Nov-Dec 2009 , p:101-116). ويمكن قراءة النص الاصلي على الرابط التالي:

https://newleftreview.org/issues/II60/articles/erik-olin-wright-understanding-class

** اريك اولن رايت (Erik Olin Wright): عالم اجتماع ماركسي تحليلي امريكي (1947 - 2019). متخصص بدراسة الطبقات الاجتماعية والتراصف التراتبي الاجتماعي. عمل على تحديث المفهوم الماركسي للطبقة، وعمل على تطويره. من جهة اخرى بحث في البدائل المساواتية للرأسمالية.

موقعه على شبكة الانترنت: https://www.ssc.wisc.edu/~wright/

*** كل ما سيرد بين قوسين [ ] في المتن هو من المترجم.

الهوامش:

1 - وجهة نظري المبكرة حول العلاقة بين الماركسية والعلوم الاجتماعية السائدة يمكن متابعتها في مقدمة كتابي: الطبقة، الازمة، والدولة، لندن، 1978. اما الاعمال اللاحقة الرئيسية والتي ناقشت فيها هذه المسائل فهي: الطبقات، لندن ونيويورك 1985، والجدال حول الطبقات، لندن ونيويورك 1989، حسابات الطبقة: دراسات مقارنة في التحليل الطبقي، كامبردج 1997، ومقاربات للتحليل الطبقي كامبردج 2005. بينما قدمت نسخة مبكرة من هذه المقالة في مؤتمر عن 'فهم الطبقة'، جامعة جوهانسبرغ، حزيران، 2009.

2 - انا افضل استخدام تعبير 'التقليد الماركسي' بدلا من 'الماركسية' لأن الاخيرة تلمح بالضبط الى شيء اشبه بالنموذج الشامل.

3 - هذا الموقف نحو التقليد الماركسي، لا يتضمن ببساطة تذويب الماركسية الى "علم اجتماع" عادي وعديم الشكل. فالماركسية تبقى متميزة في تنظيم اجنداتها حول مجموعة من الاسئلة او المشاكل الاساسية، والتي اما تتجاهلها او تهمشها التقاليد النظرية الاخرى. وهي [الماركسية] تحدد مجموعة مميزة من العمليات السببية المترابطة والوثيقة الصلة مع تلك الاسئلة.

4 - يمثل بيير بورديو، عالم الاجتماع الرائد منهجيا، في ادراج نطاق من العناصر الثقافية في قائمة موسعة من السمات الفردية، وثيقة الصلة بالطبقة.

5- من بين علماء الاجتماع الامريكان، فان مصطلح "اقتناص الفرص" استخدم بشكل صريح من قبل شالرس تيلي، خصوصا في كتابه: اللامساواة الدائمة، بيركلي، 1999. عمل بورديو في مجالات واشكال رأس المال يدور ايضا حول عمليات اقتناص الفرص.

6- لقد طور فيبر بالطبع، مناقشة عامة متقنة للهيمنة والسلطة والحكم، ولكن ذلك في سياق تحليلاته للدولة وللتنظيمات، وليس لتوصيفاته لمفهوم الطبقة.

7- لمناقشة أنماط استقطاب الوظائف في العقود الأخيرة، انظر:

Wright and Rachel Dwyer;The pattern of job expansion in the usa: a comparison of the 1960s and 1990s; Socio-economic Review, vol. 1, no. 3, 2003, pp. 289–325.

8- انظر:

Frank Parkin, Marxism and Class Theory: A Bourgeois Critique, New York 1979,

أدب
و
فن

ما بعد كورونا

حسب الله يحيى

لن ينتهي مفعول فايروس كورونا بانتهاء انتشاره في العراق والعالم.

الانتهاء من شيء، يعني خاتمته، وزواله نهائياً، بحيث يصبح حالة ماضية.

كورونا ليس حالة عادية، ولا أزمة عالمية، مرّت كسحابة ولا مصاب أليم مرّ على البشرية، وعلينا نسيان أقداره ومصائبه وكوارثه.

لا.. كورونا، حرب الكترونية، لا يمكن لنا النظر إليها، كما لو انها حالة قدرية، ولا مصاباً جلالاً مرّ على غنيهم وفقيرهم.

انه فايروس غير مرئي، يعيش على التخفي وعلى ملاحقة المرضى من كبار السن على وجه الخصوص..

وهذا يعني ان الانظمة التي تتعامل مع الانسان بوصفه سلعة، وان الحياة عبارة عن انتاج دائم واستهلاك دائم كذلك؛ لم تعد بها حاجة الى العجزة من المتقاعدين الذين يتقاضون رواتب من دون أداء عمل منتج، وإنما هم.. مستهلكون للمال والطعام، وليست هناك ضرورة موجبة لبقائهم على قيد الحياة، لذلك يحسن الخلاص منهم عن طريق فايروس كورونا!!

ان هذا لا يعني ان هذا الفايروس لا يصيب الاطفال والشبيبة او الرجال دون النساء، أو الرجل الابيض دون الاسمر..

كورونا.. مرض العصر.. الجامع والشامل، الذي يتخطى الزمان والمكان والذي يبسط سلطته على كل السلطات.. إلا ان الشيخوخة موطن جذاب لوجوده أكثر من الاعمار الاخرى.

وما حصل من ماسٍ، لا يمكن ان يمر على الفكر والثقافة والابداع من دون النظر إليه ملياً..

وسواء كانت الحروب وغزو الفضاء، والصراع الطبقي، وثقل الدكتاتوريات والانظمة الرأسمالية والمتطرفة.. كلها قد شغلت الذاكرة البشرية؛ فان فايروس كورونا، سيظل محور الثقافات العالمية لأمد ليس بالقليل، ذلك انه يكشف عن حجم الدوافع العدوانية والاجرامية التي دفعت بانتاج هذه (الصناعة) المرضية، لا يمكن ان ينتهي سريعاً، وإنما سيكون الحاضر المقبل من الازمنة كاشفاً عن أسرار كثيرة تتعلق باسباب نشوء هذا الفيروس، وسر صناعته وانتشاره والسبل التي تتعثر في معالجته، وقبل ذلك الوقاية منه.

صحيح، ان كورونا قد أخذ اهتماماً واسعاً في جميع الاوساط الطبية والعلمية، إلا انه في الوقت نفسه، بات الحديث الاهم والشاغل الاوسع على الصعيدين: الشعبي والنخبوي، بوصفه يتعلق بالمصير البشري، وحاجة هذه البشرية التي باتت تغذي نفسها بالصناعة الالكترونية والذكاء الاصطناعي..

وأصبح من المهم ان تولي اهتمامها الكلي بالعمل على ايقاف امتداد الموت، بحثاً عن آفاق جديدة تتعلق بالحياة ورفاهية وأمن وسلام الناس.. وانعكاسات كل صفحات هذا الفايروس على العقل والابداع في المقبل من الزمن الجديد، الذي سيعرف بما قبل وما بعد كورونا.. وهو في جميع الوجوه يختلف عن الزمن الذي كناه، الى زمن جديد سنكون فيه.

الجادرجي وصلاح جياد
صورتان للحلم المؤجل

د. جواد الزيدي

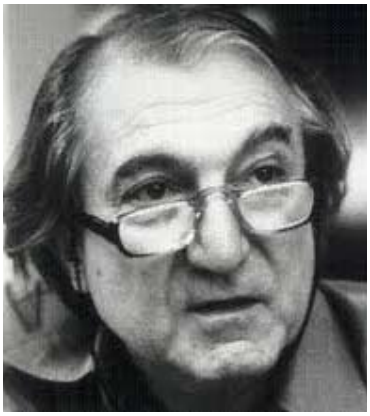

للموت صوت ينبهنا دائما لصدمة التلقي المستفز وان كانت الذكرى والاسم حاضرين في الضمير، لكن الرحيل يؤسس لنمط آخر ويسرع من فاعلية الذاكرة بصورتها الحسية ويقوض رحلة الاطمئنان القابع خلف المحبة التي تنتظر المناسبة لكي تسكب ضوءها على وجوه المبدعين، فنصحو ذات صباح على نعي أو رحيل كارثي بحجم الوطن أحيانا، حين يخطف أحلام المنام الهانئة، فنكتب خطابا آخر للون جديد، تنزع فيه السعادات أردية الفرح، ونرسم بألوان معتمة وجه الصباحات الموحشة التي تحمل الأنباء الحزينة. فقد غادرتنا صباحات وحلت أخرى تحمل صورتها القدرية، الصباح الذي حمل رحيل مارد المحبة (صلاح جياد) الطائر الملون والمعمد بتراب الوطن البعيد والمنتمي له في السر والعلانية، غادر فضاء الأحلام الجميلة، التي كان يسكبها يوميا في وجوه المارة الذين يرسمهم في شارع المونمارتر، ويتركون بهاء أرواحهم في ذاكرته وذاكرة الرسم أو على زاوية ذلك الشارع بعد أن كتب عمره غير الطويل وسيرته الفنية الكبيرة على صفحات الأوراق وبين مساحات قماش الرسم، حين أدرك ذلك منذ رحلته الأولى من البصرة الى معهد الفنون الجميلة ببغداد، ليكملها في مخاضات الفن الجميل في أكاديمية الفنون الجميلة برفقة أساتذة انبهروا به، لأول مرة، مع زملاء أعلنوا الانتماء الروحي والجمالي لمجمل ما كان

يؤمن به ويريده؛ اذ يمسك أيديهم ويقودهم الى مساحات الأحلام النبيلة، ويتشبث بيدي صاحبه وخله الوفي (فيصل لعيبي) لتقودهما الأزقة والممرات الطويلة الى ساحة الميدان ومقاهي بغداد التي تفيض منها رائحة الورق والفحم والأصباغ الملونة وحوارات الثقافة، ليرسما معا أحلام طفولتهما حتى يطوقا بها أسوار بغداد المدورة من أبوابها الأربعة بالرسم، والرسم فقط، وبالتنوع مختلف الأغراض من التخطيط الى الرسم الملون والبورتريت، ورسم القصص الشعبية في العمل الصحفي، في دار ثقافة الأطفال، ومختبرها الابداعي ممثلا في مجلاتها (مجلتي والمزمار) وفنانيها آنذاك، كان يروي لشهريار حكايا الليالي البغدادية لكن الصباحات أدركته مسرعة، دون أن يكمل بعض قصص تلك الليالي.

صلاح جياد القارئ المثقف، ابن البصرة، وابن العراق الذي لفت الإنتباه اليه، منذ البداية وصولا الى مساعيه، ضمن جماعة الأكاديميين وتحريضهم على صياغة الهدف الجمالي المرئي السامي، بما تفرضه الأعراف الأكاديمية ممزوجا بسلطة الخيال العليا. هذا الفنان الكبير بفنه وانسانيته ونبل مراميه حتى اللحظة الأخيرة من حياته، كان يزاحم الشباب برؤاه وأمانيه وحرصه وإخلاصه لذلك الهدف القديم المتجدد، حين يلتحف الرسم عملا وخيارا ابديا للتعبير عن الذات والموضوعات المحيطة، مجترحا منهجه الخاص سواء ما يتصل بالناس، بشكل مباشر من تصوير ذواتهم المنعكسة على الشكل الظاهري أو الإيغال في التعبير عن الجوهر الخفي، ولكنه في الحالتين يصور الواقع بأكثر من زاوية. انه الانسان أولا الذي تجاوز الساكن في الخطاب الفني.

بيد أن ما نثره صلاح جياد من تلك الأماني، لم يعد كافيا لكي يمكث في بغداده، فقد حاصره الظلام والأرواح الشريرة وأصبحت كل الأماني في ضلال مخيف، وتؤدي الى الهاوية ليغادر الى فضاء مفتوح أكثر سعة، لكي يتنفس هواء نقيا، ممكن أن يحقق مراميه القديمة المتجددة، ولكن ذلك لم يكن الا حزنا آخر يهوي به ويحاصره على ناصية شارع ظل فيه طويلا، يرسم فقط دون أدنى ضوء، لعتمة النفق الطويل الذي يمتد من البصرة الى باريس، على الرغم من ايمانه الكبير بالتغيير الذي بقي مخلصا له، وتابع يطور تجربته الفنية ويرعاها من أجل الوصول الى اسلوب متفرد، كان ابتدأه في بغداد، بيد أنه تعمق في المشاهدات والتعرف الكبير الى فناني الحداثة الأوربية لتتشكل لحظة مختلفة ومتميزة في مشهد التشكيل العراقي في ضوء الخصائص الذاتية التي تحتويها تجربته دون غيرها؛ ففرشاته عنيفة ضاربة حرة، وحركات عفوية تقود الى تلقائية تعد من الخصائص الجمالية في أداء الرسموية، وان خطوطه العنيفة ناتجة عن الم نفسي عميق وشعور بهواجس أو تخيلات تثير القلق، فأن عنف الصورة المتمثل بخشونتها والتي تحمل تركيزا معنويا ورمزيا يجعل لها لغة خاصة تمتلك نموها الداخلي والخارجي في محاولة لتخطي القيود الموروثة، فاستخداماته المعبرة عن الانفعالات المباشرة بصورة اختبارية، تكون أحد المكونات الأساسية لعملية الخلق الفني عنده. فصلاح جياد لم ينتقل من البناء الشكلي للموضوع الى

التعبير اللاشكلي بشكل حاسم وقاطع. ولم يخلق قطيعة بين التعبيرية الشكلية التي امتازت بها أعماله السابقة وبين التعبيرية التجريدية. وفي المرحلة المتأخرة لجأ الى ايجاد علاقة بين الوجه بالقناع بما تحدثه المفارقة والتناقض، لكنها في المحصلة النهائية تحدث توأما بينهما، ولا انفصال بين هذا وذاك، وبدت أعماله وكأنها شبيهة بالأقنعة المضببة التي يستعير فيها ألوان الموشور الضوئي الذي لجأت اليه الانطباعية من قبل، فيغدو لون سطحه التصويري مائلا الى الرمادي، يتوسط قيم السواد والبياض اشارة الى اختلاط المبادئ وسط عتمة المفاهيم الهجينة، التي لا يمكن التفريق فيها بين الحقيقي والمزيف. وهذا ناتج عن القراءات الواعية في تفسير الواقع والمآلات المعاصرة لحركة التاريخ ونتائجه المخيبة للآمال، مقارنة بالمقاصد والمشاغل الأولى التي كانت مرتجى التغيير على أساس العدالة الاجتماعية التي وظف فنه لخدمتها، والتأسي بالذين قدموا خدماتهم من أجلها.

وتتوالى الصباحات الحزينة لتنبئنا برحيل حالم آخر، كتب وصيته الأخيرة بأن تحمل الرياح بقاياه الى أقاصي الكون، بعيدا عن تدنيس هذا الأديم، وقد اجترح لنفسه منذ بداية حياته المهنية والفنية رؤية بأن لا يثقل هذه الأرض بأحمال اضافية، وقرر أن يذهب وحيدا دون أن يترك وريثا بشريا له، قد يمارس الدمار أكثر مما هو كائن، لكنه ترك من فضاءات العمارة والرؤى والطروحات، لتحل بديلا عن ذلك. هكذا آمن (رفعت الجادرجي) بالعلم ومقولات الحداثة بوصفها نزعة انسانية، تبحث في الجديد والمختلف وعنه، وكان لا يفارق جذوره الشرقية والاسلامية التي دخل من أبوابها المشرعة الى فضاءات العمارة العالمية، محاولا الجمع بين الاتجاهين للخروج بظاهرة جمالية مختلفة، تمكن مبدعي الحداثة الفنية العربية من أن يقفوا على أعتاب تلك الاصول والموارد والبحث عن هوية أو ظلال لهوية الفن والعمارة على وجه الخصوص مع آخرين مثل (مكية، المدفعي، الآلوسي) وغيرهم. وليس ثمة غرابة أن يلج الجادرجي تلك الموضوعات وهو معاصر لطروحات الحداثة العراقية بمختلف أجناسها الابداعية، متأملا وفاعلا في أساساتها، حيث اشترك مع جواد سليم صانع خطاب نصب الحرية، في تأسيس فكرة النصب، ليضيف معنى آخر لمعنى المفردات المكونة للسطر النحتي البارز، بوضع تأويل لمعنى قاعدة النصب والخروج بها من الوظيفة الى التعبير الرمزي، اذ يمثل الارتفاع ثمانية أمتار واحدة من مكونات التمفصل المزدوج في فعل المنظومة العلاماتية، ويكملها بعرض النصب الذي يبلغ خمسين مترا، وعندها يكتمل المعنى في الثامن والخمسين في اشارة واضحة الى ثورة الرابع عشر من تموز. وهنا كانت التقاطة أولى على صعيد العمارة المحلية والعربية، وأفضى لأن يكون اسلوبا جديدا في الأعمال الفنية، والذي استثمره لاحقا في نصب (الجندي المجهول) القديم في ساحة الفردوس ببغداد، وحاول أن يجد توافقا بين البنيتين السطحية والعميقة، ممثلة في الشكل الظاهري والمعنى العميق المستتر خلف الشكل. وعلى الرغم من الانحناء والتقوس في أعلى النصب، الا أن الثبات ممثل آخر

لتجلي الدلالة. وليس بعيدا عن تلك اللحظة الحداثية، حاول الجمع بين التشكيل والعمارة. واستعارت العمارة مقومات النحت والرسم وملامحهما، واصطبغت بهذه الرؤية، اقترانا بمفهوم التجريد في العديد من أجزائها وتفاصيلها ضمن المنشآت المعمارية، التي صممها الجادرجي، وأشرف عليها في مكتب (الاستشاري العراقي)، الذي تجاوز حدود الوظائفية الى مساحات أوسع، من ذلك، ليصنف حقلا للتفكير والتخطيط للجديد المختلف، بما يتلاءم مع طبيعة التطلعات الحداثية. لكن القوى الظلامية التي عاندت صلاح جياد وعددا كبيرا من أبناء جيله، لاحقته بالسجن مرة، وانتهت بالنفي خارج حدود الحلم بوطن، ينعم بالجمال، واغلاق بوابات الأحلام التي كانت ستحول عمارة الوطن الى شيء مختلف ومغاير لما سبق.

من هنا ابتدأت رحلة جديدة من غرب الأرض ومدينة الضباب (لندن) ليعزف لهذا المنحى بلحن روحي قائم على المقاومة الجمالية، والاستمرار بتصميم معمار، وانجاز مؤلف يروي ويفسر ويفك التشابك العالق في التقولات التي نعتت بها بعض اللحظات الفنية، بما يؤسس للمواءمة بين ما ينتجه على صعيد العمارة، وما يتركه من مدونات نصية تفسر وتشرح المرامي والفلسفات التي تقف خلف هذه التأسيسات الجمالية؛ فلكل فترة زمنية على صعيد التجليات الحية في العمارة كان هناك كتاب يرافق ذلك، تلك المدونات والمؤلفات التي أغنت المكتبة الهندسية بما يدعمها من ملامح ثقافية تعبر عن تلك المرحلة، وهذا ما يجعل فنه العماري مستندا لطروحات فلسفية تشغل صانع الخطاب، فقد أنجز عبر حياته كتابه الأول (شارع طه وهامرسميث) ثم كتابه الجميل (الاخيضر والقصر البلوري)، الذي يكتب فيه بعض ملاحقاته للنظم المعمارية وبعض الشواهد والخلاصات النهائية للجدل القائم في بعض الموضوعات، ليختم ذلك في مؤلفه (جدار بين ضفتين)، وهي عناوين أدبية أكثر منها التصاقا في العمارة، بيد أنه يواكب التحليل في داخلها من اجل اثبات رؤيته التي عمل عليها، خلال قرن كامل من القراءات الفنية والدراسية والاستقراء المنهجي للوصول الى نظام معماري متفرد، يقترب من الروح العراقية الشرقية. كما ظل يتابع المشروعات النظرية المرتبطة بالمنجز العماري في الواقع الفعلي، وظل يروي مشاهداته وتطلعاته في الوقت نفسه، الى عالم يمكن أن يكون جميلا تشاع فيه البراءة الانسانية، ولم تدنسه المكائد والعروج عن المرامي النبيلة.

وفي اللحظة التي نستذكر فيها مبدعين من هذا الوطن، في مضماري الجمال (الفن والعمارة) فأننا نحتفي باسرار تمسكهما بمعايير الجمال وطابعه الانساني الخالص، بعيدا عن المنافع الذاتية، ليكون مسارهما خيارا، لمن يريد أن يسير بطريق الجمال ويرتمي باحضان الوطن والناس ويخلق صورة حلمية، تصلح لأن تكون معادلا موضوعيا عن الوطن المضاع.

زهير الدجيلي.. من قتل قداح المشمش؟

د. جمال العتّابي

كنا على أجنحة رغبة وابتهالات غريبة على خيالات هوى بعيدة، نجوب شوارع بستان مدينة الحرية، تأخذنا الخطوات في المساء نحو (الساقية)، لنسمع أغنية أنت عمري، فتختلج اللوعة في أصداء المقهى، نودع الأصدقاء ونروح في الليل نبحث عن زاوية نداوي فيها خواء الجيوب، ما أحلى أن ترجع طفلاً تتمدد على البساط الأخضر الندي لثيل ساحة عدن، كل ما فيها يغوينا، (هذه الساحة كانت ملعباً لشبابينا وكانت مرتعا)، أعمدة النور المتوهجة، من خلفها إستعادات عذبة لكل ما في شوارع محلة النواب وبساتينها، وهي تدخل في منطقة الظل الأليف مساء، كنا نلهو، ونلعب، ونتحايل على أهلنا اننا نراجع دروسنا أيام الامتحانات. القادم الجديد الى الساحة مختلف تماما، ليس منا نحن المدّعين بالمذاكرة، ولا من اولئك الذين يزجون الوقت في التسلي، أو هو من الجوالين البسطاء لبيع (الحَب) المحمص أو الآيس كريم، أطل علينا القادم يطوي عن عيون الناس صوته، بما يحملنا على التساؤل، كل ما يحيط به يدعونا لذلك، بعد ان كنا لاهين عنه، إختار موقعه في الطرف الأقرب إلى سكة القطار، كان قد بدا أشد وضوحاً وتألقاً، لم نكن نتعرف على اسمه بعد، لكن عرفنا على أي أرض يقف، وترك فينا أثراً لا ينسى منذ لحظات اللقاء الأولى. قدّم لنا نفسه انه (عبود البيدر)، بعد أن غادر حذره وتوجساته، وشعوره بالإطمئنان لنمط تفكيرنا وتوجهاتنا السياسية، حينذاك كنا نتابع بإهتمام وإعجاب ما يكتبه البيدر في عموده الإسبوعي بجريدة صوت العمال، قبل ان نتعرف عليه، والجريدة كانت تصدر عن اتحاد نقابات العمال، ويرأس تحريرها هاشم علي محسن، وكانت فضاءً اتسع للاقلام المعارضة للنظام العارفي، في ظل هامش من الحرية وتخفيف قيود الرقابة على الصحافة بعد هزيمة حزيران عام 1976، كانت كتابات (عبود البيدر) جديدة ومثيرة، بلغة لم يألفها الوسط السياسي والصحفي، بأسلوب أقرب الى نبض الشارع، بعقلية نقدية ذكية مختلفة

عن السائد والتقليدي في الكتابة، فكان ظاهرة بحق انسجمت مع ذات مبدعها، كنا نشعر بالزهو اننا نعرف (ابو هدف) من؟ وامتيازنا اننا اصدقاء هذا الكاتب الصادم المعلن عن موهبة ستأتي .كان الواقع السياسي ينذر بأحداث دراماتيكية، في ظل أجواء دسائس المؤامرات والإنقلابات لسرقة السلطة من جديد، ومشحوناً بالتوتر والقلق من صعود اليسار العراقي، ولا سيما بعد فوزه في الإنتخابات الطلابية الجامعية، فأرعب هذا الفوز القوى المضادة، وحفزها لتلملم نفسها، وتتنازل عن هويتها (الوطنية) المعلنة، وتسرع بالقفز الى السلطة بمعاونة اطراف مخابراتية إقليمية ودولية. لم يعد سراً ان يكشف لنا ابو هدف عن اسمه الحقيقي، بعد ان تقاسمنا الهوى المقيم فينا معاً، انه الكاتب اللامع والشاعر زهير الدجيلي .مازلنا حتى بعد انقلاب تموز 68، نلتمّ على بخار ساخن يلهث بالحزن والإبتهال، كان كالريحانة يجمعنا ويسقينا، نقضم حبات الباقلاء مثل كرز حلو من يديه، يترصدنا خوف، ويتقمصنا قلق من أيام مقبلات، نغامر بقراءة المنشورات السرية، ويوصينا ان نحفظ العهد معها. كان إختياراً صعباً لما يحمله من عذابات وألم، اكتفى زهير بالطرق على الحديد، والحفر على الصخر، ويا لها من مهنة شاقة ان تدفع بجسدك النحيل عربة كانت وديعة معك، رفيقة بروحك الترفة، وتعرف انك عاشقاً للزهر وقداح المشمش. كنت شامخاً ومتسامياً، ومؤهلاً ان تروي لنا الحكايات والأغاني هات لنا ما عندك يا صديقنا؟ نعلم انك صابر وتتحدى المعاناة العراقية التي مازالت مثقلة بالحزن والبكاء، بعد أن أهرق المغول قرابين دم، وشنقوا البلاد بسيوفهم الظمأى للموت، نعرف يا زهير انك تريد أن تستريح، فالشيب غزاك مبكراً، وفي ظاهر كفيك رجفة في العروق، وجهشة في نبرة الصوت ما تزال تئن، ماذا تبقى لديك؟ عدساتك السميكتين تحجب عنا وسع عينيك، وتخفي وراءها أعباء الألم! دعنا نسترجع المعاناة والهواجس التي عشتها! بمذاقها الصعب والمر، بعد تجربة سياسية نلت منها ما نالت، فاخترت الأصعب. نعم يا أصدقائي، كنت وما زلت أحمل مشروعاً كبيراً للحب، ولكنني أخفقت في إبلاغه الى نهاية الطريق، آثرت ان أستريح من كثافة ما رأيت وسمعت! هي أمنية أن نزرع وردة الآن، بعد أن زرعوا الدمار في البيوت والرعب والمشانق، وتكدس الابناء والأصدقاء على عتباتها، غير اني ما انتهيت، ها انا أكابد من ضجر الوقت، كأني ابحث عن بلاد ضاعت، وأهرب من قاتل يتوعدني. اعذروني : رياض، رشاد، جمال، عما أسلفت من قول مزجته بمرارة الحزن، ها انا اراوغ نفسي من طعم مرارة السجن الذي أثقل خطاي، وما زلت أتذكر السور وحراسه، بوابة الحبس وقيد السجان، كم من شاعر أوحت له تلك الأيام المثقلة بمدونات السجناء على الجدران، ما أوحت من الشعر؟

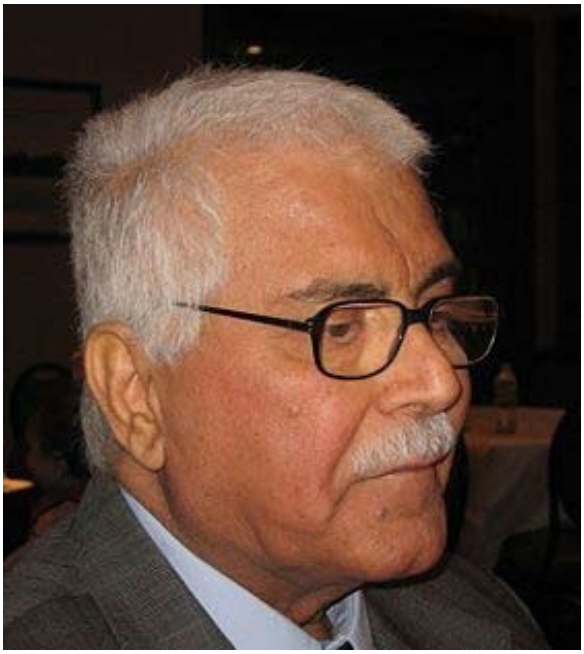

زهير الدجيلي

هذا هو أنا (ابو هدف)، لم ينطفئ الأمل في عينيّ المتعبتين، ولم أستسلم للخوف في الطرقات. دعنا يا زهير ان نقول ان كلماتك لم تعد قادرة على ان تترع حروفها بكل ذلك الدفق العصوف من الحب القاهر والمقهور، صمتّ كثيراً، وها انت المغني لم تكف عن الشدو، ولا أشرعتك البيض ناخت أمام الريح، ما زلت تطارد فراشات الأمل الملونة، ما كنا ندري انك تشهد آخر أحلامك في البلاد، وتغادرها، ما أشق السفر والأفق غائم؟ كل ما كنته انت، أو كنته قد نأى عن يدينا، كل تلك الدروب الظليلة والحكايا القصار ضاعت، فما أمرّ الضياع؟ وأنت طائر الحزن الذي غنى للأهل! يرقد الليلة مجروح الربابة، فلا ديار توقظ السلام والأخبار، حتى ولا (أحّاه يا ديرة هلي) تبدد عتمة الغياب. هناك في البعيد كتبت قصائدك، والبلاد غابت عن شواطئها (الطيور الطايرة)، من يردّ لنا تلك الطيور، ويعيد ساعات الصبح مثل ملاك جميل؟ من يستعيد رائحة الكصايب على المتون؟ في زمن لوثته رائحة البارود، من قتل قداح المشمش غير سم الأفاعي؟ أعرف ان هواك هنا يا ابو خد وخد، ! ليس عدلاً ان تنام هناك! فالورد ذابل في الدروب.. بعد ان غادرها فرح العمر، وانت كل العمر.

قصص قصيرة جداً

طلال حسن

الباب

ماذا لو أنّ لا أحد وراء الباب؟

ابن الإنسان

ما زال يوحنا، رغم رأسه المقطوع، يصيح في البرية : سيأتي ابن الإنسان .. سيأتي ابن الإنسان .

ربيبة الحمام

شمورامات، الحمام الذي أنتِ ربيبته، جاء وأخذك قبل الأوان، عودي يا شمورامات، فنينوى ما زالت بحجة إليكِ.

عينان

توقفت، وتلفت حولي، لا أرى شيئاً، كنت أرى بعينيه، انطفأت عيناه، ومعهما انطفأ العالم، لم أعد أرى أيّ شيء.

إلى أين

حين وصل النهار، ونشر ضياءه في كلّ مكان، أراد الليل أن يهرب، لكن إلى أين ؟ لا مهرب، فتوارى في الضياء إلى حين.

الأخير

حلّ الدمار بميزوبوتوميا، ولم يبقَ من أهلها إلا شخص واحد، فذهب إلى متحف التاريخ الطبيعي، ووقف جامداً إلى جانب الديناصور.

الجوع

وجدتني وسط الصحراء، تحيط بي الرمال، وشعرت بقواي تخور، لقد جعت، فأكلت نفسي، ولم أشبع حتى بعد أن أتيت عليّ تماماً.

الشمعة

قال الملك للحكيم: أريد شمعة لا تنتهي.
فقال الحكيم للملك : مولاي، الشمعة التي لا تنتهي، هي الشمعة التي لا تضيء.

ماذا نسيت ؟

على مدى سني حياتي كلها، كنت أركض وأركض وأركض، من أجل المستقبل، وعند خط النهاية توقفت، لقد نسيت شيئاً .. آه لقد نسيت أن أعيش.

الأنفاس

قالت لي : انظر أمامك .

قلت لها : إن الأنفاس الوخمة المغبرة، التي تأتي من الخلف، تعمي عينيّ، وتطمس معالم الأمام.

النبتة

أيتها الصحراء، كلّ عواصفك، ورمالك الميتة، لم تقتل النبتة، التي ولدت يوماً في أعماقي، ولم يزل قلبها ينبض بالحياة.

الموصل

اور، اسمعيني، شقيقتك الموصل، نينوى الأمس، يرثيها أهلها كلّ يوم، فالنار التي أحرقتكِ بالأمس أحرقتها، وما زالت تحرقها حتى اليوم.

خطأ

نظرت إليه بعينيها الجميلتين، وقالت في نفسها : لن أخطئ كما أخطأت أمي وجدتي.
تقدم منها، وفي يده وردة ، فقدم لها الوردة، وقال لها بعينيه : إنني أحبكِ .
وعلى الفور، مدت يدها، وأخذت الوردة.

سبارتكوس

في مشارف كلّ روما، ما زال سبارتكوس على الصليب، وقد انضم الكثير من العبيد، الذين قاتلوا معه، إلى أشراف روما، وراحوا يقاتلون في صفوفهم.

سود

قال الإله انليل، لزوجته الفتية سود : أنتِ منذ الآن ننليل.
لاذت سود بالصمت، فمال عليها انليل، وهمس لها بصوت دافئ: ننليل.
فردت سود قائلة : لست ننليل، أنا سود.

المشكاة

جثوت أمامه، وقلت له بصوت متعب: شيخي، إن المشكاة، التي في داخلي، انطفأت .
تطلع شيخي إليّ، وقال : الآن بدأت تبصر.

صحراء الليل

ركضت في صحراء ليلي، أبحث عن واحة رأيتها في المنام، وأفقت قبيل الفجر لاهثاً، متعباً، وفمي رمال صحراء لم تزرها الغيوم بعد.

الناقة

تهاويتُ وسط الصحراء، يفتك بي التعب والجوع والعطش، ومن الظلام أقبلت ناقة، كأنها إمرأة فتية، وقالت لي: انهض، سآخذك إلى الواحة.

لن ترحلي

ـ تعال إليّ، تعال.
ـ سآتي إليكِ، انتظريني .
ـ لكني قد أرحل في أية لحظة .
ـ لا عليكِ، لن ترحلي، قبل أن آتي إليكِ.

المرة الأولى

في لحظاتي الأخيرة، وأنا أكاد أنطفئ، أفقت على أريجها، يتضوع في أعماقي، كما في المرة الأولى، آه المرة الأولى، مهما تناءت تلك المرة، أو تكررت، ستبقى.. المرة الأولى.

طرق على الباب

أصغيتُ، أرقني الإصغاء، تعبت، لا أريدها أن تطرق بابي بعد، فحملته على ظهري،

وذهبت به بعيداً، إلى أغوار الصحراء الشاسعة، في منتصف الليل، وكنتُ مستغرقاً في النوم، سمعتها في أعماقي، تطرق على الباب.

القمة

بعد مسيرة طويلة وشاقة، توقفتُ عند السفح، ورفعتُ عينيّ الشائختين إلى الأعلى، آه ما أبعد القمة وأبهاها، قيل لي، إنها المستحيل، فخفضت عينيّ، وتنفستُ بعمق، وواصلتُ الصعود.

الضال

ضللت الطريق وسط الصحراء، وتراءى لي من بعيد، بقايا انسان كأنه قدّ من رمال، أسرعتُ إليه، وقلت له لاهثاً: لقد ضللتُ، أرجوكَ، دلني.

لم يرفع الرجل رأسه إليّ، وقال بصوته الأشبه بأنين الريح: أنا أيضاً ضللت، لكن في صحراء أعماقي، ولم أجد حتى الآن،ة من يدلني على الطريق.

البرابرة

من تحت ركام البيوت، التي تهاوت فوق أصحابها، انسلوا الواحد بعد الآخر، بملابسهم الرثة المتربة المدماة، تلفتوا حولهم، يبحث كلّ منهم عمن كان معه، قبل أن تدهمهم أعاصير البرابرة، توقف رجل عجوز مترب، وهتف: تعالوا.

ساروا جميعاً، بعد أن نفضوا عنهم الغبار، واتجهوا إلى بيوتهم، التي نهضت من ركامها، وعادوا إلى حياتهم، ينتظرون البرابرة.

الناي

طرق نافذتي ليلاً، عرفت أنه هو، ربما جاء في هذه الوقت ليودعني، فغداً سيذهب مع رفاقه إلى الحرب، فتحت النافذة، نعم إنه هو، وقدم لي قصبة، وقال لي: جئتكِ بهذا.. الناي.

ذهب إلى الحرب، غاب، وطال غيابه، وذات ليلة، والسماء بلا قمر، سمعتُ أنين ناي، يصدر من القصبة، أمطرت عيناي، آه لن يعود.

عبد القادر حسن أمين
والريادة الأكاديمية في النقد القصصي العراقي

(ج 1)

أ.د. نادية هناوي

تحتل الدراسات الأكاديمية مكاناً لائقاً في سلم التّطور المعرفيّ الإنسانيّ، كمؤشرٍ على الرُقي الحضاري، الذي به يُستجلب الجديد ويُستنهض القديم، مضيفة إلى خزينة الذاكرة الإنسانية معارف جديدة مستحدثة. وهو أمر بدت عملية الظفر به اليوم عويصة، إن لم نقل متعسرة بعد أن طغت العددية على النوعية وصرنا نشهد دراسات أكاديمية تجتر ما سبقها أو ليست ذات قيمة.

ولا نلقي باللوم سوى على ضعف الوازع البحثي في الإتيان بالجديد والمستحدث، غير منتفعين من السرعة والمرونة التي يشهدها عصرنا في مختلف المجالات، والتي بإمكانها أن تجعلنا ممتلكين الرؤية الدقيقة الحصيفة مع الرصد التقييمي الحذر والواعي الذي به نميز الهش والضحل عن الأصيل والمميز.

وليس قليلا ما أخذنا نلمسه في راهن النقد الأكاديمي من أبحاث تُجاز جامعيا وتُنال بها الشهادات العليا، وهي لا تأتي بجديد يذكر في مجال تخصصها؛ بل إن هذا المجتر والمعاد نفسه قد ينطوي على مغالطات نقدية وأغلاط علمية. وقد لا يأبه الباحث أو المشرف عليه وربما أعضاء اللجنة العلمية المجيزة أيضا بأهمية تصحيحها أو تشذيبها، بغية جعل التعاطي الأكاديمي في الدراسة متلائما مع طبيعة الموضوع المدروس.

ولا مناص من القول إن تقويم الخطل في راهن الدراسة الاكاديمية عندنا يقتضي استعادة ذاكراتية لتلك الدراسات الريادية التي كانت قد تركت بصمات مهمة في مسيرة البحث الاكاديمي الحديث والمعاصر في العراق، واضعة خطوات حميدة على طريق الدرس الجامعي تميزًا وفرادة.

وإذا خصصنا من تلك المجالات البحثية المجال الانساني، وتحديدا مجال الدرس النقدي الاكاديمي؛ فإننا سنكون إزاء نماذج بحثية هي في الحقيقة منارات شامخة، وضعت حجر الأساس في مجال تخصصها، ممهدة بذلك الطريق لغيرها.

وباستعادة هذا النوع من الأبحاث سنكون قد وضعنا أمام الجيل الجديد من الباحثين والدارسين نماذج مهمة، منها يستقي أساسات صعوده وتميزه واضعا خطواته الصحيحة على سلم المعرفة الإنسانية غير منزلق ولا متدحرج. وبالتواني والصبر سنضع أيدينا على الجديد الذي تفتقر له اليوم جهودنا البحثية، نظرا لما حولنا من كثرة عددية في البحث، متزايدة في جميع الاتجاهات، تشتت وعينا ولا تجعلنا نرى المعرفة على حقيقتها.

وأول بحث أكاديمي متخصص في دراسة

القصة العراقية، أجيز من جامعة عربية في منتصف خمسينيات القرن العشرين هو (القصص في الأدب العراقي الحديث) لعبد القادر حسن أمين، الذي انماز بالجدة والدقة والوعي والتفاني حتى صارت له في ذاكرة النقد الأدبي مكانة مميزة، ستظل شاخصة في نقدنا الأكاديمي الراهن والقادم، وهو ما سنفصل القول فيه في المباحث القادمة.

الريادة البحثية: الافتتاح والانتهاج /

تنطوي مفردة(ريادة) على تميز ذي ثلاث شعب: الاولى التفرد النوعي في الحقل الذي تتعلق به، والثانية الذيوع الكمي الذي يناله تفردها ضمن الوسط الذي تتحدد فيه، والثالثة الطريق التي تشقها لمن سيلحقها، ليبني على أساسات ما بنت عليه.

وتنطبق هذه الدلالة للريادة على مختلف صنوف المعرفة الانسانية والعلمية قاطبة، والتي بها تنفتح آفاق جديدة في البحث العلمي والاكاديمي. وهو ما طبع دراسة الأستاذ عبد القادر حسن أمين (القصص في الأدب العراقي الحديث)[1] لتكون رائدة في مجال نقد القصة العراقية أكاديميا، وقد اتسمت بالجدوى العلمية موضوعا وفنا، معتمدة في تحصيل نتائجها على قدر ليس بالقليل من الأمانة والإخلاص، وبلا تواطؤ أو استسهال ولا ترفع او انبهار.

ومعلوم أن الدراسات الاكاديمية هي واحدة من صور التأليف النقدي، يقصد منه وضع النتاجات الأدبية تحت مجهر الفحص والتشخيص لتحليلها وتحديد مقدار تميزها ومستويات ادائها الفنية والموضوعية.

وإذا كانت الكتب هي محجة القراء؛ فإن الدراسات الأكاديمية هي محجة الباحثين والدارسين بسبب ما تتضمنه من العلمية والتخصصية فضلا عن الموضوعية في الاستقصاء والدقة في الرصد. وعادة ما تحتضن هذا النوع من الدراسات أروقة الجامعات المتميزة بالرصانة. ولأن ظهور الجامعة عندنا جاء متأخرا عنه في مصر ولبنان، لذلك كانت بواكير النقد الأكاديمي عندنا منجزة بإجازات عربية، كما ظهرت أبحاث أكاديمية أجيزت من جامعات غربية كانت موجهة نحو موضوعات الأدب المقارن والتاريخ الأدبي ولا سيما الشعري، خذ مثلا دراسات الباحثين داود سلوم وعناد غزوان وجلال الخياط وناصر حلاوي وعلي جواد الطاهر.

وظل الوزر الأكبر في تحليل المنجز الأدبي العراقي الحديث وإحصائه ورصده واقعا على عاتق الدراسة الأكاديمية وهي بالعموم نزرة، كما يعتمد على بعض الدراسات التي كان يقوم بها كتّاب ينتمون إلى خارجها، حتى أنشئت الجامعة عندنا أواخر العقد الخامس وبداية العقد السادس من القرن العشرين والتي أخذت تجيز الدراسات وتمنح الشهادات والألقاب بنفسها.

وبعد مضي أكثر من عقدين على نشأة الجامعة صار إخضاع المشهد الأدبي للدراسة يحتاج إلى تجاوز منهجيات تاريخ الأدب والمنهج الفني بظهور جيل من الباحثين هم في الأصل أدباء كانوا جزءا من الوسط الثقافي العراقي مطلعين على تفصيلاته، بواكيره ونشأته وواقعه وما يستجد فيه، ولاسيما في مجالي الشعر والقصة، مواكبين مختلف مراحله وعارفين باتجاهاته، فوصلوا الحبل المقطوع بين الجامعة والوسط الثقافي، وفتحوا آفاق البحث والدرس أمام الوافد من

المنهجيات الغربية.

ولقد شهدت مرحلة الخمسينات انعطافة مهمة لا في تاريخ الشعرية العربية ببزوغ حركة الشعر الحر حسب؛ إنما أيضا بانبثاق نشاط قصصي واضح ذي أدوات خاصة وتقنيات جديدة مميزة ناتجة عن استيعاب دقيق لاتجاهات الواقعية التي تنص على ربط الأدب بالحياة.

لذا كان دأب القصاصين المستمر أن يواكبوا حركة الحياة المتسارعة سياسيا وكفاحيا باتجاه التحرر والتغيير. وساهمت الصحافة اليومية في الزج بهم وأدبهم في أتون الواقع السياسي والاجتماعي المضطرم بالمتغيرات.

وبالرغم من ذلك النشاط القصصي؛ فإن النقد الادبي والدراسة البحثية ظلا متأخرين عن اللحاق به. فكان حريا بالدرس الاكاديمي أن يكون مماشيا هذه التطورات الادبية في راهنها ومعاصرها، مخالفا المنحى التاريخي الذي كان ينحاه في الغالب والمتمثل في قصر الاهتمام على الموروث الأدبي.

وكان مطلوبا ممن يروم دراسة المنجز القصصي العراقي خلال ربع قرن أو نصفه أن يقر بحقيقة التميز النوعي لهذا الأدب وهو ينتهج مختلف أشكال الواقعية، وبعض هذه الأشكال لم يكن النقد آنذاك قادرا على مجاراتها.

ولقد مرت القصة العراقية منذ مرحلة نشوئها أواخر القرن التاسع عشر إلى مرحلة الاستمكان والتبلور في منتصف خمسينيات القرن العشرين بتطورات تميزت بها عن نظيراتها العربية، ومع ذلك ظلت بعيدة عن أية دراسة أكاديمية، حتى جاءت دراسة عبد القادر حسن أمين لتكون الرائدة في الدرس

البحثي الأكاديمي، والباكورة التي بها يفتتح النقد القصصي طريقه في العراق، شاقة الطريق للباحثين من بعدها، متحرية الدقة والموضوعية ومعنية بالاستقصاء والرصد، متصفة بالروح العلمية التي بها نال صاحبها شهادة الماجستير تحت إشراف باحث متخصص في القصة له فيها كتب مهمة، ظلت مراجع ردحا طويلا من الزمن هو الدكتور محمد يوسف نجم.

لا شك أن العمل الأكاديمي المعد كبحث لنيل الماجستير أو الدكتوراه هو جهد مشترك بين الباحث والمشرف، هذا بقلمه وذاك بمشورته وتوجيهه؛ لأن شخصية الباحث لا بد أن تكون واضحة وهو يضع خطواته على أعتاب كتابة بحثية لا سابق لها، لتكون ريادية، مخالفة السياق التاريخي الذي كان سائدا، مهتمة بنتاج أدبي بعضه حديث ومعاصر وبعضه الآخر مزامن للدراسة نفسها؛ معتنية بالفن القصصي الذي كان مهملا في ظل حاضنة ثقافية فيها للشعر القدح المعلى.

ونضيف إلى ما تقدم ما تحلى به الباحث عبد القادر حسن أمين من دراية بالمسؤولية

النقدية وهو يحلل ويؤرخ ويشخص ويحصي ويرصد، وبغض النظر عن مستويات الاداء النقدي الذي مارسه وهو إزاء القصاصين وقصصهم ورواياتهم، مستندا إلى مختلف الكتب ذات الصلة بالموضوع المبحوث، والموزعة بين المراجع العراقية والعربية والمصادر النقدية الأجنبية، ومستأنسة أيضا بآراء من تصدى للقصص فضلا عن نصوص مخطوطة تمكن الباحث من الحصول عليها ومرجعيات شفوية كمقابلة المعنيين بشؤون الأدب في العراق، واعتمادا على منهج فني ابتغى الباحث من ورائه الموضوعية والدقة العلمية، اللتين هما أهم مقوم من مقومات أي بحث أكاديمي، تجنبانه الانزلاق نحو التاريخ او الايديولوجيا كما تمكنانه من ضبط تسرب الذاتية إليه مع تحاشي نوازع العقل الباطن.

ولا يمكن للنظر العلمي أن يكون ثاقبًا وحصيفًا ما لم تسند الناقد الاصطلاحات والمفاهيم النظرية التي بها يتتبع القصة تاريخيا وفنيا ونشأة وتطورا وفي الحدود التي كان النقد العربي الحديث قد عرفها آنذاك.

والقصة العراقية منذ نشأتها وثيقة الصلة بالواقع ومشكلاته، لهذا انعكست فيها كثير من تناقضاته السياسية والاجتماعية، من خلال قصاصين تفاوتت تجاربهم الفنية بين أشكال مختلفة قصيرة وطويلة وتفرقت منشورة في الجرائد والمجلات المحلية والعربية أو مجموعة في كتب خاصة.

وهذا ما جعل للقصة حضورا واضحا في المشهد الأدبي في العراق كحقيقة لا غبار عليها دعمتها الصحافة والواقع الاجتماعي وأخذت من المقامة العربية والتراث النثري القديم، وتأثرت بالقصة التركية والانجليزية والروسية والفرنسية في بعض من تقنياتها.

وبالرغم من أن التأشير على من يخوض غمار البحث لأول مرة في مجال معين، سيكون مهما أن يُعترف له بالفضل والريادة؛ فإن ذلك الاعتراف لم يعلن عنه بوضوح لا في الملتقيات التي خصصت لدراسة فن القصة ونقدها والتي لم تعط لهذا الباحث وقفة اهتمام يستحقها منذ الملتقى القصصي الأول عام 1978 وإلى اليوم، فضلا عن أن باحثا سيأتي بعد أمين ببضع سنوات سيتجاهل الإشارة إلى ريادة عبد القادر حسن أمين في دراسة القصة، بله الاعتراف بجهده القيم والريادي في دراسة القصة العراقية، وهو الدكتور عبد الإله أحمد في كتابه (نشأة القصة وتطورها في العراق 1908- 1939) [2] الذي هو رسالة ماجستير نالها من إحدى الجامعات المصرية، مع أنه اعتمد النهج النقدي عينه الذي انتهجه أمين سائرا على الطريق الذي شقه له مضيفا اليه ومفصلا فيه، وراجعا إليه كأحد أهم مصادره.

فتغاضى عن الإشادة بجهد هذا الباحث ولم يعترف له بالفضل، كما لم يذكره في أية مقدمة من مقدمات كتابه الذي طبع أكثر من مرة. أما ذكره أمينا في كتابه(فهرست القصة العراقية) وأنه أول جهد(يفهرس) لأعلام القصة بملحق، فلم يكن تاما كونه استدرك على ذلك السبق، في الهامش مغيرا المعلومة، قائلا:" في الواقع إن الإشارات الهامة إلى الأدب القصصي العراقي وردت في بحث الدكتور سهيل ادريس(القصة العراقية الحديثة) ..وكتاب جميل سعيد نظرات في التيارات الادبية الحديثة في العراق.."[3]

والأمر عينه نجده عند ناقد عراقي مرموق هو عبد الجبار عباس الذي تغاضى عن ذكر دراسة عبد القادر حسن أمين وهو يرسم في

كتابيه(في النقد القصصي) و(مرايا جديدة) خارطة للنقد الأكاديمي من الخمسينيات إلى نهاية السبعينيات، واضعا فرشة نقد نقدية لكثير من الدراسات الأكاديمية التي تصب في باب النقد الشعري والقصصي وبعضها صارت كتبا فوقف عند الدكتور علي جواد الطاهر وشجاع العاني وعبد الاله أحمد وعاتكة الخزرجي ونادية رؤوف فرح وجليل كمال الدين وإحسان عباس وعلي عباس علوان ومحمد حسين الاعرجي ورزاق حسن ابراهيم[4].

باستثناء إشارة خافتة وسريعة أخذ فيها على عبد القادر أنه وقف عند القصة وأهمل الرواية، في قوله: "يلاحظ المتتبع للدراسات الأكاديمية التي وضعت عن القصة العراقية أنها وقفت عند القصة القصيرة فلم تتجاوزها إلى الرواية، التي لم تنل من اهتمام الدارسين ما ناله الشعر والمسرح وفن القصة القصيرة، .. فلو قرأنا كتب جميل سعيد وعبد القادر حسن أمين وباسم عبد الحميد حمودي وشجاع العاني في القصة العراقية لوجدناها تمر مرورا عابرا على النتاج الروائي العراقي"[5]، مشيدا بدراسة عمر الطالب (الرواية العربية في العراق) واصفا إياها بأنها "أول جهد مستكمل الجوانب أحاط بجميع ما كتب في فن الرواية العراقية"[6]

وفي هذا إجحاف بحق هذا الباحث الذي تناول مختلف أشكال القصة، ولعل السبب أن عباسا لم ينظر إلى كتاب(القصص في الادب العراقي الحديث) عن كثب، فعبد القادر أمين درس الروايات تحت باب القصة، وشخّص فيها مناحي فنية ليست بالقليلة، كما سنأتي على ذكرها في موضع لاحق من هذا البحث.

ومعروف أن الناقد عبد الجبار عباس ذو وعي نقدي عال وهو الذي أشّر ضمور النقد الأدبي العربي المعاصر بسبب غياب النظرية وضياع القواعد والملامح المميزة للتنظير والفحص، ووقف عند كتاب إحسان عباس(تاريخ النقد الأدبي عند العرب) ووجد فيه استكمالا لجهود أحمد طه إبراهيم في النقد المنهجي عند العرب[7]، مؤكدا أنّ هذه خطوة رائدة وضرورية لها مثيلاتها في الدرس الأوربي النقدي، فلماذا إذن تجاهل هذا الأمر مع عبد القادر حسن أمين، معتبرا د. عبد الإله أحمد وحده الذي قدم "جهدا يؤهله بحق مركز الريادة في دراسة فن القصة في العراق"[8] ؟ !!

لا مناص من القول إن عدم الاعتراف لأمين بالريادة ليس مطلقًا عند كل الباحثين، فالدكتور شجاع العاني أقرّ بالريادة لعبد القادر أمين في اكثر من مناسبة، واشار في كتابه (المرأة في القصة العراقية) إلى آرائه ووافقه على بعضها[9].

إن التاريخ النقدي يوجب الوقوف عند دراسة أمين والتأشير على الدور الريادي الذي به نهض هذا الباحث بنقد القصة أكاديميا، واضعا ركيزة مدماك النقد الحديث في العراق اصطلاحا ومنهجا ووظيفة ومحصلات، مستجيبا لإبداع طاله التهميش طويلا، ومنفلتا من هيمنة الشعر، فاحصا القصة العراقية مميزا بين أشكالها ومحددا مراحلها راسما خطا بيانيا يدشن تاريخها.

ومكانة عبد القادر حسن أمين في النقد الأكاديمي العراقي لا يمكن نسيانها، لأنه بذل جهدا كبيرا وهو يغربل النتاج القصصي ويضبط قوانينه، راصدا سماته ومراحل تطوره وأهم مذاهبه. فكان أول من مهد

السبيل إلى دراسة هذا النوع الأدبي على وفق منطلقات منهجية جمعت الفن بالموضوع وتحررت الإحاطة الأكاديمية.

ولا شك أن شخصيته النقدية وما تمتع به من ذكاء وقاد ورهافة حس، كانت وراء ما قدمه من عروض وتحليلات وأحكام لا تخلو من المرونة في التقييم والتقدير.

بيد أنَّ التأشير على الريادة والأصالة البحثية لا يعفي من اخضاع الدراسة للفحص النقد نقدي لنتلمس ما فيها من مواضع أجاد فيها الباحث أو أخفق، ولنكشف عن الفاعلية التي جعلته يتوجه بأدوات محددة ومفاهيم معينة.

النقد الأكاديمي وأكاديمية النقد

النقد الأكاديمي فرع من فروع النقد الأدبي، يطلق على كل دراسة علمية موضوعها الأدب، ينجزها طالب شهادة عليا داخل مؤسسة جامعية أو شبه جامعية، معتمدًا منهجية يُوصي بها مشرف يوجه الطالب ويرشده، محددا له خطة بحثية تشتمل على خطوات متعارف عليها اكاديميا تحقق للدراسة وحدة موضوعية بمقدمة وتمهيد ومداخل وأبواب وفصول ومباحث ومحاور ثم خاتمة ومصادر ومراجع توظف لها حواش في أسفل كل صفحة من صفحات البحث، كما تفرد لها فهارس في نهاية البحث.

وكلما كانت حواشي الدراسة حافلة بالإحالات كانت تلك دلالة من دلائل دقتها وعمق باعها في الموضوع الذي تبحث فيه. وعادة ما يكون هذا النقد موجهًا بمنهج ذي آليات ترصد وتحلل استقراء واستنتاجا، إزاء إشكالية من إشكاليات الأدب أو قضية من قضاياه أو ظاهرة من ظواهر النقد الأدبي. والهدف من النقد الأكاديمي الوصول إلى حلول أو توصيفات تدعم الإبداع الأدبي وتؤشر على سماته واتجاهاته.

وقد يكون النقد الأدبي مُنتَجا خارج نطاق الجامعة وبعيدا عن الإشراف والدرجة العلمية ومع ذلك يوصف بالأكاديمية، عندما يلتزم صاحبه بالسياقات نفسها آنفة الذكر منهجا وخطة وبحثا متنا وإحالات.

وتبقى مسألة الالتزام بما تقدم متفاوتة بحسب قدرة الباحث العلمية وإمكانياته النقدية، بمعنى أن ليس كل بحث أكاديمي يدرس الأدب سيتجاوز الآليات التقليدية ويتميز بروح التحليل والتفسير لينضوي في خانة النقد الأكاديمي. والاتصاف بالنقدية يحتاج إلى مسألتين مهمتين تجعلان الوصف بالأكاديمية منطبقًا على الباحث، إحداهما وجود النزعة الذاتية للتذوق، والأخرى الاكتساب المتأتي من مرجعية قرائية واكتساب معرفي مستمر.

وإذا ما اجتمعت في البحث الأكاديمي الريادة في الافتتاح والانتهاج وساندته المقدرة النقدية الذاتية في الاستقراء والرصد، فعندها سيحرز هذا البحث المكانة التي يريدها في عالم النقد الأدبي. وهو ما حصده الأستاذ عبد القادر حسن أمين في دراسته للقصص العراقية، التي نلمس فيها ومنذ الفصل الأول نهجا بحثيًا، يبدأ تاريخيًا وينتهي نقديًا.

ولعل الذي ساعد في ذلك كله تمتع الباحث بشخصية نقدية، ما تلبث أن تتوضح كلما تقدمنا في فصول الدراسة، من قبيل الشجاعة في الحكم والتقييم بعيدا عن الانفعال أو العجلة، مع نفاذ الحس في استيعاب أسرار علاقة القصة بالواقع ورصد مواطن تقاربها مع قصص أخرى أو مقارنتها بقصص عربية أو عالمية سبقتها.

وعلى الرغم مما تقدم؛ فإنَّ هناك أحكامًا أطلقها الباحث وتعليلات وتحليلات وقف عندها وهي برأينا تحتاج إلى مزيد من نظر. وبعض تلك المواضع بمثابة هنات أو فجوات، وهي وإن لم تخل بشروط البحث الأكاديمي، ولم تضر إضرارًا فادحًا وهي تتبع المسيرة الناهضة للقصة العراقية عبر خمسين عاما تقريبا؛ بيد ان تلافي تلك الهنات والفجوات كان سيعزز غائية الدراسة ويدعم جدواها.

ومن نافلة القول إن الجهد الذي بذله عبد القادر أحمد أمين كان جهدًا محمودًا استكمل شروط البحث الأكاديمي وهو يدرس القصة تاريخا وتطورا وفنا ومقومات. فكان رياديا بدءا من جمع المادة وتبويبها وانتهاءً بتصنيفها وتنسيق دراستها وفقا لمنهجية فنية جلية. وبالريادة وحدها ستنتفى أية مآخذ يمكن أن تؤخذ على الناقد لا سيما إذا وضعنا في بالنا أن النقد الأدبي عالميا أبان مرحلة إعداد تلك الدراسة كان ما يزال تقليديا أرسطيا، يتمسك بالمناهج السياقية التاريخية والانطباعية والاجتماعية والنفسية.

وقد طبق الباحث المنهجين الفني والتاريخي وشيئا من المنهج النفسي والاجتماعي متجنبا الانطباعي. وهذا ما جعله في منأى عن الأحكام العاجلة والأوصاف الاطلاقية القادحة التي سيقع فيها الباحث عبد الإله أحمد وهو يؤسس لمقولات القصة الساذجة والجيل الضائع والجيلية التي ابتكرها في أطروحته للدكتوراه وراح النقاد يتبعونه في ذلك لاحقًا.

ولا شك أن التركيز البحثي على نتاج هو حصيلة نصف قرن، سيتطلب معايير يتم بموجبها تصنيف النتاجات القصصية الى مجموعات أو توزيع القصاصين في خانات أو طبقات، كي لا تفوت الباحث منهم شاردة ولا واردة.

ولم تكن المرحلة الزمنية التي كان على الباحث رصدها واستقراؤها بالقليلة، ففيها شهدت القصة العراقية مرحلتين: مرحلة التأسيس والنشأة وذلك من نهاية العقد الأخير من القرن التاسع عشر إلى نهاية العقد الثاني من القرن العشرين ثم مرحلة التبلور والاستمكان التي مثلها قصاصو العقد الثالث والرابع حتى نهاية العقد الخامس، لتتبعها مرحلة التجريب والابتكار أبان حقبة الستينيات.

ولم يكن أمر البت في سمات المرحلتين الأولى والثانية باليسير تاريخيا ولا نقديا، نظرًا لصعوبة التدشين، ولا سيما من ناحية جمع المادة القصصية التي تفرقت في الصحف والمجلات والكتب وبعضها فُقدت حتى عند مؤلفيها.

وبالرغم من ذلك احتشد لها الباحث بأدوات جعلته يحيط إحاطة واسعة بالمنجز القصصي في العراق منذ بواكير حركته إلى مرحلة تقدمه ضمن مسعى تأصيلي ناضج وعميق.

وما أشَّره الباحث في المقدمة من أنَّ الأدب العراقي الحديث لم يحظ بدراسة واسعة، فصحيح ولهذا صارت دراسته رائدة في بابها؛ إلا إن البغية التي حددها وهي اسباغ الرعاية على جهود الناشئين، لا تنطبق على جميع القصاصين المدروسين، إذ ليس كل الذين سيشملهم البحث ناشئين، فبعضهم كان من الكتّاب المشهود لهم عربيا بالباع في الكتابة والنشر في المجلات الثقافية المصرية واللبنانية المعروفة، حتى أنها كانت تنشر اسماءهم معضدة بكلمة (الأستاذ) ناهيك عن أن بعض القصاصين من الرعيل الأول كان قد غادر عالمنا قبل إعداد الدراسة.

باستثناء نفر من القصاصين مثل عبد الله نيازي وغيره، كانوا فعلا ما زالوا وقت اعداد الدراسة في مقتبل تجربتهم القصصية لكن وصفهم بالناشئين لا يخلو أيضا من قدح بعطائهم.

وبالرغم من حداثة هذا الفن وعدم وجود النماذج الملائمة لنقده، وقبل ذلك كله تعارضه مع ما تريده الحاضنة الثقافية التي أعطت للشعر ونقده اهتماما كبيرا، حتى جعلته مهيمنا على أي شكل نثري آخر؛ فإنَّ هؤلاء القصاصين كانوا مندفعين للكتابة القصصية محاولين الإيفاء بمتطلباتها.

أما حاجتهم إلى (الرعاية) فذلك صحيح لأن النقد كان مقصرًا عن مواكبة القصاصين ومتابعة انجازاتهم، إذ لم يكن هناك من يكتب نقدًا يوصف بأنه قصصي سوى الأستاذين باسم عبد الحميد حمودي وجميل سعيد، بينما الغالبية العظمى مما يُنشر في الصحف من تقييمات وتحليلات نقدية كان يمارسها القصاصون أنفسهم. وكثير منها كانت تحفل بوعي عال بالضوابط النوعية ويتبع القواعد المنهجية في هذا النوع من النقد. بعكس الشعر الذي كان له نقاده المتمرسون الذين يمتلكون الاحتراف والمتمتعين برؤى وطدوها استنادا إلى قاعدة المنجز النقدي العربي القديم من جهة واعتمادا على السياق النقدي السائد الذي تؤيده المؤسسة الثقافية الرسمية وتقر به من جهة أخرى.

أما وصف الباحث لهذا الأدب بأنه (وليد) فلا نؤيده فيه، إذ أن مرور أكثر من خمسين عامًا على كتابة القصة العراقية ليس بالقليل، وخلال هذه السنين شهدت أنماطا كتابية مختلفة، فمن مجاراة المقامة والمنامة عبر قصص الرؤيا عند أبي الثناء الالوسي وعطاء أمين وسليمان فيضي وشوقي خلف الداوودي إلى نمط القصة الواقعية التي رصدت الواقع الاجتماعي وتجسدت كتابتها على أيدي القصاصين (عبد الحق فاضل ويوسف متي وعبد الوهاب أمين وعبد المجيد لطفي وأنور شاؤول وجعفر الخليلي وذي النون أيوب وسليمان الصائغ وشالوم درويش).

ثم دخلت على القصة رؤية جديدة نهاية الأربعينيات تمثلت في تكنيك تيار الوعي على يد عبد الملك نوري في وقت لم تكن القصة العربية قد عرفت هذا التكنيك بعد، ثم تبع نوري في النصف الأول من العقد الخمسيني، قصاصون آخرون مثل فؤاد التكرلي ومهدي عيسى الصقر ومحمد روزنامجي.

ثم كيف تكون القصة العراقية وليدة، وهي التي انتهجت المذهب الواقعي وجربت مختلف صوره، فمن الرفض للقيم الرجعية وبيان العيوب الاجتماعية ومعاداة الاستغلال الطبقي إلى الانكباب على تصوير تفاصيل حياة الطبقات المسحوقة. وبشكل يدلل على تقدم واضح حصدته هذه القصة في مستواها الفني ومضامينها الانسانية، غير أن النقد كان متأخرا عن اللحاق بتقدمها.

من هنا كانت دراسة عبد القادر حسن أمين لبنة مهمة في طريق بناء معمار للنقد القصصي، يردم الهوة بين تفوق القصة الفني وتأخر النقد الأدبي. وستقل المسافة بينهما شيئا فشيئا مع تقدم الدراسات الأكاديمية، ليصير معمار النقد القصصي عندنا شاخصًا للعيان.

وبالطبع كانت دلالة مفردة (الحديث) تعني وقت انجاز الدراسة، الأدب المعاصر

والراهن آنذاك. ولعل شمول خمسين عاما من كتابة القصة بالدراسة، قد يبدو كبيرًا على رسالة ماجستير، وكان بالإمكان الاقتصار على عشرة أو عشرين أو خمسة وعشرين في الأكثر، لكن هناك أسبابا أوجبت شمول هذه الأعوام كلها بالدراسة النقدية منها صعوبة الحصول على القصص جميعها بسبب ندرتها أو ضياعها، ولأن الصحف والمجلات والكتب التي نشرت فيها القصص كانت كثيرة وقد وصل عددها إلى السبعين، وبعضها أغلقت ابوابها أو غيرت اسماءها أو تحولت من الادب إلى السياسة.

ولا ننسى أنّ للإشراف دورا في توجيه الباحث نحو دراسة النتاج القصصي للخمسين عاما كلها، كي يدخل فيه النتاج القصصي المتزامن نشره مع وقت اعداد الدراسة، وكان "ما زال الكثير من قصاصينا في مقتبل العمر وفورة الشباب"[10].

وطبيعي أن الباحث حين يشمل هؤلاء بالدراسة يحفز المواهب الجديدة، لكنه لن يستطيع إصدار أحكام ازاءهم، ما دامت تجاربهم لم تتوضح بعد، كون بعضهم قد يعضد إنتاجه مستقبلا أو يجافيه، وقد يصاب الأديب بالغرور وهو يجد عمله مدروسا في بحث أكاديمي فتأخذه العزة بإبداعه ويخدعه سرابها فلا يهتم بتطوير مواهبه، ومن ثم "تطمئن نفسه إلى المرحلة التي وصل إليها فيتضاءل طموحه وتخبو وقدة حماسته وفي ذلك تدهوره وأفول نجمه"[11].

ويبدو أنّ المنهجية التي اعتمدها الباحث لم تسعفه في التخلص من الذاتية التي تسربت نوعا ما إلى الدراسة، فوقع في بعض مطبات سوء الحكم والتقدير. وهو ما وقع فيه أيضا عبد الإله أحمد؛ الذي استمد السياق النقدي نفسه الذي انتهجه عبد القادر أمين ومن يتمعن في مقدمة كتابيّ عبد الإله أحمد ومتون فصوله سيجد كثيرا من أحكام القيمة والتقدير.

ولم يستعمل عبد القادر أمين كلمة ناقد بل استعمل كلمة معالج، وهذا طبيعي في وقت لم يكن النقد قد وضع أساسات أكاديميته بعد، وهذا ما جعل بعض وقفات الباحث مهمة وتأصيلية إزاء قضايا أدبية ونقدية وبالمقابل كانت له وقفات هي مجرد آراء ذوقية وأحكام انطباعية وتعليلات تجافي التاريخ أو تتحايل عليه متنحية عن الحقيقة.

فهرس هوامش البحث ومصادره

1 - القصص في الادب العراقي الحديث، عبد القادر حسن امين، مطبعة المعارف، بغداد، 1955.
2 - نشأة القصة وتطورها في العراق 1908- 1939) دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط3، 2001.
3 - فهرست القصة العراقية، عبد الاله أحمد، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1973، ص11
4 - ينظر: مرايا جديدة، عبد الجبار عباس، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، 1981.
5- في النقد القصصي، عبد الجبار عباس، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، 1980، ص325.
6- المصدر نفسه.
7- ينظر : مرايا جديدة، ص220
8- في النقد القصصي، ص310.
9- 9. ينظر: المرأة في القصة العراقية، شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص18.
10- القصص في الادب العراقي الحديث، ص 4.
11- المصدر نفسه.

الشعرية العراقية ورهان الحرية

مؤيد عليوي
ماجستير نقد أدبي حديث وناقد
عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

لا ينفصل الشاعر/ الشاعرة عن واقع حركة الحياة اليومية في المكان الذي يعيش، ولا ينفصل عن حركته وفلسفته ومفاهيمه للجمال الخاصة وربما أيديولوجيته بين أمواج المكان وبعض ميثولوجياه، الذي يعني فيما يعنيه التقاليد المجتمعية والنظام السياسي والحياة الاقتصادية الاجتماعية بحسب تعريف ياسين النصير له، وكذلك التقاليد والسيميائية الواقعية في الثقافة العراقية، وطقوس القراءة والكتابة للشاعر/ الشاعرة وتفاعل النقاد في الكتابة عن المنجز الشعري وما الى ذلك..، أنها تفاصيل يومية تؤثر حتماً في التجربة الشعرية بحسب ماهية كل ما تقدم من تأثيرها سلباً أو إيجابا على نفْس ومزاج الشاعر/الشاعرة ((فتكون مسؤولية إنتاج النص الشعري أقرب الى "شركة مساهمة"، التي أسستها مجموعة عناصر، من بينها الإنسان وتجربته الحياتية وموقفه من الواقع)) مع عناصر كثيرة منها نوع الرؤية الثقافية للشاعر/ الشاعرة ومفاهيمه الجمالية، ومنها مكانة المرأة في المجتمع وأنوثة الشعر لا ذكوريته، ومنها اللغة بوصفها نظاماً تمركز في الذات الشاعرة، وأكثر تلك الظروف تأثيراً السياسة أو الأنظمة أو طريقة أنتاج الأنظمة، التي تؤثر في ماهيّة التعاطي الشعري وإبداعه ومزاج ونفسية الشاعر، أما من خلال أيدلوجيا حاكمة أو أيدلوجيا معارضة، فتنزاح الذات الشاعرة الى مناطق غير مأهولة بالصدق الفني وبالتالي غير مأهولة بالشعرية، فتركبها موجة الظروف القائمة وتذهب بها الى منطقة غريبة عنها شعرياً منطقة لا تعرف شوارعها في داخل الشاعر/الشاعرة، تسبب له متاهة تهدم ما تم بنائه في داخله، فالشعرية تراكم كمي وكيفي في حركة مستمرة وقلق داخلي بالفن وجماليته فقط، فيكون التحرر من الشروط النقدية المُسبقة للشعر هي الخطوة الأولى لتحرر من سطوة الخارج الواقعي، إذ القراءة النقدية وتطوير الموهبة تقع على عاتق الشاعر/ الشاعرة لتكون ثمة بصمة تفرد له دون توجيه لبوصلة العشر بقيود نقدية، مثلما حصل في مرحلة الستينيات وكانت بنت مرحلتها إذ فرضت تلك المرحلة

شروطاً بـ (رؤيا أدبية أيدلوجية للواقع) لجيل كامل لم يجسد المشهد الشعري من بيانها إلا فوزي كريم وفاضل العزاوي وكانا موصوفينِ بالتطرف حينها، وفي السبعينيات كانتَ ملامح الشعر ردّة فعل على شعر الستينات...، أما اليوم فالعالم منفتح وعلى الشاعر/ الشاعرة، تطوير نفسه والبحث والدراسة دون وصاية نقدية، وبهذا ستتعدد المدارس الشعرية بما يدفع الشعرية العراقية الى مصافي العالمية، وعلى الناقد الحصيف أن يدفع بهذا الاتجاه لأنه التطور الواقعي للشعر في العَالم، فقسمات الشعر تكون بعد إنتاجه، لا بوصاية نقدية عليه تحدد ملامحه مسبقاً، فالشروط المسبقة مثل تجربة الستينيات في فسحة الديمقراطية اليوم ستكون قيود على الذات الشاعرة، من حيث حقيقة الشعر تمرد إبداعي، ولا تكون الشعرية العراقية مبنية على ردة فعل نقدي أو شعري مثل مرحلة السبعينيات، بل تكون الجمالية في الفن من السمات المألوفة نتيجة تمرد الشعر على قوالبه الثابتة : البنية الشعرية واللغة والشكل والمضمون...، في عصره. ويحتاج الشاعر/ الشاعرة للتحرر من تسلط الأنا العليا على الذات الشاعرة في داخله، الأنا العليا التي تحرف المجرى الإبداعي الى أرباك الشعرية أو قلْ تقلل من منسوبها الإبداعي كما حدث في آخر تجربة سعدي يوسف، إذ قلّ منسوب الشعرية حين طغت الأنا العليا فصارت المباشرة والتقريرية حاضرة في نصه بما يفقد شعريته بريقها الآخذ، وبسهولة أن تلحظ هذا بمقارنة بسيطة في المنجز الإبداعي لسعدي يوسف. أما الظروف المتسلطة على الشاعر/ الشاعرة من الخارج المادي، فهي ما أوجدتْه من كتّابِ قصائد المديح للدكتاتورية بالأمس، وكتّاب قصائد المهرجانات الدينية اليوم، مقابل المال فيما سلوكهم اليومي لا علاقة له بالدين، فما بالك بمديح أحزاب الإسلام السياسي النافذ في اغلب العراق، من أجل المال أو أيدلوجيا، بمعنى غياب الصدق الفني وغياب الشعرية، أو كتّاب قصائد الايدولوجيا دون عبورها أو تجازوها الى الفنية والجمالية، أية أيدلوجيا كانت فهي ثابت شبه مقدس، وحقيقة الشعر قلق متمرد يُكسر قيود الخارج والداخل ويتجاوزها الى ضفة الإبداع والخلق، ولو كانت المقدس الثابت نفسه، فتمرد الشاعر/ الشاعرة على قوالب الشعرِ الجاهزة في عصره ليبدع تمردُهُ شعراً فيه بصمته الإبداعية بفنية وجمالية مثال ذاك تجربة رائد الشعر الحر السياب في قصيدتي "أنشودة المطر" سنة1954 في بغداد، وقبلها "غريب على الخليج" سنة 1952 في الكويت، وقد أبدع فيهما، على الرغم من انتمائه للحزب الشيوعي وقتها بمعنى عبر عن فلسفته الماركسية بصدق فني وتمرد متجاوزا القوالب الجاهزة للعشر وفي ذات الآن تجاوز المحنى الأيدلوجي، وعلى حد قول خالدة أحمد سعيد التمرد اليومي على الواقع والقوالب الجاهزة للموروث الشعري باعتباره ثابتا ومقدسا، هو ما ينتج الشعر والجمالية التي نبحث عنها، لنجدها في مفهوم الجمالية عند مارك جيمينيز، فجميع الظروف السالفة وغيرها تؤثر في الشعرية العراقية، وتؤثر في نفس الشاعر/ الشاعرة لأنه إنسان

حسّاس الذات، اقصد الذات الشاعرة التي تتحسس مواطن الجمال دون قيود مرجعية دون وصاية شروط مسبقة في داخله كابحة لحركة التمرد الإبداعي، اقصد بدائية المشاعر مثل اكتشاف النار عند الإنسان الأول، أنه قلق التجربة اليومية فالشعر عالم خاص تكون شعريته نابعة من أعماق الذات الشاعرة وما يعتريها من تفاعل اتجاه كل ما يمر بها يومياً من حركة واقعية وقراءة، تنبع من الإحساس البدائي كما يقول ت – س إليوت: الشاعر أكثر بدائية من أقرانه وأكثرهم رؤية، فالبدائية هنا هي بدائية الإحساس والفطرة الأولى للمشاعر في التفاعل مع الموجودات اليومية والتعبير عنها بصدق فني حتماً، في فردانية متمردة شعرياً ومتمردة على الواقع في ذات الآن، وهذا يتطلب الحرية الكاملة، ومن هذا الإبداع الذي نرى فيه ملامح الشعرية العراقية في المستقبل، هو من تجربة شاعرتين فلحية حسن وعلياء المالكي:

1 - تمرد فليحة حسن: تمردها سلوكاً وإبداعا مقاوم لسلطة الخارج الواقعي اليومي بقوة والرافض لسلطة للانا العليا على الذات الشاعرة بقوة أيضاً، فهي تنطلق من ذاتها الشاعرة بصدق فني إذ تحررها مرهون بوعيها الذي تمرد على القيود في هذه التجربة الثرة عراقياً: ((فليحة حسن شاعرة متمردة على المقدس الوضعي لاهثة حول ألق المفردات التي تفلت من بين سلطة الرقيب الذاتي وسلطة العرف الاجتماعي. فالمقدس لمدينة مثل النجف الاشرف يبتدئ بقداسة المكان وانتهاءً بقدسية النص الشعري (الوزن والقافية) والمعنى المحافظ في داخل النص، فمن يتعد حدود هذه المسميات يعد خارجا عن نطاق المقدس.. فليحة حسن تسير على خطى ابنة مدينتها نازك الملائكة التي ثارت على المقدس ولم تلتزم بقصيدة الوزن المقفى بل راحت تتمرد وتكشف عوالم أكثر حداثة من الشعر الكلاسيكي الذي بقي ضمن قالبه الذي يقتل الصورة الشعرية أمام الوزن (المقدس)، فشنت الحملات حينها ضد الملائكة في بداية تجربتها في الشعر الحر واعتبرت قصائد خارجة عن الذائقة الإرثية ذات الوزن والقافية والرافضة للمقدس (الوضعي).. رغم أن متطلبات الحياة العصرية من حداثات دفعتها الى ولوج شكل آخر للشعر وليس رفضا لعروض الفراهيدي.. في مجموعتها الشعرية (ولو بعد حين) التي صدرت عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق 2007 تثبت فليحة حسن وجودها كشاعرة من طراز خاص، لها بصمتها الخاصة وأسلوبها الحداثوي الذي يطوع المفردات ضمن خيال مفرط في الاستعارات اللفظية الدلالية واعتماد اللامباشرة في الخطاب الشعري))، فأن الحرية التي مارستها فليحة حسن والتزمت بها واقعاً هي التي منحت شعريتها الإبداع الشعري الحق، كما وهبتها جواز التطور والرقي بالفن جمالياً، وهذه الحرية التي قصدها النقد في السطور المتقدمة، فالحرية عموماً مرهونة بحرية المرأة مما هو ذكوري في المجتمع، ومنها الشعرية العراقية، ثم نقرأ ما كتبه ياسين النصير عن ديوانها "زيارة لمتحف الظل" إصدار 1998: ((لم يدر بخلد أحد منا أن يلتقي يوما

بشاعرة لا تسبقها دعاية ما، فليحة حسن الفتاة النجفية السمراء، تقتحم قراءاتك دون استئذان بديوان شعر صغير، 37 صفحة، وبـ31 قصيدة قصيرة، شاعرة تتلمس طريق الفراشات إلى حقول الشعر، لا تفتعل اللغة، ولا الصورة، ولا الكلمة، بل تجد ما تريده منساباً بتراجيديا حزينة دون تعقيد. هذه الشاعرة الكريمة كأي واحدة من أدباء العراق الشباب تتحفك بمجموعة أو أكثر من نتاج الشعر، وهي لا تدعي أكثر مما تقوله قصائدها، وخلال متابعتي لها ولغيرها من الشاعرات لم أجد لهن فسحة في صحافتنا الثقافية إلا قليلاً...، تتحدث الشاعرة فليحة حسن في ديوانها الصغير/الكبير، "زيارة لمتحف الظل" عن خسارات جيلها، في الحب، في البيت، في الحرب، في الهناءة، في القوت، في الرغبة، في أن لا يموت أحد موتاً مجانياً. لتؤسس إلى ميثولوجية جديدة مادتها ما حدث للعراقيين بفعل الحروب. لأن ما في القصائد القصار صخب مرحلة وشواخص لا يمكن العبور عليها، ورؤيا ميثولوجية معاصرة...، فالشعر العراقي مبادر إلى اكتشاف أمكنة ميثولوجيا جديدة...، عندما لا تقدم الشاعرة الميثولوجيا كحدث مستقل - الحركة الأولى للحداثة -، وعندما لا تستثمرها كدالة على وضع - الحركة الثانية للحداثة - بل تجعل منها صوراً جديدة، مُستلة من أحداث واقعنا وما جرى لنا في الحروب، في هذا الديوان الصغير أشعر لأول مرة أنني أقرأ أحداثا ميثولوجية توضع في المتحف ونذهب لمشاهدتها ونعيش لحظاتها، ثم نغادرها تاركين ظلالنا معها. فالشاعرة لا تستعيد ميثولوجيا، بل تولد ميثولوجية عراقية جديدة. (أيامنا مرهونة في قبضة التابوت ها نحن نجلس خلف أكياس المخاوف ساهمين لنعد ما يبقى من الأطراف في جسد الحياة والأرض صارت تعلك الأجساد تبصقها شحوبا للعناء والرب ينأى بات أبعد من مدارات التكهن بالوصول).

2 – المقموع وشعرية الأسطورة في "طوق الفراشة"/ علياء المالكي يدخل النقد من بوابة المكان فالفضاء الداخلي لغرفة النوم التي تمثل خصوصية وحكراً لمَن يقطنها وفي سرير النوم الذي يمثل اقصى حالات الخصوصية والامان والطمأنينة حيث يكون الاستماع الى صوت حنين النفس الى ما تريد في هدوء وتواصل معها لتنطلق الذات الشاعرة في علياء لتصويره فنياً :(يتساقطُ/ صوتُ الكريستال المتكسرِ/ في الاحلامْ/ يتبعثر في عروق الاغطيةِ النائمةِ/ فوق سريريِ/ عندها../ ارنو اليكْ/ كطفل أحمل أجنحةً../ مسافرةً/ نحو سماوات لا مرئية)، فتنبلج الصورة الفنية عن الميثولوجيا اليومية في صورة الحنين، وفي لحظة من الاغتراب عن الواقع في ذات الآن، أن معنى النص هو الحنين والاغتراب، فالحنين يوّلد الاغتراب دائماً، أو تصبح المعادلة بسبب الاغتراب يكون الحنين، فملازمة الحنين الى الماضي والاغتراب عن الواقع جاء نتيجة قمع للمرأة ولحرية الذات الشاعرة فيها، فحرية علياء منقوصة لذا يكون فضاء الغرفة هو بيت ميثولوجياها السرية، وبسبب التسلط أيضاً عدم إفصاحها لما تحنّ له الشاعرة في حالة انغلاق نفسي تام ضمن في نصها الشعري، في مزيج بين الحلم والملوس

الواقعي، بين الروحي والمادي، هيام في ملكوت الحنين في لحظة انفلات طفولي عفوي للنفس البشرية لتعود الى أصولها البدائية بدائية المشاعر قوة العاطفة والإحساس، كما هي عند الأطفال، حيث الطفل أكثر البشر احساسا بما حوله في انعدام المعلومة عن المخ، أو تشبه بدائية إحساس الإنسان الأول بالماء والنار، فتكون هذه الميثولوجيا في الغرفة، لتنطلق في أفق أبعد (نحو سماوات لا مرئية) الى افق هلامي تتحسسه النفس بين الروحي والمادي، لتنطلق الشاعرة من فضاء الغرفة الى فضاء الخارج المادي الفيزيائي بإحساس منعش متصل بالانفتاح النفسي على الخارج الفيزيائي وهي مازالت في فضاء الغرفة - كما يرى باشلار-، بما يشبه انفتاح الانفتاح النفسي للسجين، بمعنى الخروج الفعلي لن يتحقق، وهذا الانفتاح النفسي عبّرتْ عنه (في قلبي) من خلال صورة فنية مكملة للصورة التي سبقتها، حيث صورة جديدة : (أرنو اليك/ كنجمة/ في قلبي مساءٌ/ يتمشى على جسر/ وشارع/ يُسمعني همس طيور/...) حتى نهاية النص، فتفضح كلمةُ الشارع والجسر عن فوضى المكان الخارجي وسطوته اليومية، وهي من الأماكن العامة التي تظهر فيها سطوة الأنظمة على الفرد وسطوة المجتمع الذكوري على المرأة، ليكونا اشارة لسبب الميثولوجيا اليومية التي يلجأ إليها العراقيون في اغلب وقتهم بسبب الأنظمة وحروبها والممنوع على المرأة، لتعوض علياء هذا الفراغ بالحنين لما تفقده من خلال أسطورة ميثولوجياها السرية، في إشارة الى المفقود من الأمان في بغداد وقت نشر النص 2009 فيكون المَحنون له شخص أو الشعر أو فكرة ما، أو ربما وطن مسروق. ثم تذهب الشاعرة في نهاية النص الى توظيف قصة يوسف والبئر، للدلالة على حنين يوسف لأبيه ذلك الوجع اليومي ليوسف، بما يشير الى وجع الحنين اليومي لدى الشاعرة، معززة اسطورتها بنسق أسطوري موروث، ينتمي للحركة الاولى لقصيدة الحداثة كما فعل السيّاب، فتستمر ميثولوجياها هذه يومياً من خلال تكرار هو صوت الراء في نهاية الجملة الشعرية من الاجواء الاسطورية ذاتها ها هنا (يتساقطُ/ صوتُ الكريستال المتكسرِ/) وكذلك في الفعل (يتبعثرُ) الى نهايةِ القصيدة، من خلال صفة التكرار التي يحوزها صوت الراء، وهي الصفة الوحيدة له، الذي جاء في نهاية السطر، بمعنى أن صفة استمرارية المعنى أو تكراره، هي الصفة السائدة في دلالة صوت الراء التي تتفق ومعنى الجملة الشعرية، وما تبعها من علاقات دلالية في تكوينها للصور الفنية، لتفضي الى استمرارية هذه الميثولوجيا نصاً وواقعاً وذات الدلالة لصوت الراء في المعنى الجملة (ويبتدئ العمرُ) بمعنى بداية جديدة تكرر فيها الميثولوجيا النصيّة، فحين تأتي هذه الجملة في نهاية المقطع الذي يكون فيه الوطن مخبأً بين طيات اغنية فالوطن خارج الاغنية غير موجود أو أنه مسروق أو أنه مصادر: (يتفتح القمر الغائب/ في قلب أغنية/ حين أحن/ الى الوطن الغافي/ على أضواء شموعي/ يبتدئ العمرُ)، أو يكون (الوطن الغافي) تعبيراً مَجازياً عمّا يشبه الوطن الحقيقي الذي يوفر الأمان

والاستقرار، ولكن غير موجود في الواقع أيضاً، لذلك تجده الشاعرة في أغنية مرتبطة به، فمديات المجاز تتسع هنا في هذا المقطع وعموم النص الى أبعد نقطة بحسب المتلقي وبناه المعرفية، وتبقى مهمة تأويل النص الى مَن أو ما تحنُّ علياء، على المتلقي بعد أن طرقنا مفاتيح النص ونتمم صناعتها في نهاية الورقة. وللمكان حضوره في مقاطع أخرى من النص الشعري "طوق الفراشة"، بستان النخيل والمرأة تضفر سعف النخيل، والأرجوحة، جسّدت التواصل النفسي بين الشاعرة والخارج الفيزيائي في حنين الشاعرة وهي مازالت في غرفتها، لتوظف هذا المكان وحركته في بناء صور فنية متصلة بالنسق الدلالي المتكون من ثلاث جملٍ متكررة تبدأ بـ(كلما + فعل ماضي) في دلالات ميثولوجية، يشي تكرارها ثلاث مرات من أنّها ميثولوجيا تتكرر يومياً إلا أنها تكون ميثولوجيا سرية داخل الغرفة بسبب القمع خارجها، ثم ينكسر هذا النسق بنسق ثانٍ من ذات حروف النسق الأول، فالنسق الدلالي الثاني: (كل ما + فعل ماضي) مع تغيير دلالي يناسب فك الارتباط بين (كل) و(ما)، وتكرار جملتها مرتين متتاليتين لتوكيد هذا النسق ونهاية النسق الدلالي الأول، وهذا يتناسب مع معنى كل نسق، ليفصح النسق الثاني عن انتهاء حالة الانكفاء والنكوص النفسي لسبب الحنين، وبداية الشكوى من هذا الحنين، فهذان النسقان يصوران ما مر من تحليل النص على وفق المكان، حيث يكون معنى النص قد ارتكن الى المكان الذي يؤدي وظيفة أسطورية، وارتكن الى التكرار الفني للجمل الشعرية، وخلق انساق دلالية، وفي كلتا المرتين يكون الحنين والاغتراب حاضراً في حالة الـ(بين بين)، ليمنحنا مدلولهما معنىً أسطوريا يجسد ميثولوجيا عراقية، مازال يعيشها العراقي في واقع يومي، قامع للحريات لكثرة الخطوط الحمراء آخرها استشهاد الروائي د. علاء مجذوب، وهذه الثنائية تمنح النص مدلول ثنائية الروحي والمادي، المتخيل والواقعي، الـ(بين بين)، لتشير الى ثنائية طرفي جسر التواصل من الميثولوجيا، أما النسق الأول فيبدأ من بداية النص (كلما حررت نفسي) وينتهي بـ(بدأت حياتي) في تداخل بين النسق الأول والنسق الثاني حيث الفاعل (حياتي) للفعل (بدأت)، يكون فاعلا للفعلين (تضرب القلب/ تعلن النبض)، ليجيء النسق الثاني في امتداد وتمدد من النسق الأول من تفكيك (كلما) فيكون النسق الثاني يبدأ من (على كل ما.. مر من جفاف/ كل ما ..كتبتُ من حروف)، ليحلق النص في الشكوى من الحنين التي تبدأ من (حصارُ حبكَ/ أغصان /..) ولينتهي (الى حيث.. لا طريق) حيث المجهول وعدم الاستقرار لذا يكون العود الى الحنين مرة أخرى في مقطع جديد هو مقطع الأغنية والوطن الغافي، وهكذا دواليك تعيد قراءة النص مرة أخرى متصلة من آخر كلمة فيه (الطوق الجميل) الى العنوان (طوق الفراشة) بعد أن يتزود المتلقي منه بمفاهيم الأسطورة، وتنتفي من ذهنه القراءة الأولى خارج ثيمة الأسطورة.

مطبوعات وصلتنا :

• عقيل الناصري (ملاحقة اليسار في العراق 1964-1921). دار لاريسا للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. بغداد 2020

• د. علي محسن مهدي، موضوعات دستورية في الشأن العراقي - دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع - بغداد 2019.

• فرحان قاسم، لم الماركسية؟ (طبعة منقحة). دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع- لغداد 2019.

• حسب الله يحيى،الكتابة الخشنة والكتابة الناعمة .اتحاد الادباء في العراق. دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر - بغداد 2020.

• نعيمة مجيد، همهمة المغدورين (رواية) .دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع – بغداد

• الموسوعة الثقافية (التناص بين عهد الامام علي(ع)الى مالك الاشتر والرسالة الخامسة في (نصيحة الملوك) لسعدي الشيرازي) د.صبيح مزعل جابر المالكي ،د.عماد الدين عبد الرزاق العباسي - دار الشؤون الثقافية.وزارة الثقافة - بغداد 2015.

• الموسوعة الثقافية (شخصية الطفل في القصة القصيرة المعاصرة) محسن ناصر الكناني – دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة – بغداد 2016.

• الموسوعة الثقافية (الملاريا بين العلم والتطبيق) د. خليل ابراهيم شهاب - دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة - بغداد 2016.

• حسن الناشي (كلمات في دائرة مغلقة – قصص قصيرة) شمس للنشر والاعلام - القاهرة 2015.